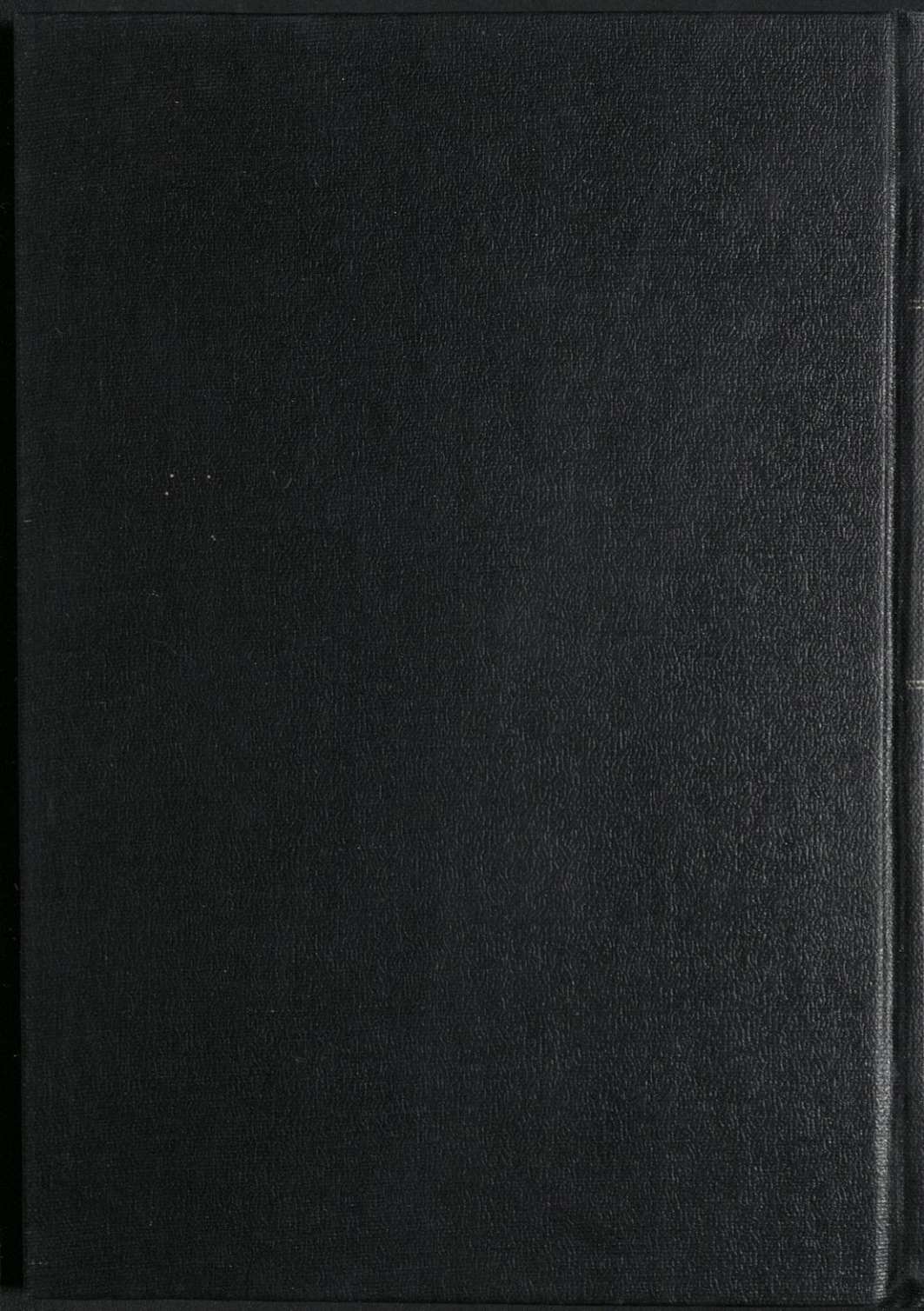


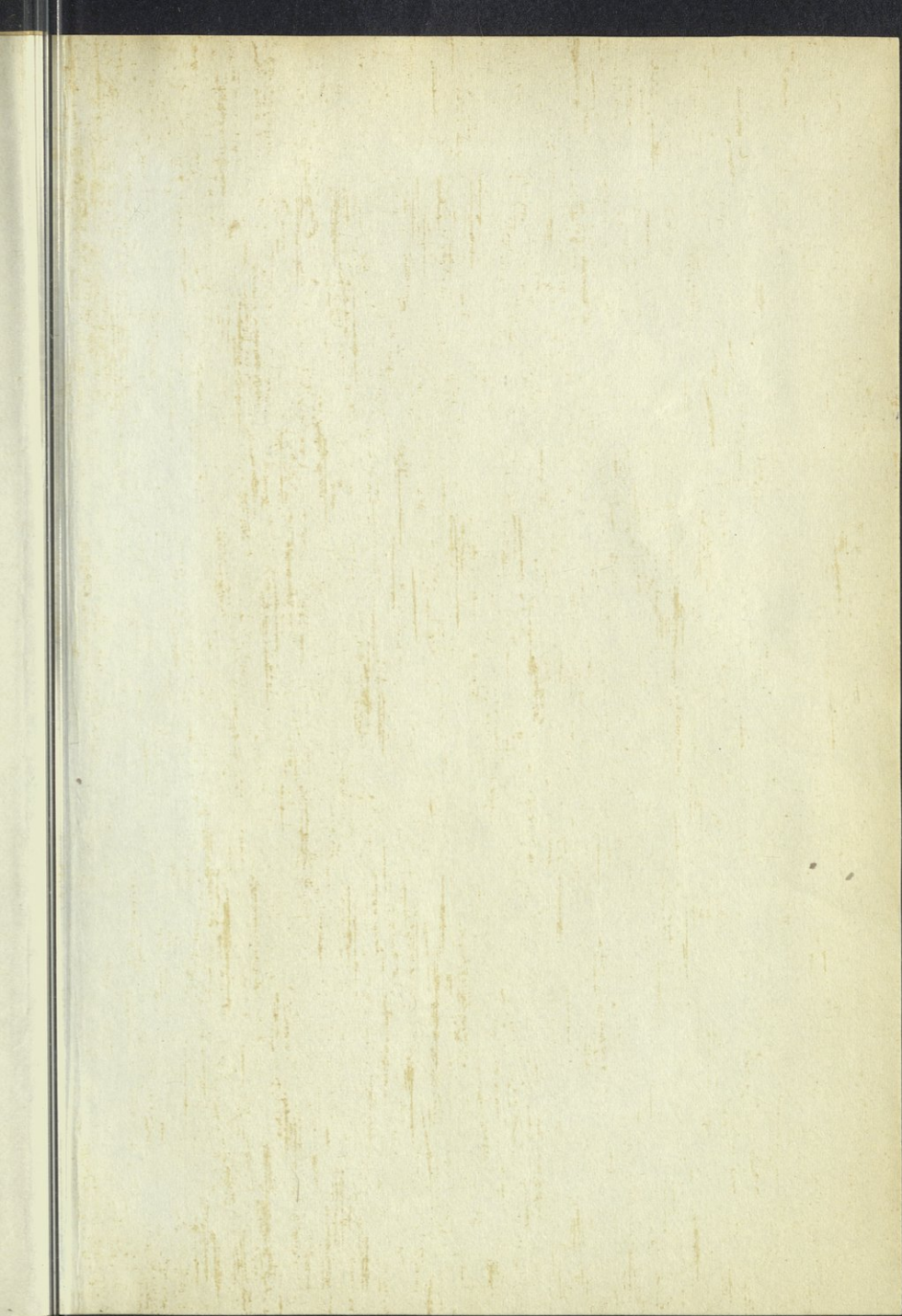


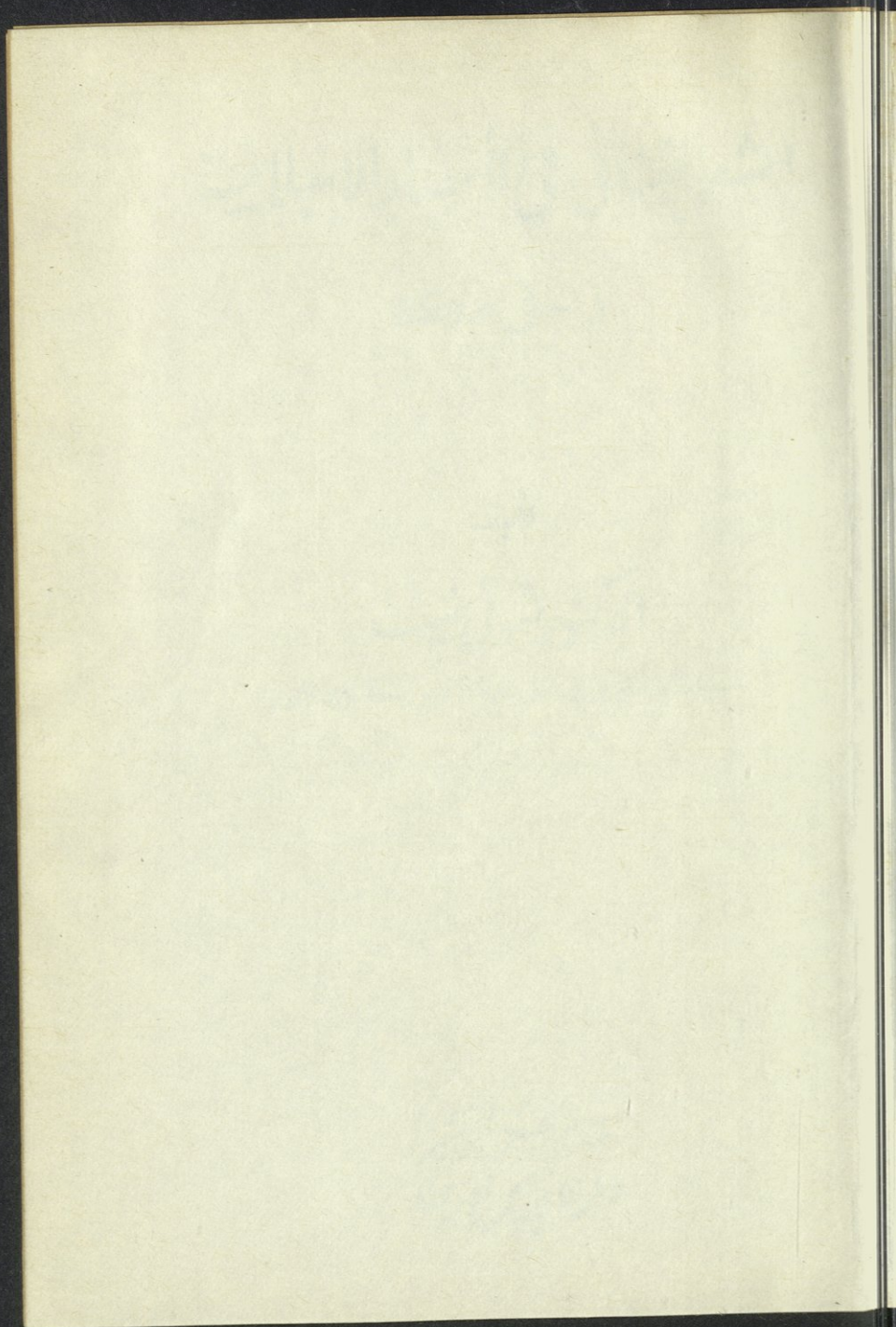
A. U. B. LIBRARY

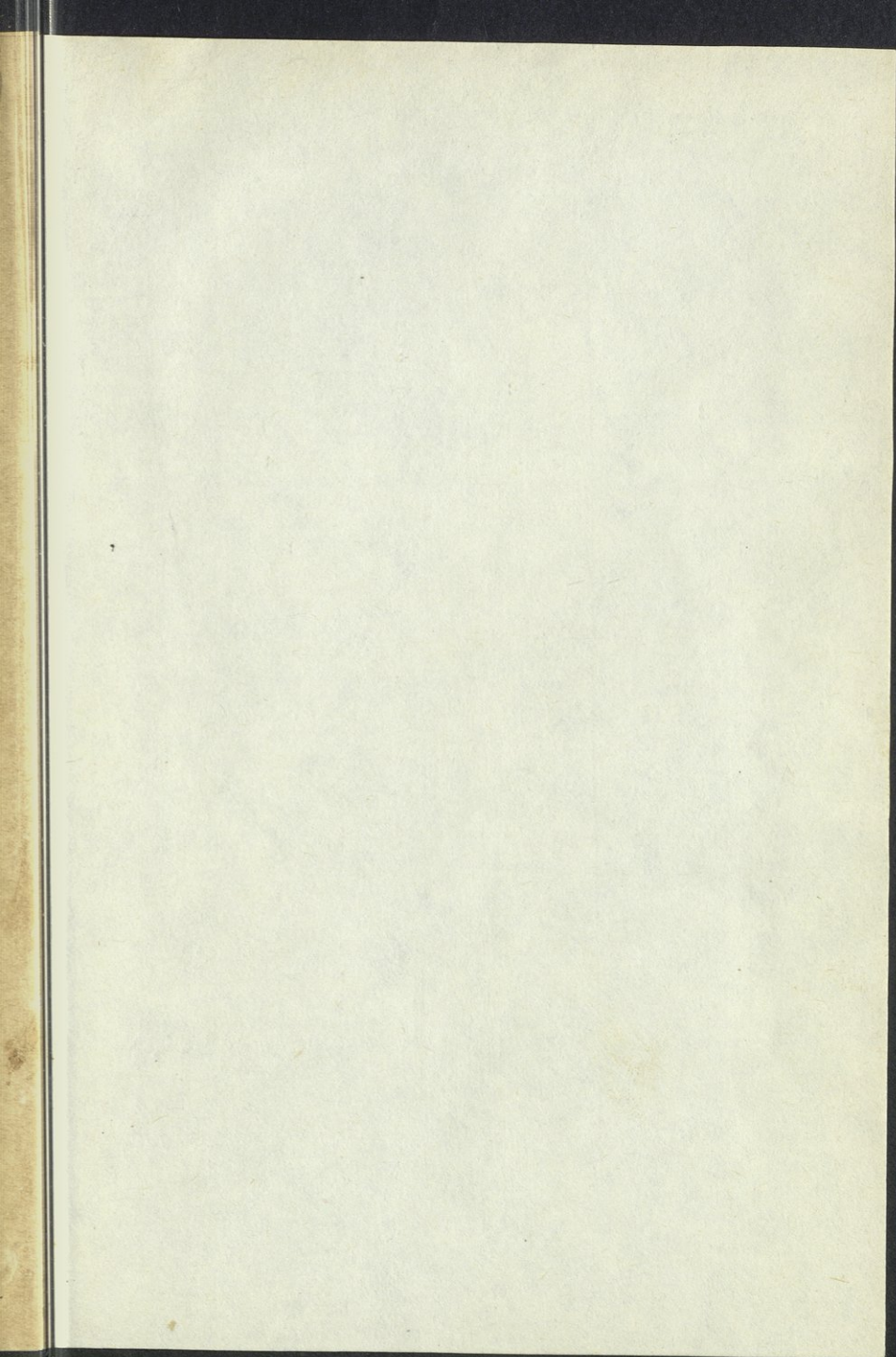
AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



YACON 2.1







808.1
D270 A
v.2
c.1

الشعر الغنائي في الأبحار الإسلامية

٢- في مكة

تأليف

الدكتور شوقي ضيف

أستاذ الأدب العربي المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

مكتبة المطبع والنشر
دار الفكر العربي



الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

القاهرة

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية

١٩٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الكتاب هو الحلقة الثانية من مجموعة « الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية ». وسبق أن بيّنتُ فى مقدمة الحلقة الأولى الخاصة بالمدينة أن الشعر الغنائى بمعناه الواسع يشمل كلّ موضوعات الشعر العربى من مديح وهجاء وفخر ورثاء وعقاب واستعطاف وغزل إلى غير ذلك . غير أنى لم أُجرِ هذه المجموعة فى ذلك المعنى الواسع ، وإنما أجريتها فيما يقابل كلمة « أغانى » فأنا أدرس فيها مقطّعات الشعر التى غُنّيت وعزّفت بها العازفون على آلاتهم الموسيقية .

ورأيتُ قبلاً أن نسمّى شعر المديح والهجاء وما إليهما ، مما لم يُغنّ ولم يُعزّف ، شعراً تقليدياً ، حتى نُميّز بين نوعين متقابلين من الشعر عندنا ، تطوّر كل منهما تطوّراً منفصلاً . فالأغانى تطوّرت تحت تأثير موسيقى الآلات فى صور مختلفة حتى انتهت إلى الموشحات والأزجال ، بينما تطوّر الشعر التقليدى فى مذاهب ومدارس فنية ، صوّرناها فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » .

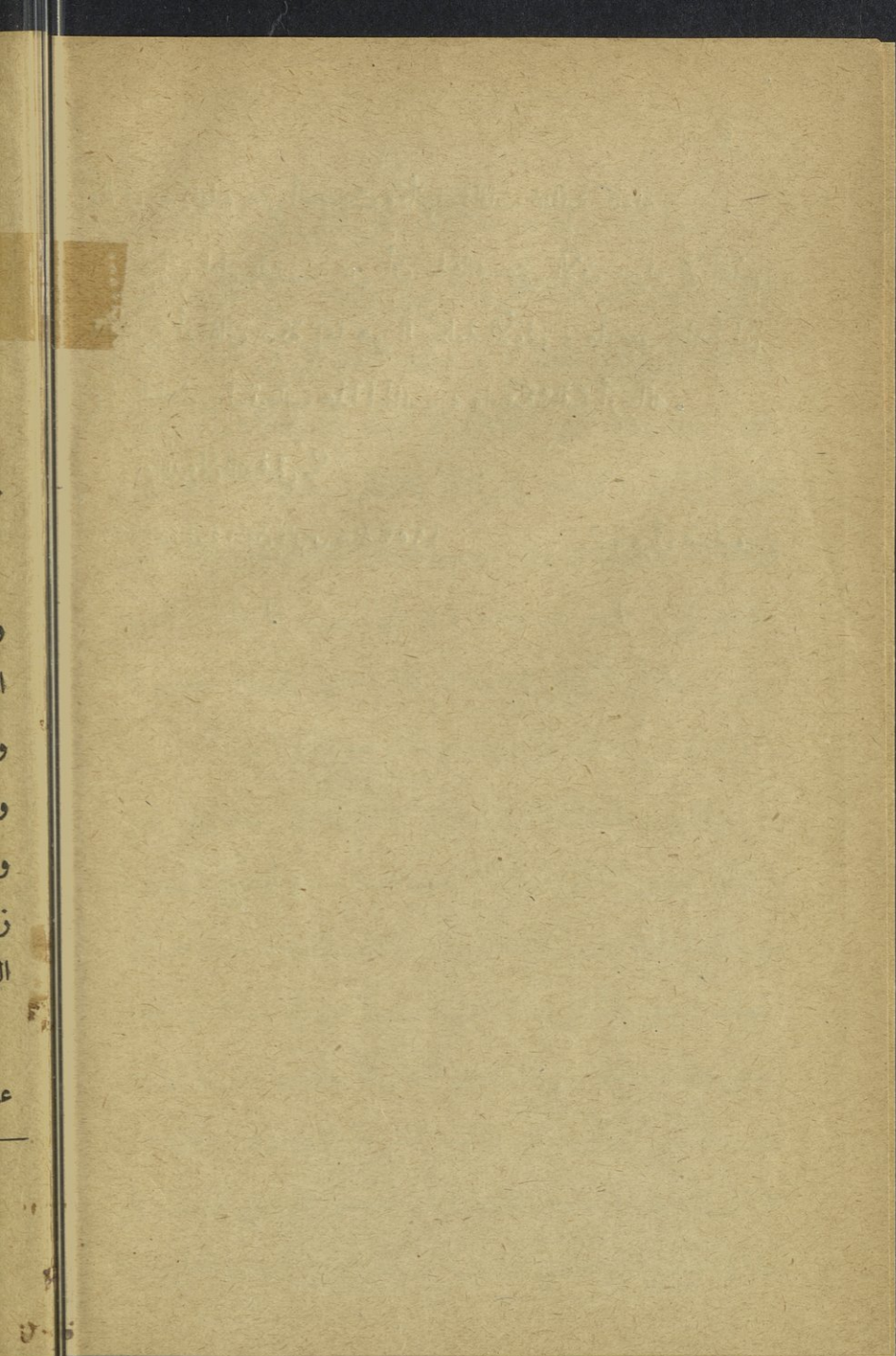
وهذه الحلقة خاصة بدراسة الأغاني التي أُلِّفَتْ في مكة أثناء العصر الأموي ، وهو عصرها الزاهر في الموسيقى والغناء . ولما كان هذا النوع من الشعر لا يستقلُّ بنفسه ، بل يعتمد اعتماداً على فن الغناء ، لذلك عُنِيَتْ بدرس هذا الفن وأصحابه ، كما عُنِيَتْ بدرس الأغاني ومؤلفيها ، محاولاً أن أصور التفاعل بين الغناء والأغاني ومدى ما أثر به المغنون في الشعراء حتى يلائموا بين أغانيهم وحاجات الغناء الجديدة . ورأيتهم يكثرُونَ من التحريف والتحوير في أوزانهم ، كما رأيتهم يكثرُونَ من استخدام الأوزان الخفيفة السهلة ، حتى يتيحوا للمغنين كل ما يريدون من ذبذبات موسيقية وتموجات صوتية .

واشتهر في هذا الجانب شاعران هما ابنُ أبي ربيعة وابنُ قيس الرُّقَيَّات ، ومن ثمَّ أفردت لكل منهما فصلاً ، حتى أَوْضَحَ ما نهضاً به من ملاءمة دقيقة بين أغانيهما وضرورات الغناء المستحدثة في عصرهما . وجمعت الفصل الأول في الكتاب دراسة موجزة لمسكة في العصر الجاهلي وما شاع فيها من شعر ، وفي العصر الأموي وما صارت إليه من ترف وتخصُّرٍ . وكل ذلك ليتضح المسرحُ الذي وُقِّعَتْ عليه هذه الأغاني المسكية ، وليسمعها القارئُ لا في ضجيجها الموسيقي فحسب ، بل أيضاً في ضجيج الجماعة التي عاصرتها ، وكانت من أسباب التطور بها

والرقى بصيغها ، حتى أصبحت وكأنها مؤلفات غنائية كاملة .
 وإني لعلّى يقين من أن ماقلته حتى الآن سواء في أغاني
 المدينة أو أغاني مكة إنما هو الكلمة الأولى ، وأرجو مخلصاً أن
 يُتمَّ الباحثون استيعاب هذا الجانب ، واستكشاف أرجانه .
 والله ولي التوفيق

سوقي ضيف

القاهرة في ١٥ من مارس سنة ١٩٥٣



الفصل الأول

مكة

١

موقع مكة

مكة أهم مدن الحجاز ، وهي تقع في منتصف الطريق بين الشام واليمن ، وتقوم في بطن وادٍ شقته الطبيعة في جبال السَّراة ، ذلك الحجاز الطبيعي الذي يفصل بين نجد في الشرق وتهامة في الغرب . وتأخذ مكة في هذا الوادي شكل هلال ، طوله ضعف عرضه ^(١) ، ويتخلل هذا الهلال مرتفعات كثيرة تنتهي شرقاً بجبل أبي قُبَيْس وغرباً بجبل قُعَيْقَعَان . ويسمى قاع هذا الهلال باسم البطاح ، وفيه بئر زمزم والكعبة المقدسة . وما وراء البطاح إلى الجبال يسمى باسم الظواهر ^(٢) .

والشقة بين مكة والبحر الأحمر تبلغ نحو سبعين كيلومتراً ، ومرفؤها عليه في الإسلام جدة ، وكان في الجاهلية الشعبية ^(٣) . وبرغم ارتفاع

(١) انظر مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت ١٧٨/١ .

(٢) معجم البكري طبعة أوربا ١٥٥/١ .

(٣) أخبار مكة للأزرقي طبع أوربا ص ١٠٧ .

سطحها عن البحر بنحو ٢٨٠ متراً جوّها حار في الصيف حرارة شديدة^(١) حتى ليقول ابن بطوطة إن حصباءها تشبه صفحات محمّة^(٢).

وشتاؤها أيضاً قاس في برودته . ومن هنا يقول شاعر قديم فيها^(٣) :

وليس بها مَشْتَى ولا مُتَصَيِّفٌ ولا كَجَوَائِي ماؤُها يَتَفَجَّرُ

وجوائِي : عين بالبحرين . وواضح أن الشاعر يعيها أيضاً بقلة

ماءها . ومعروف أنه ليس بها آبار مهمة سوى زمزم^(٤) ، فهي أطيب

آبارها . ويقول ياقوت إنه لا يمكن الإدمان على شربها^(٥) ، ولعل ذلك

ما جعل الخلفاء يعنون بتوفير المياه للحجاج . وليس من ريب في أن

مكة أثناء العصر الجاهلي عانت كثيراً في هذا الجانب ، ولذلك كان

من الوظائف المقدسة فيها حينئذ سقاية الحجاج .

وندرة المياه بمكة تدل بوضوح على أن المملكة النباتية ليس لها

هناك مكان سوى بعض أشجار البادية من مثل السَّلم والإذخر^(٦) .

وفي القرآن الكريم على لسان إبراهيم « ربنا إني أسكنت من ذريتي

بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم » . وفي السيرة النبوية أن قريشاً

(١) أحسن التقاسيم طبع ليدن ص ٩٥ .

(٢) رحلة ابن بطوطة طبع أوروبا ١/٢٨٠ .

(٣) رسائل الجاحظ طبع فان فلوتن ص ٦١ .

(٤) انظر في حفائر مكة وآبارها فتوح البلدان للبلاذري طبع دى جويه

ص ٤٨ والأزرق ص ٤٣٦ .

(٥) معجم ياقوت طبع مطبعة السعادة ١٤٢/٨ .

(٦) البيان والتبيين للجاحظ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١/٣١٦ .

قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : إنه ليس من الناس أحد أضيق بلدًا ، ولا أقل ماء ، ولا أشد عيشًا منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التي ضيّقت علينا ، وليبسط لنا بلدنا ، وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق^(١) . وفي سورة الإسراء : « وقالوا إن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً » .

مكة إذن بلد قاحل تحيط به الجبال من كل جانب إلا نوافذ أربعة تصل بينها وبين ما حولها . وقد قامت — على ما يظهر — في الزمن الأقدم حول بئر زمزم ، لتكون محطة للقوافل التجارية المصعدة إلى الشام والمنحدرة إلى اليمن . وسميت في العصر الجاهلي أسماء مختلفة ، سميت مكة وبكة وأم القرى وناسسة ، كما سميت باسم صلاح . وسمّاها القرآن الكريم « البلد الأمين » .

٢

مكة في العصر الجاهلي

تاريخ مكة في العصر الجاهلي غامض ، ولذلك كانت تحف به الأسطورة . ويزعم مؤرخو العرب أنه كان يسكنها في قديم الدهر قبائل من جرهم وبقايا من الأمم البائدة^(٢) ، ثم نزلتها خزاعة حين نزحت

(١) السيرة النبوية لابن هشام طبع الحلبي ٣١٦/١ .
(٢) ابن هشام ١١٦/١ وانظر الحيوان طبع الحلبي ٢١٤/٧ .

مع مَنْ نَزَحَ مِنْ قِبَائِلِ الْيَمَنِ إِلَى الشَّامِ . وَيُمْكِنُ أَنْ نُؤَرِّخَ لِهَذَا النُّزُوحِ
بِأَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ لِلْمِيلَادِ ، أَوْ أَوَائِلِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ حِينَ أَخَذَتْ آخِرُ
الدُّوَلِ الْيَمَنِيَّةِ ، وَهِيَ الدَّوْلَةُ الْحَمِيرِيَّةُ ، فِي الْإِضْمَحْلَالِ ^(١) ، فَنَزَحَتْ هَذِهِ
الْقَبِيلَةُ مِنْ هُنَاكَ لِتَسِيطَرَ عَلَى هَذِهِ الْمَحْطَةِ التِّجَارِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَمْرُبُهَا
الْقَوَافِلُ الْيَمَنِيَّةُ إِلَى الشَّامِ مُحَمَّلَةً بِبَضَائِعِ الْيَمَنِ وَالْهِنْدِ ^(٢) .

وَمَا زَالَتْ خِزَاعَةُ قَائِمَةً عَلَى هَذِهِ الْمَحْطَةِ التِّجَارِيَّةِ حَتَّى انْفَجَرَ سَدُّ
مَأْرَبِ حَوَالِي سَنَةِ ٤٥٠ لِلْمِيلَادِ ^(٣) ، فَضَعُفَتْ الدَّوْلَةُ الْحَمِيرِيَّةُ فِي الْيَمَنِ
ضِعْفًا تَامًا . وَحَوْلَ هَذَا التَّارِيخِ يَظْهَرُ قُصَىٌّ مَعَ قَبِيلَةِ قُرَيْشٍ فِي مَكَّةَ ،
فَيَسْتَوِلِي عَلَيْهَا ، وَيَطْرُدُ خِزَاعَةَ مِنْهَا ^(٤) .

وَقَدْ أَزْدَهَرَتِ التِّجَارَةُ فِي مَكَّةَ أَثْنَاءَ هَذَا الْعَهْدِ الْقُرَشِيِّ ، إِذَا صَبَحَتْ
تَحْتَكِرُ التِّجَارَةَ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ ، وَأَصْبَحَتْ مَحْطَةً كَبِيرَةً لِلتِّجَارَةِ الْآتِيَةِ
مِنَ الْجَنُوبِ ، تَجَارَةُ الْيَمَنِ وَمَا يَأْتِيهَا مِنَ الْهِنْدِ وَمِنَ الْحَبَشَةِ . وَكَانَتْ
أَيْضًا تَأْتِيهَا مِنَ الشَّرْقِ قَوَافِلُ مَحْمَلَةٍ بِتَوَابِلِ الْهِنْدِ الَّتِي تَهْبِطُ عَلَى الْخَلِيجِ
الْفَارْسِيِّ . وَقَدْ كَانَتْ الْحَقِيقَةُ الْأَخِيرَةُ مِنَ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ حَقِيقَةً ذَهَبِيَّةً
لِلتِّجَارَةِ مَكَّةَ بِسَبَبِ مَا كَانَ بَيْنَ الرُّومِ وَالْفَرَسِ مِنْ تَصَادُمٍ ، فَكَانَتْ مَكَّةَ

(١) O'Leary, Arabia Before Muhammad (London, 1927) p. 17.

(٢) المصدر نفسه ص ١٨١ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه ص ٨٩ وانظر تاريخ العرب المطول لفيليب حني (الترجمة

العربية) ص ٨٤ .

(٤) الطبري ١٠٩٢/١ وانظر مروج الذهب للمسعودي طبعه باريس ١١٩/٣ .

مركز كل القوافل والتجارة الذاهبة إلى الشمال والمنحدرة إلى الجنوب أو الشرق ، وكانت قوافلها تذهب إلى غزة^(١) ومنها إلى مصر^(٢) ، كما تذهب إلى بصرى في سوريا^(٣) .

ومن يقرأ أخبار هذه القوافل يحلّ إليه أن مكة نفسها كانت قافلة كبيرة مقيمة ، تخرج منها هذه القوافل المتتابعة إلى الشمال والجنوب . وفي القرآن الكريم : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » . أما رحلة الشتاء فكانت إلى اليمن ، وأما رحلة الصيف فكانت إلى الشام . والإيلاف : المعاهدة مع الملوك^(٤) . وطبيعي أن يعقد زعماء قريش مع الملوك الذين يتاجرون وينزلون في بلادهم معاهدات ، ويقال إن هاشماً جد الرسول عقد مع قيصر معاهدة^(٥) ، وعقد عبد شمس أخرى مع النجاشي ، بينما عقد نوفل معاهدة مع الأكاسرة^(٦) .

وفي هذا ما يشير إلى حركة هذه القوافل الدائبة . وطبيعي أن هؤلاء الزعماء كما تعاهدوا مع ذوى الشأن في البلاد الأجنبية حتى ينظموا قواعد هذه التجارة ، كذلك تعاهدوا مع أشرف العرب

(١) المغازي للواقدي ص ١٩٨ .

(٢) الولاة والقضاة للكندي ص ٧ .

(٣) ابن سعد المجلد الأول القسم الأول من الطبقات طبعة أوروبا ص ٤٣ .

(٤) المسعودي ١٢١/٣ .

(٥) اليعقوبي طبع أوروبا ٢٨٠/١ والطبري ١٠٨٩/١ .

(٦) اليعقوبي ٢٨٢/١ والطبري ١٠٨٩/١ .

وقبائلهم التي يمرون بها في طرقهم حتى لا يقر بوا قوافلهم نظير إتاوات
وهدايا خصصوها لهم^(١).

ونحن لا نستطيع أن نقف على مدى ما كانت تضطلع به مكة في
هذا العمل الشاق إلا إذا تصورنا الطرق الوعثة الطويلة التي كانت تمر
بها هذه القوافل ، ويقال إن إحداها بلغت ٢٥٠٠ جمل^(٢) . وتدل
الأخبار المختلفة أنه كان يتقدم القافلة رواد مستطلعون يعرفون على
أخبار الطريق كما حدث في غزوة بدر ، فإن هؤلاء الرواد عرفوا أن
الرسول سيهجم على القافلة التي وراءهم ، فذهبوا إلى مكة واستنفروا
أهلها لإيقاد القافلة^(٣) . وكان يوجد مع القافلة أيضاً أدلاء يرشدونها في
طريق سيرها حتى لا تضل في شعاب الصحراء^(٤) ، وأيضاً كانت توجد
معهما حامية لحراستها ، وكانت أخلاطاً من قریش وعبيدها ، ثم شذاذ
العرب وصعاليكها^(٥).

وهكذا كانت قوافل قریش تجوب بلاد العرب شمالاً وجنوباً
وشرقاً ، تنقل تجارة المحيط الهندي والبحر الأحمر إلى سواحل البحر
الأبيض المتوسط . فمن إفريقية عن طريق اليمن كانت تنقل التبر

(١) اليعقوبي ٢٨٠/١ . (٢) طبری ١٢٧١/١ .

(٣) ابن هشام ٢٦٠/٢ .

(٤) الأغاني طبع بولاق ٧٤/١٩ وانظر ابن هشام ١٢٩/٢ .

(٥) الأزرقي ص ٤٦٢ ورسائل الجاحظ السابقة ٦٥ — ٦٦ وأغاني طبع

بولاق ٢٨/١٠ ، ٣٢/١٠ ، ٤٩/١٢ ، ٧٥/١٩ .

والريق والصمغ والعاج ، ومن اليمن نفسها كانت تنقل الجلود والطور
والبخور وثياب عدن النفيسة ، ومن العراق كانت تنقل توابل الهند ،
وأيضاً كانت تنقل الزبيب من الطائف والذهب من مناجم بنى سليم ؛
كل ذلك تنقله إلى الشام ومصر ، ثم تعود محملة بالأسلحة والغلال
والزيوت والخمر والأقمشة القطنية والكتانية والحريرية^(١) .

ولعل في هذا كله ما يرينا أهمية مكة في العصر الجاهلي ، وقد
جعلت هذه الأهمية أبرهة والى الحبشة على اليمن يغزوها سنة ٦٧٠
أو ٦٧١ للميلاد ابتغاء الاستيلاء على ما فيها من ثروة ، وإن كانت
المصادر الإسلامية تجعل حملته دينية ، فتزعم أنه كان يريد هدم الكعبة .
وباءت حملته بالفشل الذريع ، ففشت الأوبئة في جيشه ولم ينج أبرهة
نفسه من المرض والموت^(٢) .

لم ينجح غزو أبرهة لمكة ، بل زاد في تقديسها وإعظامها لما شاع
من أخبار هذا الجيش المنهزم عنها ، وقد جمعت هذه الهزيمة قلوب
العرب حولها ، وجعلتهم يحسون شيئاً من القومية والاعتداد بأنفسهم
وأمتهم . ولم يحاول ولاية الحبشة على اليمن بعد ذلك غزو مكة ، ولا
حاولته أمة أخرى . فكانت مكة خالصة للعرب ، وكانت بكعبتها
المقدسة رمزاً لاستقلالهم وقوتهم ، ومن هنا سميت أم القرى . وفي

(١) الأزرقي ص ٥٥ ومكة في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) ابن هشام ٤/١٠٤ وما بعدها .

القرآن الكريم « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً » فكان البيت آمناً ، وكانت مكة آمنة ، لا تدخلها أمة ، ولا تدين لأمة .

ويقول الجاحظ : « لم تزل مكة أمناً ولقاًحاً^(١) ، لا تؤدى إتاوة ، ولا تدين للملوك ... » وقال حرب بن أمية في ذلك :

أبا مَطَرٍ^(٢) هَلَمْ إِلَى صَلَاحٍ فَتَكْفِيكَ النَّدَاحِي مِنْ قَرِيشِ
فَتَأْمَنَ وَسَطَهُمْ وَتَعِيشَ فِيهِمْ أبا مَطَرٍ هُدَيْتَ خَيْرَ عَيْشِ
وَتَنْزِلَ بِلَدَةٍ عَزَّتْ قَدِيمَا وَتَأْمَنَ أَنْ يَزُورَكَ رَبُّ جَيْشِ^(٣)
ويقول ابن الفقيه : « إن أهل مكة لم يؤدوا في الجاهلية إتاوة قط ، ودانت لهم خزاعة وثقيف وعامر بن صعصعة ، وفرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحِلِّ إذا دخلوا الحرم ... وهم بعد أغر العرب ، يتأخرون على العرب قاطبة »^(٤) . ويقول ابن دريد : إنهم كانوا يأخذون من العرب إتاوة تسمى الحریم ، كان يدفعها كل من نزل مكة في الجاهلية^(٥) .

ولم تكن مكة تأخذ إتاوة من العرب فحسب ، بل كانت تأخذها أيضاً من التجار الأجانب الذين ينزلون بها ، وكانت تسمى ذلك

(١) اللقاح : الذي ليس في سلطان أحد .

(٢) أبو مَطَرٍ هو أبو الحضرمي يدعوهُ حرب لحلفه . وصلاح : اسم مكة كما تقدم .

(٣) الحيوان للجاحظ ١٤١/٣ .

(٤) كتاب البلدان لابن الفقيه طبع أوروبا ص ١٨ .

(٥) الاشتقاق لابن دريد ص ١٧٢ وانظر الأزرق ص ١٧٥ .

العشور . ويذهب أوليرى إلى أنه كان بها وكلاء بيزنطيون ، وكانت مهمتهم تجارية أكثر منها سياسية^(١) ، ولعل صهيبياً الذى أسلم فيما بعد كان واحداً منهم . وأيضاً كان ينزلها بعض الفرس^(٢) ، وكان بها جالية^(٣) حبشية كبيرة .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على عظم شأن مكة فى الجاهلية ، وقد ذهب لامنس فى كتابه عنها إلى أنها كانت جمهورية وأنه يمكن مقارنتها بالبندقية^(٤) ، وذهب أوليرى إلى أنها لم تعد اتحاد قبائل ارتبط بعضها ببعض فى حلف ، هدفه نقل التجارة^(٥) . ولعل من الطريف أنه كان بها ملاً ، وهو مجلس شيوخ مصغر ، وكان لا يدخله إلا من بلغ أربعين سنة^(٦) . ولم يكن هناك انتخاب لاختيار شيوخ مكة فى الملاً ، إنما كانوا يختارون ، على ما يظهر ، حسب غنائم وخدماتهم التى يؤدونها . وكل ما فى الأمر أنهم كانوا يختارون من بطون قريش البطاح ، وهم : هاشم وأمية ومخزوم وجمح وسهم وتيم وعدى وأسد

(١) كتاب أوليرى السابق ص ١٨٤ .

(٢) المسعودى ١٤٨/٢ لاذ يزعم أن الفرس كانت تقصد البيت الحرام وتطوف به .

(٣) كتاب أوليرى ص ١٨٤ وانظر مجلة كلية الآداب (الجامعة المصرية) سنة ١٩٣٣ .

(٤) Lammens, La Mecque (Beyrouth, 1924) p. 175 .

(٥) كتاب أوليرى ص ١٨٣ .

(٦) الاشتقاق ص ٩٧ وابن هشام ٢٩٨/٢ .

ونوفل وزهرة^(١) . وكان هؤلاء الشيوخ ينظرون في شئون مكة الدينية والتجارية ، ولم يكن لأحد منهم امتيازات على نظرائه وأقرانه ، وإما كانوا جميعا متساوين بتراض منهم .

ومن غير شك كان ينمو في هذه الجمهورية أو في هذا الاتحاد للقبائل القرشية نظام تجارى معقد ، فكانت هناك المكاييل والموازين^(٢) ، وكان هناك البيع الحاضر وبيع النسئنة أو البيع المؤجل^(٣) ، كما كانت هناك المضاربة ، وهى أن يأخذ الشخص مالا من غيره فيتجر فيه ، ويكون له حظ معلوم من الربح على نحو ما صنعت خديجة مع الرسول صلى الله عليه وسلم قبل زواجه منها^(٤) ، وكانوا يتعاملون على أساس دنانير الروم ودرهم الساسانيين^(٥) . ويقول لامنس إنها كانت تشبه مصرفا كبيرا ، وكان الربح في هذا المصرف عظيما^(٦) ، ومن هنا كان الربا فيه فاحشا ، حتى لقد يخرج أهله الدينار بدينارين . وفي القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » .

وكان يساهم في هذه التجارة كل فرد من أفراد قريش في مكة حتى النساء كان لهن سهم فيها ، وقد اشتهر الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) المحبر لابن حبيب طبع الهند ص ١٦٧ والمسعودى ١١٩/٣ .

(٢) كتاب مكة للامنس ص ٢٢٤ وفتوح البلدان ص ٤٦٦ .

(٣) مسند ابن حنبل ٣٩٨/١ .

(٤) الطبرى ١١٢٧/١ والأزرق ص ٤٧١ .

(٥) كتاب مكة ص ٢٢٦ وانظر مكة في دائرة المعارف الإسلامية .

(٦) كتاب مكة ص ٣٠٥ وانظر الطبرى ١٤٦٠/١ والواقدى ص ١٩٨ .

بتجارته في أموال السيدة خديجة ، ويروي الرواة أن هنداً زوجة أبي سفيان وأم معاوية كانت تتجرف في قبيلة كلب بالشام .

وقد اشتهر في مكة قبل الإسلام بيتان بالثراء : بيت الأمويين وبيت الخزوميين . ويقال إن أكثر قافلة بدر كانت للأمويين^(١)

ولعل ذلك ما جعل أبا سفيان يرأس هذه القافلة . وفي الاشتقاق لابن حريز معلومات طريفة عن ثروات الخزوميين ، حتى كان منهم من يسمى رب مكة^(٢) . ويظهر أن الثراء لم يكن خاصاً بهذين البيتين ، فنحن نجد من قبيلة أبي بكر الصديق عبد الله بن جُدعان وكان يتجرف في الرقيق ، وقد شبهه بعض الشعراء بقيصر إذ يقول^(٣) :

يَوْمَ ابْنُ جُدْعَانَ بِجَنْبِ الْحَزْوَرَةِ كَأَنَّهُ قَيْصَرُ أَوْ ذُو الدَّسَكِرَةِ
وفي يعقوبى أن سادات قریش فوق آل جفنة^(٤) . وفي الحيوان للجاحظ أنهم فوق كسرى وآل كسرى^(٥) .

وهذه البلدة التاجرة استلزمت تجارتها كما استلزمت الحياة فيها أن توجد بعض الصناعات بها ، وفي أخبارها أن منها من كان حداداً أو نجاراً أو خياطاً أو جزاراً أو صانع برم^(٦) . ومعنى ذلك أن مكة

(١) انظر مكة في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) الاشتقاق ص ٦٠ وكذلك ٩٢ .

(٣) معجم البكري ص ٤ . (٤) يعقوبى ٢٨١/١ .

(٥) الحيوان ١/١٦٥ ، وفي الحيوان ٢/٢٤٦ : إذا قالوا سيّد قریش فقد قالوا سيّد العرب .

(٦) الأغلاق النفيسة لابن رسته طبع ليدن ص ٢١٥ ، والمحاسن والأضداد للجاحظ طبع فان فلوتن ص ١٦٥ .

في الجاهلية كانت أشبه بمدينة ، ففيها الملاً أو مجلس الشيوخ ، وفيها البطون المبتازة بطون النبلاء التي تنزل في البطاح . ووراءهم قریش الظواهر ومعهم الحلفاء والفاصلة^(١) والموالى والرقیق . ويروی الرواة عن بعض المخزومين أنه كان له رقیق أو عبید من الحبشة يحترفون جميع المهن ، وكان عددهم كثيراً^(٢) .

وتكوين مجتمع مكة على هذا النمط من أحرار وعبید أو أشرف ورقیق ، كثير الشبه بمجتمع أثينا القديمة . ويقال إن هنداً بنت عبد المطلب عمه الرسول أعتقت في يوم واحد أربعين رجلاً من عبيدها^(٣) . وهذا معناه أن العبيد كانوا كثيرين جداً في مكة قبل الإسلام . وليس عندنا نصوص كثيرة تصور مدى ترف أشرف مكة ، ولكن لا بد أنهم بلغوا من ذلك حدًا واسعاً بحكم ما تمتعوا به من ثراء حتى يقال إنهم كانوا يصيِّفون في الطائف ويشتون في جدة . ويقال إنه كان لأبي سفيان ضيعة في سوريا ينزل فيها أثناء تجارته . ونجد في سورة الزخرف استهزاء بمن ينشأ في الحلية والزينة^(٤) ، ويقال إن عبد المطلب دفن في حلقة قيمتهما ألف مثقال من الذهب^(٥) . وكان بينهم من يلبس الثوب بخمسين^(٦) دينار أو نحو ثلاثين جنياً . وكما

(١) الطبري ١٢٠٣/١ والحيوان ٢١٤/٧ .

(٢) أغاني طبع دار الكتب ٦٥/١ وفي الأجزاء التسعة الأولى دائماً نرجع

إلى طبعة دار الكتب . (٣) المحاسن والأضداد ص ٧٧ .

(٤) سورة الزخرف آية ١٨ . (٥) اليعقوبي ١٣/٢ .

(٦) مسند ابن حنبل ٤٠٣/٣ .

تأنقوا في ملابسهم تأنقوا شيئاً في طعامهم فعرفوا أنواعاً من طعام الأم الأجنبية من مثل الفالودج^(١) .

وكانت مكة في الجاهلية وثنية ، بل كانت حارسة الوثنية في الجزيرة العربية ، فقد كان بها الكعبة بيت الأوثان والأصنام . ويستطيع من يتتبع أخبارها في هذا الجانب ويقف عند الآلهة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وما جاء فيه من وصف عباداتها أن يعرف أنها كانت تقدس بمض الأجرام السماوية . وفي القرآن « أفرايتم اللات والعزى وتعدن أن يخرجنكم من دياركنم » . ومناة الثالثة الأخرى .

ويذهب أوليري إلى أن العزى تطابق كوكب الزهرة ، بينما تمثل اللات الشمس^(٢) ، ونجد في أسماهم كثيراً عبد شمس . أما مناة فكانت صخرة لهديل وخزاعة ، وفيها ما يشير إلى أنهم قدسوا بعض الأحجار . وفي القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام^(٣) رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . والأنصاب : حجارة تُنصب وتصب عليها دماء الذبائح وتُعبَد باعتبارها مقراً للروح . وكما قدسوا الحجر قدسوا الشجر مثل ذات أنواط التي كان يحج إليها المكيون سنوياً .

ويذكر القرآن الكريم بجانب مناة واللات والعزى آلهة أخرى ،

(١) أغاني ٨ / ٣٢٩ .

(٢) انظر كتاب أوليري ص ١٩٤ .

(٣) الأزلام : القداح .

إذ يقول جبل وعز في سورة نوح : « ولا تذرُنَّ وُدًّا ولا سُوءاً ولا يغوثَ ويعوقَ ونسراً » . وكلمة نَسْر تشير في وضوح إلى الطائر المعروف ، ولعل في هذا ما يدل على أنهم قدسوا بعض الحيوان والطيور ، أما كلمة ود فمعناها الصداقة ومعنى يغوث يعين ، ومعنى يعوق يحافظ ، وهي صفات تشير إلى أرواح حافظة .

وكان العرب في الجاهلية يحجون إلى الكعبة بيت هذه الآلهة وأصنامها وأوثانها ، وتزعم الرواية العربية أن عمرو بن لُحَي الخزاعي هو الذي أدخل الأصنام مكة ^(١) ، ويقال إنه كان في الكعبة عند فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لمسكة ثلاثمائة صنم وستون ^(٢) أشهرها اللات والعزى ومناة ، ثم هُبل ، وهو كبير آلهتهم ، ويظهر أنهم كانوا يرمزون به لربهم . وفي القرآن الكريم ما يدل على أنهم كانوا يؤمنون بالله ، قال تعالى على لسانهم : « وقالوا ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَى » ، ولكنهم على كل حال كانوا وثنيين يعبدون ويقدون أشياء كثيرة من نجوم وأحجار وأشجار .

على أن هذه الوثنية في مكة لم تمنعها من الاتصال بالمسيحية واليهودية عن طريق الرقيق الحبشي وغير الحبشي الكثير فيها ، وأيضاً عن طريق المستعمرات اليهودية التي كانت منبثة في الحجاز ، ثم ما كان من اختلاط أهلها أنفسهم أثناء تجارتهم في الشام وغير الشام بالمسيحيين واليهود ، حتى

(١) ابن هشام ١ / ٧٨ والسعودي ٣ / ١١٤ والأزرقي ص ١٣٣ .

(٢) الأزرقي ص ٧٦ .

ليقال إن بعضاً من أهلها تنصروا قبيل الإسلام ، فاليقوبى يقول :
 « أما من تنصّر من أحياء العرب فقوم من قريش ^(١) » ويذكر منهم
 ورقة بن نوفل ، ومنهم أيضاً عتبة بن أبى لهب وعثمان بن الحويرث
 الأسدى ^(٢) . وفي السيرة النبوية أن حليلة السعدية حين رجعت
 بالرسول من البادية بعد فطامه لقيها نفر من الحبشة نصارى ^(٣) ، وفي
 ابن سعد أنهم كانوا يهوداً ^(٤) . ونجد في أسد الغابة شخصاً يسمى
 شمعون ^(٥) ، وفي السيرة النبوية شخصاً يسمى جبراً كان عبداً
 لبنى الحضرمي ، وكان مسيحياً ^(٦) . ويذكر الواحدى عبيد بن نصراني
 نزلاً في مكة وأصلهما من عين التمر ^(٧) . ولا بد أن بعض مسيحيي
 الجزيرة في نجران وفي الحيرة وبعض يهودها المنشين في الحجاز كانوا
 يفدون على سوق عكاظ وسوق ذي الحجاز اللتين كانتا تقومان بجوار مكة ،
 وقد وفد قس بن ساعدة على سوق عكاظ وخطب فيها قبيل الإسلام ^(٨) .
 ويقال إن شماساً زار مكة في الجاهلية ^(٩) وكان يعيش في مرّة
 الظهران راهب مسيحياً ^(١٠) . ومن طريف ما يذكره ابن الأثير في

-
- (١) اليقوبى ٢٩٨/١ .
 (٢) المخبر ص ١٧١ وابن هشام ٢٣٩/١ .
 (٣) ابن هشام ١٧٧/١ .
 (٤) القسم الأول من المجلد الأول ص ٧١ .
 (٥) أسد الغابة ٤/٣ . (٦) ابن هشام ٣٣/٢ .
 (٧) أسباب النزول ص ٢١٢ . (٨) البيان والتبيين ٣٠٨/١ .
 (٩) ابن هشام ٣٤٩/١ وأسد الغابة ٣٧٥/٣ .
 (١٠) النبوة الحلبية ٧٥/١ .

أسد الغابة أنه كان بمكة جوار روميات^(١) .

ومع ذلك فإن هذا كله لم يكن له قيمة بالنسبة لوثنيي مكة ، فقد كانوا محافظين على دين آبائهم ، وكانوا حراساً على الوثنية الجاهلية ، فهم سدنة الكعبة وأصنامها ، وحقا إن جماعة منهم تشككت في دينها وتمنّفت^(٢) أو تنصرت ، ولكن هؤلاء كانوا شذوذاً في قومهم ، وكانوا يعدونهم مارقين من دينهم .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على ارتفاع شأن مكة في الجاهلية ، فقد كانت تعد عاصمة الجزيرة العربية ، وقد اتخذت من عكاظ سوقاً يلتقي فيه الخطباء والشعراء ، وبذلك كانت قطب الدائرة الأدبية في الجزيرة ، فضلاً عن ثرائها ومكاتها التجارية والدينية .

٣

في عصر الرسول والخلفاء الراشدين

ما زالت مكة قائمة بوظيفتيها التجارية والدينية حتى بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم حين استكمل أربعين عاماً يدعو الناس إلى هدى الإسلام . وأسرع إلى تلبية دعوته زوجه السيدة خديجة ، ومولاه زيد ابن حارثة ، وابن عمه علي بن أبي طالب ، وأبو بكر الصديق ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه

(١) أسد الغابة ٣٨٧/١ وانظر ٢٣٢/٤ ، ١٩٤/٥ ، ٤٦٢/٥ .

(٢) ابن هشام ٢٣٧/١ وانظر المحبر ص ١٧١ .

عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن خنافة^(١) . وعلى يد
أبي بكر أسلم عثمان والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد
ابن أبي وقاص ، ثم أسلم أبو عبيدة وأبو سلمة والأرقم وعثمان بن مظعون
وسعيد بن زيد وزوجه^(٢) أخت عمر بن الخطاب .

وأقام رسول الله بمكة ثلاث سنين يدعو سرّاً إلى الإسلام^(٣) ، ثم
أمره ربه أن يصدع بما أرسله ، فأخذ يدعو قومه جهراً بالحكمة والموعظة ،
ويجادهم بالتي هي أحسن في آلهتهم وعبادتهم . وفزعت قريش
إذ كانت تعدّ نفسها حارسة للوثنية في الجزيرة ، وغضبت غضباً شديداً
حين رأت الرسول الكريم يسفه آلهتها وأحلامها ، فناكروه وأجمعوا
خلافه وعداوته ، وراجعوا عمه أبا طالب ، وقالوا له : اعرض عليه أن
يترك دعوته وأن يحكمكم في أموالنا بما يشاء^(٤) ، فأجابه : يا عمّ والله
لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر
حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته^(٥) .

ومضى الرسول يحجر بدعوته ومضت قريش تحادّه وتعانده ، بل
لقد ذهبت تعذب من أسلموا وتحاول أن تفقنهم عن دينهم الجديد ،
فلم يكن ذلك يرددهم ، بل كان يزيدهم إيماناً^(٦) . وقد أخذ سفهاء قريش

(١) ابن هشام ٢٦٩/١ .

(٢) نفس المصدر السابق وانظر اليعقوبي ٢٢/٢ .

(٣) اليعقوبي ٢٣/٢ . (٤) نفس المصدر ٢٣/٢ .

(٥) انظر ابن هشام ٢٨٠/١ — ٢٨٥ . (٦) ابن هشام ٢٧٨/١ .

يتعرضون للرسول بالإيذاء ويرمون به بالشعر والسحر والكهانة والجنون ،
ومن أهم من آذوه ونصبوا له العداوة أبو جهل ^(١) . وقد عدد ابن حبيب
المؤذين من قريش للنبي وأصحابه ، فذكر منهم أبا لهب والحكم بن
أبي العاص وعقبة بن أبي معيط وعدى بن حمراء الثقفي وعمرو بن الطلائع
الخزاعي ^(٢) . وبجانب هؤلاء الذين آذوه كانت طائفة تتعمد الاستهزاء
به وبدعوته وعلى رأسها العاص بن وائل السهمي والحارث بن قيس
السكبي ، وهو صاحب الأوثان ، وكان إذا مرَّ بحجر أحسن من الذي
عنده أخذه وألقى الذي عنده ، وفيه نزلت الآية « أرايت من اتخذ
إلهه هواء » ومنهم أيضاً الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى
والوليد بن المغيرة المخزومي والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف
ابن زهرة ^(٣) .

ووثبت كل قبيلة تعذب من أسلم منها ، وخاصة الموالى ، بالضرب
والجوع والمطش وبرمضاء ^(٤) مكة إذا اشتد الحر . وكان أبو جهل إذا سمع
بالرجل قد أسلم له شرفٌ ومنعة أتبه وأخزاه ، وقال : تركت دين أبيك ،
وهو خير منك ، لنسفن حلك ولنضعن شرفك ، وإن كان تاجراً قال
والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفاً ضربه
وأغرى به ^(٥) .

(١) ابن هشام ٣١١/١ . (٢) المحبر ص ١٥٧ وانظر اليقوتى ٢٣/٢ .

(٣) المحبر ص ١٥٨ . (٤) ابن هشام ٣٣٩/١ وما بعدها .

(٥) ابن هشام ٣٤٢/١ .

ولما رأى رسول الله ما يصيب أصحابه من العذاب والجهد الشديد أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة ، وكان ذلك في السنة الخامسة للبعثة ، حتى يجعل الله لهم مخرجاً مما هم فيه ، فخرج أولاً اثنا عشر رجلاً ثم خرج سبعون^(١) سوى أبناءهم ونسائهم ، فأكرم النجاشي وفادتهم ، وتبعهم قريش هناك إذ تراها توجه بعمر بن العاص وعمارة بن الوليد المخزومي إلى النجاشي ومعهما الهدايا ، يطلبان منه أن يخرج هذه الجماعة المسلمة من بلاده ، وأن يكف عنهم حمايتهم^(٢) ، ولكن النجاشي لم يُصغِ إلى قريش ورد رسولها رداً قبيحاً^(٣) . وفي هذه الأثناء أسلم حمزة وعمر بن الخطاب ، فقويت شوكة المسلمين بهما . غير أن ذلك لم يفت في عضد قريش ، فنرى ملاها أو مجلس شيوخها يجتمع ويقرر كتابة صحيفة ظالمة ، تعاقدها فيها قبائل قريش ضد بني هاشم وبني المطلب على ألا يصهروا إليهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم . فكتبوا ذلك وعلقوا صحيفته في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم^(٤) .

ثم حصرت قريش رسول الله وأهل بيته من بني هاشم وبني المطلب في شعبٍ يسمى شعب بني هاشم ، وكان ذلك في السنة السادسة من

(١) اليعقوبي ٢٨/٢ وانظر ابن هشام ٣٥٣/١ .

(٢) اليعقوبي ٢٨/٢ وابن هشام ٣٥٦/١ .

(٣) انظر القصة في ابن هشام ٣٥٦/١ وما بعدها .

(٤) ابن هشام ٣٧٥/١ .

البعثة ، واستمر الحصار ثلاث سنين^(١) . ولما سمع من هاجروا إلى الحبشة بإسلام حمزة وعمر وآخرين معهما ظنوا أن مركز المسلمين قوى في مكة فعادت كثرتهم^(٢) ، وتصادف أن الصحيفة التي علقها قريش في الكعبة أكلتها الأرضة ، أو لعل قريشا نفسها رأّت أن تعود فيما أبرمته ضد آكل المطلب وهاشم ، فزقت الصحيفة^(٣) ، وعادت بذلك للمحصورين حريتهم أو على الأقل عاد شيء من حريتهم .

وقد أخذت أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته قريشا تُنقل من مكة إلى القبائل المجاورة وغير المجاورة ، فإن مكة كانت مركزاً تجارياً يلتقى العرب إما فيها وإما في أسواقها ، فطبيعى أن تسمع القبائل بهذه الدعوة الجديدة ، وكان الرسول يسعى إلى رؤساء العرب الذين يتجمعون هناك يعرض عليهم الإسلام . ويقال إن قريشاً رصدت له سبعة عشر نفراً اقتسموا طرق مكة يصدون الناس عنه^(٤) . وروى اليعقوبى أن رسول الله قام بسوق عكاظ عليه جبة حمراء ، فقال : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا . وإذا رجل يتبعه له غديرتان كأن وجهه الذهب ، وهو يقول : يا أيها الناس إن هذا ابن أخى وهو كذاب فاحذروه . ولم يكن هذا الرجل سوى أبى لهب عم الرسول^(٥) ، وكان يكثر من إيذائه هو

(١) اليعقوبى ٣٠/٢ . (٢) ابن هشام ٣/٢ .

(٣) ابن هشام ١٤/٢ وما بعدها وانظر اليعقوبى ٣١/٢ .

(٤) المحبر ص ١٦٠ . (٥) اليعقوبى ٢٣/٢ وما بعدها .

وزوجه ، وفيهما نزلت السورة الكريمة « تبت يدا أبي لهب وتب
ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب
في جيدها حبل من مسد » .

ولم تلبث السيدة خديجة أن توفيت في السنة العاشرة من البعثة^(١)
وتوفى على أثرها أبو طالب ، فأثر ذلك في نفس الرسول واجترأت عليه
قريش ، إذ كان أبو طالب يحميه ، وهتموا به غير مرة ، فرأى
رسول الله أن يولى وجهه نحو الطائف وأن يدعو أشرفها إلى الإسلام ،
لعلهم يأوونه وينصرونه ، غير أنهم هزئوا به ، ورموا سفهاؤهم بالحجارة ،
فعاد محزوناً إلى بلده^(٢) .

وفي أثناء ذلك لقي الرسول صلى الله عليه وسلم جماعة من أهل
المدينة ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا^(٣) . ولما دار العام أقبل عليه وفد يضم
عشرة من الخزرج واثنتان من الأوس فبايعوه بيعة العقبة الأولى ، وبعث
معههم مصعب بن عمير يعلمهم فروض الإسلام ويفقههم في الدين^(٤) ،
حتى إذا استدار العام أتاه وفد ثان يضم سبعين رجلاً وامرأتين ، فسأله
الخروج إليهم وبايعوه بيعة العقبة الكبرى^(٥) . وقد عاهدوه أن ينصروه
على القريب والبعيد والأسود والأحمر وأن يمنعوهم مما يمنعون منه أنفسهم
وأهلهم وأولادهم .

(١) اليعقوبي ٣٤/٢ . (٢) ابن هشام ٦١/٢ واليعقوبي ٣٦/٢ .

(٣) ابن هشام ٧٠/٢ . (٤) ابن هشام ٧٥/٢ وما بعدها .

(٥) ابن هشام ٨٤/٢ وكذلك ٩٧/٢ وانظر اليعقوبي ٣٨/٢ .

وكانت هذه البيعة إيذاناً بانتقال النبي وأصحابه إلى المدينة فأمرهم أن يسبقوه إليها ، فلم تمض بضعة أشهر حتى نزلوها جميعاً . ثم هاجر الرسول في أثرهم ، فدفقت البشائر عند هجرته في المدينة وخرج أهلها فاستقبلوه استقبالا كريما ، وكلُّ لو ينزل في داره ، فنزل في دار أبي أيوب الأنصاري ، حتى بنى له داراً وبنى بجوار الدار مسجداً^(١) . ولم تقف هجرة الرسول وأصحابه الصراع بينه وبين قريش ، فإنها خشيت من وجوده في المدينة ، وهى في طريقها إلى الشام ، تلك الطريق التجارية التى هى عماد ثروتها وحياتها . ولم تلبث الفرصة من قريش أن تعرضت للرسول فإن أبا سفيان قدم من الشام بعير لقريش تحمل أقواتاً وأموالاً ، فخرج رسول الله يطلبه ، وعرف أبو سفيان ، فأرسل إلى مكة بضمضم بن عمرو الغفارى يستصرخ أهلها^(٢) ، فخرجوا لقتال رسول الله وصحبه ، وكانوا ألف رجل أو يزيدون ، وخرج رسول الله في ثلثمائة فالتقى الجمعان في بدر ، وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة ، ودارت الدائرة على المشركين ، وقتل كثير من رؤساء قريش وساداتها ، ولم يبق إلا القليل الأقل من مائتها أو مجلس شيوخها ، فقد قتل أبو جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والعاص ابن هشام بن المغيرة وزمعة بن الأسود والحارث ابنه والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط . وقد بلغ من قتل من سادات قريش

(٢) اليعقوبى ٢/٤٥ .

(١) ابن هشام ٢/١٤١ .

سبعين رجلاً^(١) ، وتوفي أبو لهب بعد وقعة بدر بأيام كدأً وغيضاً .
ويقول اليعقوبي إن العرب حين رأت من قُتل من قريش في وقعة بدر
أوفدت وفودها إلى الرسول^(٢) ، فقد أخذت كلمة الحق تعلق كلمة الباطل .
على أن قريشاً لم ترد الاستكاثرة لهذه الهزيمة المنكرة ، فجمعت
جموعها في العام التالي مستعينة بكل ما قدم به أبو سفيان في قافلته من
مال^(٣) ، وخرجت من مكة في ثلاثة آلاف . والتقى الفريقان في أحد
شمالى المدينة ، وكادت الدائرة أن تكون على المشركين لولا مخالفة
النبالة لأوامر الرسول ، فإنهم تركوا أما كنهم حين ولى المشركون الأدبار ،
غير أنهم لم يلبثوا أن أتوهم من خلفهم وأعملوا السلاح في ظهورهم ، وقتل
حمزة بن عبد المطلب ، وهزم المسلمون^(٤) .

ورجعت قريش إلى مكة وقد غرها ما أصابت من النبي وأصحابه ،
فأخذت تجمع الأحزاب والقبائل ضده ، حتى إذا تم لها ما أرادت خرجت
في العام الخامس للهجرة يفاصرها في ذلك بنو النضير الذين أجلاهم
الرسول عن المدينة^(٥) ، كما يفاصرها غطفان وقبائل كثيرة . ولما رأى
الرسول أن لا قبل له بأعدائه حفر الخندق حول المدينة وبذلك سميت
الغزوة غزوة الخندق ، وقد تسمى غزوة الأحزاب . ولما طالت محاصرة المدينة
ولم تستطع هذه الأحزاب أن تصل إليها دبَّ الشقاق بينها ، وأرسل الله

(١) اليعقوبي ٤٦/٢ . (٢) نفس المصدر ٤٧/٢ .

(٣) نفس المصدر ٤٧/٢ وابن هشام ٦٤/٣ .

(٤) اليعقوبي ٤٨/٢ . (٥) ابن هشام ١٩٩/٣ .

عليها ريارحاً صرراً عاتية ، عجلت برحيلهم دون أن يصيبوا من المدينة شيئاً^(١) .
وفي السنة السادسة للهجرة خرج الرسول صلى الله عليه وسلم يريد
العمرة ، وساق من الهدى سبعين بدنة وساق أصحابه أيضاً ، وكان معهم
السلح ، أو كانوا مسلحين ، وقد بايعوا النبي بيعة الرضوان على القتال .
ولما علمت قريش بذلك رأت أن تدخل مع الرسول في معاهدة على أن
لا يعتمر هذا العام ، ويؤجل ذلك إلى العام القابل فيخلوها له ثلاثة أيام
وعلى أن الهدنة بينهم ثلاث سنين ، لا يؤذون فيها أحداً من أصحاب
رسول الله ، ولا يمنعونه من دخول مكة ، وأيضاً لا يؤذى أحد من أصحاب
رسول الله أحداً منهم . ورجع رسول الله إلى المدينة ثم خرج في العام
القابل فأدى العمرة ، وهي عمرة القضاء^(٢) .

وكانت خزاعة قد دخلت في عقد رسول الله بينما دخلت كنانة
في عقد قريش ، فشجر الخلاف بينهما ، وأعانت قريش كنانة فأرسلوا
مواليهم إليهم ، فقتلوا في خزاعة . حينئذ استنجدت خزاعة بالرسول وبما
بينها وبينه من عقد ، فصمم على غزو مكة ، وجمع لها كثيراً من القبائل
التي دخلت في الإسلام . وأقبل بهذا الجيش الضخم على مكة ، ورأت
مكة أن لا طاقة لها به وبمن معه ، فأرسلت أباسفيان وحكيم بن حزام
وبديل بن ورقاء ليأخذوا لها الأمان . وفتح الله على نبيه وكفاه القتال ،
ودخل الجيش مكة من أربع جهات ، ودخل رسول الله الكعبة

(١) اليعقوبي ٢/ ٥٠ .

(٢) اليعقوبي ٢/ ٥٤ .

وأزيلت الأصنام ، ومحيت الصور ، وخطب في القوم ، فقال : « ألا كل دم ومال ومأثرة في الجاهلية فإنه موضوع تحت قدمي هاتين إلا سِدانة الكعبة وسِقاية الحاج فإنهما مردودان إلى أهليهما ، ألا وإن مكة محرمة بجمرة الله لم تحل لأحد من قبلي ولا تحل لأحد من بعدي ... فهي محرمة إلى يوم القيامة ، لا يُخْتَلَى ^(١) خلاها ولا يُعْصَد ^(٢) شجرها ولا ينفر صيدها ولا تحل لِقُطْعَتِهَا ^(٣) إلا لمنشد ^(٤) . واستسلمت كنانة كما استسلمت قريش .

وبذلك انتهى الصراع بين الرسول ومكة ولكن بعد أن دوّخها وزعزع مركزها التجاري ، فإن الطريق إلى الشام قطعه الرسول والمسلمون من حوله ، وكان لذلك شأنه في تدهور التجارة بمكة . وقد أخذت الأموال تستخدم لا في البيع والشراء ، ولكن في حرب الرسول والمهاجرين وأهل المدينة ، وأخذت الحرب تأكل هذه الأموال فلا تُبْقَى ولا تَذَرُ .

ومعنى ذلك أن التجارة أخذت تكسد في مكة ، وقد كان بعض المهاجرين من التجار كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ، فخرت مكة بعض رهوس الأموال ، وأيضاً هؤلاء أنفسهم أخذوا يرسلون بالعبير إلى الشام ، فنافست المدينة مكة في قوافل التجارة . ولما فتحت مكة

(١) يختلى : يقطع ، والخلا : الكلاء .

(٢) يعصد : يقطع . (٣) اليعقوبى ٨/٢ هـ وما بعدها .

انتقل كثير من الأسر المهمة إلى المدينة ، وازداد هذا الميل إلى الهجرة أثناء حكم الخلفاء الثلاثة الأول ، وقليل هم الذين عادوا بعد هجرتهم^(١) ، وانتقلت بطون بأكملها^(٢) . وضاع سلطان مكة القديم على العرب ، إذ تحول هذا السلطان إلى المدينة ، وأصبحنا لا نسمع عن قوافل مكّية كبيرة تقطع بلاد العرب صيفاً أو شتاء ، وحتى أسواقها كهكاظ وذى المجاز لم يعد لها أخبار تذكر . وكان الاستيلاء على العراق والشام في عهد أبي بكر وعمر ورجوع الطريق التجارى القديم من خليج فارس إلى بلاد الموصل فالشام الضربة القاضية على مركز مكة التجارية .

ولعل في ذلك كله ما يوضح كيف أن مكة أخذت تضعف بعد الفتح ، فلم تعد البلدة الأولى في الحجاز ، بل سبقتها وناستها المدينة ، وقد أصبحت تابعة لها ، وولى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب^(٣) ابن أسيد واستقر عليها في عهد أبي بكر ، وولى عليها عمر ولاية مختلفين أهمهم نافع^(٤) بن عبد الحارث الخزاعي ، أما عثمان فولّى عليها خالد بن العاص بن هشام ، ثم ولاية آخرين ولما خلفه على ولى عليها قثم بن العباس بن عبد المطلب .

(١) انظر ابن سعد ٣٢٨/٥ . (٢) نفس المصدر ٣٣٦/٥ .

(٣) ابن هشام ١٤٣/٤ . (٤) ابن سعد ٣٣٩/٥ .

في العصر الأموي

لعل أهم ما يلاحظ على مكة في أوائل هذا العصر أنها أو قل إن كثرتها لم تكن مغاضبة لمعاوية ، إذ نهض للأخذ بشار شيخها الممتول : عثمان . غير أن الظروف أخذت تقطور بعد ذلك ، فإن أهل مكة والحجاز جميعاً أخذوا ينقمون على الأمويين نقلهم عاصمة الدولة الإسلامية إلى دمشق في الشام ، حتى إذا ولي الأمر يزيد بن معاوية رأينا المدينة تثور عليه ، وقد قتل الحسين في وقعة كربلاء على ما هو معروف ، وخرج عبد الله ابن الزبير إلى مكة ، وعاذ بالبيت وسمى نفسه العائد ، وأعلن هناك العصيان ، وطرده إلى يزيد ، ومكث ينظر^(١) .

وأرسل يزيد جيشاً كبيراً بقيادة مسلم بن عقبة ليبدل من التأثيرين في المدينة ومكة ، وهاجم هذا الجيش المدينة في وقعة^(٢) الحرة ، ثم خرج منها يريد مكة وابن الزبير . واحتضر قائده في الطريق فاستخلف الحصين بن نمير ، وقدم بالجيش مكة ، فحاصرها ورماها بالنيران فاحترقت الكعبة^(٣) ، وكان ذلك سنة ٦٣ هـ . وفي هذه الأثناء توفي يزيد ، ورفع الحصار عن مكة ، ويقال إن الحصين قال لابن الزبير « هل لك أن أحملك إلى الشام ، فليس بالشام أحد فأبيع لك ، فليس يختلف عليك

(٢) طبرى ٢/٤٠٥ .

(١) طبرى ٢/٢٢٢ .

(٣) طبرى ٢/٤٢٦ وما بعدها .

اثنان؟ فقال ابن الزبير رافعاً صوته: لا والله الذى لا إله إلا هو أو تقتل بأهل الحرة أمثالهم من أهل الشام، فقال له الحصين: من زعم أنك داهية فهو أحق، أقول لك مالك سرّاً وتقول لى ما عليك علانية، ثم انصرف^(١) إلى الشام.

وأعلن ابن الزبير أنه خليفة المسلمين وتبعه كثير من البلدان، تبعه الحجاز، وتبعته مصر وبعض بلدان الشام، كما تبعه العراق وخراسان، ولم تبق ناحية خارجة عليه سوى الأردن وصاحبها يومئذ حسان بن مجدل السكبي^(٢). وقد أخطأ ابن الزبير خطأ شنيعاً، إذ أمر بطرد بنى أمية من المدينة إلى الشام، فساروا إليها وعلى رأسهم مروان بن الحكم^(٣). وهناك دعا مروان لنفسه، وعُقد مؤتمر فى الجابية عقدت فيه الخلافة لمروان^(٤). واتجه مروان مع أصحابه إلى دمشق حيث التقيوا بالضحاك ابن قيس فى مرج راهط^(٥)، فكانت الدائرة عليه. وبذلك خلصت الشام لمروان، وولى وجهه نحو مصر فدخلها وصالح أهلها وأعطوه الطاعة^(٦). وفى هذه الأثناء اضطرب حبل الأمور فى العراق، وسرعان ما توفى مروان، وولى الأمر من بعده ابنه عبد الملك.

وكان عبد الملك داهية من دواهي قریش، ولعل من أهم ما يدل

(١) اليعقوبى ٣٠١/٢ وما بعدها وانظر السعوى ١٩١/٥.

(٢) اليعقوبى ٣٠٤/٢. (٣) طبرى ٤٦٧/٢.

(٤) اليعقوبى ٣٠٤/٢. (٥) اليعقوبى ٣٠٥/٢.

(٦) اليعقوبى ٣٠٦/٢.

على دهائه أنه لما رأى ابن الزبير يتصل بأهل الشام وخاف أن يفسدهم عليه منهم من الحج ، فقالوا له : أئمننا من حج بيت الله الحرام ، وهو فريضة فرضها الله ، فقال : بل هذا ابن شهاب الزهري يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تُسَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي ، ومسجد بيت المقدس . وبذلك صرفهم مؤقنا عن المسجد الحرام إلى مسجد بيت المقدس ، واستغل الصخرة فيه التي يُروى أن رسول الله وضع قدمه عليها حين صعوده إلى السماء ، فأقامها لهم مقام الكعبة ، فبنى عليها قبة ، وعلق فوقها ستور الديباج ، وأقام لها سدنة ، وأمر الناس أن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة^(١) . وقد أخذت الأمور تتطور في جانب عبد الملك ، فإن العراق كثرت فيه الفتن ، فتن الخوارج بقيادة نافع بن الأزرق وقد غلبوا على البصرة ، وفتن الشيعة بقيادة المختار الثقفي . وقد غلبوا على الكوفة . فأرسل ابن الزبير أخاه مصعبا ، وكان بطلا من أبطال قريش وسيدا من ساداتها ، فاستقام له العراق ، وقضى على المختار كما قضى — أو كاد يقضى — على الخوارج^(٢) .

وكان من أهم الأمور التي أساءت إلى ابن الزبير أنه تحامل على بني هاشم فأخرجهم من مكة ، ويقول اليعقوبي إنه ترك الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته ف قيل له : « لم تركت الصلاة على النبي ؟

(١) اليعقوبي ٣١١/٢ . (٢) انظر اليعقوبي ٣١٤/٢ وما بعدها .

فقال : إن له أهل سوء ، يشرثون لذكركه ، ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به ^(١) . وعلى كل حال كانت الأحوال مضطربة ، ولعل من أوضح ما يدل على اضطرابها أن نجد في سنة ٦٨ هـ أربعة ألوية بعرفات لواء مع محمد بن الحنفية وأصحابه ، وثان مع ابن الزبير ، وثالث مع نجدة ابن عامر الحروري ، ورابع مع بني أمية ^(٢) .

وأخيراً سار عبد الملك إلى مصعب بن الزبير ، فلقيه بموضع يقال له دير الجاثليق على فرسخين من الأنبار ، فاقتتلا هناك قتالا شديداً ، ولم يلبث أصحاب مصعب أن انحازوا عنه ، ولكنه استمر يقاتل حتى قُتل ^(٣) ، وكان ذلك في ذي القعدة سنة ٧٢ هـ .

ونذب عبد الملك الفاس لحرب ابن الزبير في مكة فتقدم إليه الحجاج وكثيرون معه ، فوجهه إليه في عشرين ألفاً من أهل الشام وغيرهم . وقدم الحجاج بن يوسف ، فقاتل ابن الزبير قتالاً عنيفاً ، ولم يغن ابن الزبير تحصنه بالبيت ، فقد رماه الحجاج بالمجانيق من كل جانب ، حتى هدمه ^(٤) ، بعد أن بناه ابن الزبير وأنفق كثيراً في بنائه ^(٥) .

ولما رأى ابن الزبير أنه لا طاقة له بحرب الحجاج دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر فقال لها : كيف أصبحت يا أمي ؟ فقالت له : إن

(١) اليعقوبي ٣١١/٢ .

(٢) اليعقوبي ٣١٤/٢ وطبري ٤٥٢/٢ وانظر ٧٨١/٢ .

(٣) انظر الطبري ٨٤٤/٢ . (٤) الطبري ٨٤٤/٢ .

(٥) اليعقوبي ٣٠٩/٢ وما بعدها .

في الموت لراحة ، ثم قال لها : إني أخاف إن قتلني هؤلاء القوم أن يمثلوا بي ، فقالت يا بني إن الشاة لا تألم للسليخ إذا ذبحت ، فخرج وقاتل حتى قتل^(١) وكان ذلك في سنة ٧٣ هـ .

ولاريب في أن هذه الحوادث التي أملت بمكة من عام ٦٣ هـ إلى عام ٧٣ هـ جعلها تقف في صفوف المعارضة من بني أمية ، ونحن نعرف أن هذه المعارضة كان موطنها العراق من حيث الخوارج والشيعة ، وقد اشتركت فيها الحجاز ومكة أثناء خلافة ابن الزبير . وأخذت حدة هذه المعارضة تضعف مع مر الزمن ، ولكن استمرت النفوس مطوية على الإحزن .

وإذا رجعنا إلى ولاية مكة في هذا العصر الأموي وجدنا بينهم خالد^(٢) بن العاص بن هشام وإلى عثمان ثم وإلى معاوية ، ويظهر أنها لم تدم معه طويلا ، فقد أخذت تتبع وإلى المدينة وممن ولاه عليها معاوية الوليد بن عقبة ، ونزعه يزيد وإلى عمرو^(٣) بن سعيد بن العاص ، ثم عزله وأعاد الوليد^(٤) ، ثم عزله وإلى عثمان^(٤) بن محمد بن أبي سفيان وكان قتي حدثا لم يجرب الأمور ولم تجرب به ، فكان لا ينظر في شيء من سلطانه وعمله^(٥) .

ثم غرقت مكة في حوادث ابن الزبير ، وكانت إذ ذاك عاصمة

(١) الطبري ٨٤٤/٢ واليعقوبي ٣١٩/٢ .

(٢) طبري ١٦/٢ وكذلك ص ٧١ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ .

(٣) طبري ٢٥٥/٢ . (٤) طبري ٣٩٩/٢ . (٥) طبري ٤٠٢/٢ .

لخلافته ومقرراً لإدارة سياسته ، ثم عادت إلى الأمويين . وكانت تمنح في العادة لقرشي ، وإن كان قد تولاهما عقب قتل ابن الزبير الحجاج ابن يوسف فأقام فيها سنة ثم تركها إلى العراق ، وفي أثناء حكمه لها وللحجاج بنى الكعبة وأدخل فيها الحجر وجعل لها بابين ^(١) . ثم تعاقب عليها ولاية مختلفون أشهرهم نافع بن علقمة الكناني وقد شدد في النيذ والغناء والمغنين ^(٢) . ومن أهم ولايتها خالد القسري وليها في عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٩ هـ ، وفي ولايته كتب الحجاج إلى الوليد « إن أهل النفاق والشقاق قد لجأوا إلى مكة ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي فيهم . فكتب الوليد إلى خالد بن عبد الله القسري ، فأخذ عطاء وسعيد بن جبير ومجاهدا وطلق بن حبيب وعمرو بن دينار ، فأما عمرو ابن دينار وعطاء فأرسلنا لأنهما مكيان ، وأما الآخرون فبعث بهم إلى الحجاج ^(٣) » . وكانت في خالد شدة ، وقد خطب في أهل مكة يوماً فقال :

« يا أيها الناس ! إنكم بأعظم بلاد الله حرمة ، وهي التي اختار الله من البلدان ، فوضع بها بيته ، ثم كتب على عباده حجه من استطاع إليه سبيلاً . أيها الناس ! فعليكم بالطاعة ولزوم الجماعة وإياكم والشبهات فإنني والله ما أوتي بأحد يطعن على إمامه إلا صلبته في الحرم ، إن الله جعل

(٢) أغاني طبع بولاق ١١/٢٠ .

(١) طبرى ٢/٨٥٤ .

(٣) طبرى ٢/١٢٦٢ .

الخلافة منه بالموضع الذى جعلها ، فسلموا وأطيعوا ، ولا تقولوا كيت وكيت ، إنه لا رأى فيما كتب به الخليفة إلا إمضاؤه ، واعلموا أنه بلغنى أن قوماً من أهل الخلاف يقدمون عليكم ويقيمون فى بلادكم ، فإياكم أن تنزلوا أحداً ممن تعلمون أنه زائع عن الجماعة ، فإنى لا أجد أحداً منهم فى منزل أحد منكم إلا هدمت منزله ، فانظروا من تنزلون فى منازلكم ، وعليكم بالجماعة والطاعة فإن الفرقة هى البلاء العظيم^(١) .

ويروى أنه كان يقول : « والله لو أعلم أن هذه الوحش التى تأمن فى الحرم لو نطقت لم تقر بالطاعة لأخرجتها من الحرم ، إنه لا يسكن حرم الله وأمنه مخالف للجماعة^(٢) » . وأقر سليمان بن عبد الملك خالداً على مكة وأحدث فيها أحداثاً ، منها أنه أدار الصفوف حول الكعبة وقد كانت صفوف الناس فى الصلاة بخلاف ذلك^(٣) .

ولعل فى هذا ما يدل على أن مكة انصرفت عن بنى أمية ، فقد أصبحت بينها وبينهم دماء منذ قام فيها ابن الزبير ، وقد حج الوليد سنة ٥٩٤ فخطب بها خطبة بتراء ، توعد فيها أهلها ، وتهدهم^(٤) . وينتهى القرن الأول وتدخل فى القرن الثانى ولا توجد حوادث واضحة فى هذا القرن سوى ما كان من استيلاء الإياضية برئاسة أبى حمزة الخارجى على مكة سنة ٥١٢٧ هـ ، واستولوا أيضاً على المدينة ، ثم ولوا وجوههم نحو

(١) طبرى ١٢٣١/٢ . (٢) طبرى ١٢٣٢/٢ .

(٣) المسعودى ٣٩٩/٥ . (٤) البغوي ٣٤١/٢ .

الشام ، فلقيتهم جيوش مروان بن محمد ، وهزمتهم هزيمة نكراء ، وتبعتهم ، حتى الين حيث قتل زعيمهم عبد الله بن يحيى الكندى الذى يسمى طالب الحق ^(١) .

٥

ثراء ومضارة

من أهم ما يميز مكة فى العصر الجاهلى أنها كانت بلد ثراء شديد ، فقد كانت تتجرجر كما قدمنا ، وكانت قوافلها تجوب بلاد العرب ، وكان فيها بيوت ثرية كبيرة ، أهمها بيت بنى أمية وبنى مخزوم . ولا بد أن عبد الله ابن جدعان كان ثرياً ثراء عظيماً ، فقد قرنه بعض الشعراء — كما تقدم — إلى قيصر ، ويبالغ الرواة فى كرمه وما كان يبذل للناس ^(٢) . وقد بلغت الأرباح فى قافلة بدر خمسة وعشرين ألف دينار ، وتنازل عنها أصحابها لحرب النبي ^(٣) ، وفى هذا التنازل ما يدل على أن أصحاب هذه الأموال كانوا من ذوى الأولوف . ومن أشهر الأثرياء حينئذ أسرة سعيد بن العاص وكان لها فى قافلة بدر ثلاثون ألف دينار ، ولبقية الأمويين عشرة آلاف . فأكثر مال القافلة كان للأمويين ، ولعل ذلك ما جعل أبا سفيان يرأس هذه القافلة . ومن أثرياء مكة من بنى مخزوم

(١) البقوى ٤٠٦/٢ .

(٢) أغانى طبع دار الكتب ٣٢٧/٨ وانظر المحبر ص ١٣٧ .

(٣) البقوى ٤٧/٢ .

الوليد بن المغيرة وعبد الله والد عمر بن أبي ربيعة . وقد دفع الخزوميون
لِلرَّسُولِ في فداء بعض أسراهم أربعة آلاف درهم^(١) ، وافئدوا رفات قتيل
يوم الخندق بعشرة آلاف درهم^(٢) . ومن أثرياء بني هاشم المعدودين العباس
ابن عبد المطلب ، وقد افئدى نفسه يوم بدر وابني أخيه عقيل بن أبي طالب
ونوفل بن الحارث بمائة وأربعين أوقية^(٣) .

وفي كل مكان نسمع أخبار هذا الثراء الفاحش وما يتبعه من كرم
وضيافة . عن أبي ذر قال : « قدمت مكة معتمراً فقلت أما من مضيف ؟
قالوا : بلى كثير وأقربهم منزلاً الحارث بن هشام الخزومي ، فأتيت بابه ،
فقلت : أما من قرئى ، فقلت لى الجارية : بلى ، فأخرجت إلى زيباً
فى يدها ، فقلت : ولم لم تجعليه فى طبق ؟ فعلت أنى ضيف ، فقلت :
ادخل ، فدخلت ، فإذا أنا بالحارث على كرسى وبين يديه جفان فيها
خبز ولحم وأنطاع عليها زيب فقال : أصب ، فأكلت ، ثم قال هذا
لك ، فأقت ثلاثاً ، ثم رجعت إلى المدينة فأخبرت النبى صلى الله عليه
وسلم خبره ، فقال : إنه لسرى ابن سرى ، وددت أنه أسلم^(٤) . وأخبر
السكراني فى إسناده عن رجلين من بنى سليم أخوين قالا : « دخلنا مكة
معتمرين فى سنة ، فما وجدنا بها شواء ولا قرى ، فبينما نحن كذلك
إذ رأينا قوماً يمشون ، فقلنا أين يريد هؤلاء القوم ؟ فقيل لنا يريدون

(١) الواقدي ص ١٢٦ . (٢) ابن هشام ٢٦٥/٣ .

(٣) البغوي ٤٦/٢ . (٤) الطبري ص ١٣٩ .

الطعام ، فضينا في جملتهم حتى أتينا دارا ، فوجدناها ، فإذا رجل آدم أحول على سرير وعليه حلة سوداء ، وإذا جفان مملوءة خبزا ولحما فقعنا فأكلنا ، فشبعنا قبل أخى ، فقلت له : كم تأكل ؟ أما شبعنا ؟ فقال الجالس على السرير : كل ، فإنما جُعِلَ الطعام ليؤكل ، فلما فرغنا خرجنا من باب للدار غير الذى دخلنا منه ، فإذا نحن بإبل موقوفة ، فقلنا : ما هذه الإبل ، قيل : للطعام الذى رأيتم ، فسألنا عن الرجل صاحب الطعام ، فإذا هو أبوجهل بن هشام ^(١) « وفي أبيه هشام يقول بجير بن عبد الله ^(٢) : فأصبح بطن مكة مقشعرا كأن الأرض ليس بها هشام

ومن هؤلاء الخزوميين من كان يقال له رب مكة كما قدمنا . والحق أن قريشا بلغت مبلغا عظيما من الثراء أثناء العصر الجاهلى ، حتى اشتهر أشرافها بأنهم كانوا يملكون دورا ليصيفوا فيها بالطائف .

وليس من ريب فى أن هذا كله يؤكد أنه كان هناك ثروات ضخمة فى الجاهلية . وقد أخذت هذه الثروات تتأثر أثناء الحروب بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين مكة ، كما أخذت تتأثر أكثر بمهاجرة كثير من أصحابها إلى المدينة . بل لقد أغلقت طرق القوافل المسكية حينما ففتح طريق العراق إلى الشام بعد فتح البلدين ، فحملت فيه تجارة الهند . غير أن مكة ففتح لها طريق آخر ، لم يكن فى هذه المرة طريق قوافل ،

(٢) المخرج من ١٣٩ .

(١) المخرج من ١٤٠ .

ولا كان خاصا بها ، بل كان عاما لها ولأهل المدينة والعرب جميعا وهو هذا الطريق ، بل الطرق الحربية ، التي انتهت بالعرب إلى كنوز بلاد فارس ومصر والشام . وكان القرشيون مميزين في هذه الفتوح ، فكان كثير منهم يرأس الجيوش والحملات ، وكان كثير منهم يتولى على المقاطعات والولايات . وقد انصبت كنوز الأرض في حجورهم وحجور العرب ، ويقول ابن خلدون : « إن بحار الرقة زخرت لديهم حتى كان يقسم للفارس الواحد في بعض الغزوات ثلاثون ألفا من الذهب »^(١) وقد روى أن الأسلاب قسمت بعد موقعة القادسية فبلغ سهم الفارس أربعة عشر ألفا وسهم الراجل سبعة آلاف ومائة^(٢) . ويروى أن عمر خطب في الناس مرة ، فقال : « إنه قدم علينا مال كثير إن شئتم أن نعده لكم عدداً ، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلا »^(٣) . وبلغ خراج سواد الكوفة وحدها في عهد عمر عشرين ومائة ألف ألف^(٤) ، وكان سعيد بن العاص يقول إن سواد الكوفة بستان قريش^(٥) . ويقول الرواة إنه لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة رأى عمر أن الفتوح قد توالى وأن كنوز الأكامرة قد ملكت ، وأن الجول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت ، فدوّن الدواوين وفرض العطاء وجعل لكل واحد من المسلمين نوعا مقررا تراوح بين

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٧ . (٢) اليعقوبي ١٦٥/٢ .

(٣) البلاذري طبع أوروبا ص ٤٥٣ . (٤) اليعقوبي ١٧٤/٢ .

(٥) ابن سعد ٢٢/٥ .

ألف وخمسة آلاف في العام^(١).

وهذا كله كان يصبُّ في بلاد العرب وخاصة في البلدين الكبيرتين اللتين كانت تقيم فيهما قریش ، وهما مكة والمدينة . وأخذ القرشيون يثرون ثراء لا نكاد نتصوره الآن ، فقد خلف طلحة بن عبيد الله ثلاثمائة بهار من ذهب وفضة^(٢) ، والبهار : مزود من جلد عجل . ووقف المسعودي عند هذه الثروات وقفة طويلة ، واستعرض ما صار إليه كبار الصحابة وعجَّب منه^(٣) . ولا عجب فقد ملك العرب الأرض ، وأصبحوا من ذوى الألوف المؤلفة ، ومنهم من بلغت ثروته نحو مليون من الدنانير ، فقد روى المسعودي أن يعلى بن منية مات عن خمسمائة ألف دينار وديون وعقارات قيمتها ثلاثمائة ألف دينار . ويعلى بن منية أحد من نزلوا مكة بعد أن هاجروا منها في عهد الرسول^(٤) .

ونحن إنما تصادفنا مثل هذه النصوص القليلة ولكننا تدل على ما وراءها ، وأن كثيرين من أهل مكة أثروا ثراء واسعاً على نحو ما أثرى طلحة ويعلى بن منية . ومن أهم أثريائها وأجوادها في العصر الإسلامي الأول عبد الله بن عامر والى عثمان على البصرة ، وقد اشترى سوق البصرة من ماله ووهبها لأهلها ، فلم يكونوا يؤدون عنها خراجاً^(٥) ،

(١) الفخرى طبع أوربا ص ١٠١ .

(٢) العقد الفريد طبع بولاق ٢٧٩/٢ .

(٣) المسعودي ٢٥٣/٤ وما بعدها . (٤) ابن سعد ٣٣٧/٥ .

(٥) المحبر ص ١٥٠ .

واتخذ في مكة حياضاً ونحلاً بعرفات ، وأقام الفجاج ، وهي قرية على الطريق بين مكة والبصرة ، واتخذ قريتين آخرين وغرس بهما نخلاً وأنبت عيونا^(١) . ويعرض ابن حبيب لجود القرشيين في أوائل العصر الإسلامي عرضاً يشبه الآن أن يكون قصصاً ، فمنهم من كان يهب البستان قيمته ستمائة ألف درهم ، ومنهم من كان يهب الجارية ابتاعها بمائة ألف درهم^(٢) .

ولما صار الأمر إلى معاوية اهتم ببلدته القديمة مكة ، فأجرى فيها عشرة عيون ، واتخذ فيها بساتين^(٣) ، وما زال الأمويون يعنون بها ، فكانوا يستنبطون بها الأشجار ، ويحفرون الخزانات والآبار^(٤) . وقد روى اليعقوبي أن سليمان بن عبد الملك أراد الحج فكتب إلى عامله خالد القسري وإلى مكة يأمره أن يجري له عيناً من الماء العذب ، فعمل خالد بركة في أصل « ثبير » بحجارة منقوشة ، واستنبط ماءها من ذلك الموضع ، ثم شق من هذه البركة عيناً تجرى إلى المسجد الحرام في قصب من رصاص ، حتى أظهرها في فوارة تسكب في فسقية رخام بين الركن وزمزم^(٥) .

وليس من شك في أن هذه مظاهر حضارة ، ولعل من أهم مظاهرها حينئذ اتخاذ الدور والقصور وبناءها بالآجر والجص واتخاذ

(١) المعارف لابن قتيبة طبع جوتنجن ص ١٦٤ وانظر الأزرق ١/٤٤١ .

(٢) المحبر ص ١٤٦ وما بعدها . (٣) الأزرق ١/٤٤٣ .

(٤) انظر مكة في دائرة المعارف الإسلامية . (٥) اليعقوبي ٢/٣٥١ .

أبوابها من الساج . ولم يكن يبينها العرب ، وإنما كان يبينها أجنب
من الفرس والروم جلوبهم لهذا الغرض . وبني معاوية لنفسه بمكة
دوراً يقال لها الرُّقْطُ لاختلاف ألوانها ، وقد بناها فرس من العراق
بالجص والآجر^(١) ، ويروى أنه اشترى من حُوَيْطِب ابن عبد العزى
داراً بأربعمائة ألف دينار^(٢) . وقد باع آل عقبة بن الأزرق قسماً
من دارهم قرب المسجد الحرام بثمانية عشر ألف دينار^(٣) . واتسع بناء
القصور في مكة أثناء حكم ابن الزبير ، فقد انجلبت إليها الأموال من
العراق ومصر ، ومن هذه الأموال بني الكعبة^(٤) . ويروى
الأزرق أن ابن عباس قال لابن صفوان صاحب ابن الزبير : هيهات !
هيهات ! تركت والله سنة عمر . . قضي عمر أن أسفل الوادى وأعلاه
مناخ للحجاج ، وأن أجياداً وقميقعان للمريحين والذاهبين ، واتخذتها
وصاحبك دوراً وقصوراً^(٥) .

ويظهر أنهم بالغوا في العناية ببناء هذه الدور والقصور حتى
أصبحت تنافس دور وقصور دمشق . روى الرواة أن معاوية حج
ذات مرة فوقف أمام دار عبد الله بن الحارث جد الثريا صاحبة عمر
ابن أبى ربيعة يتعجب من حسن بنائها ، فخرج إليه عبد الله يقول :

(١) الأزرق ١/٤٤٩ وانظر الأغاني طبع دار الكتب ٣/٢٨١ .

(٢) المعارف ص ١٥٩ . (٣) الأزرق ١/٤٥٩ .

(٤) الأخبار الطوال للدينورى ص ٢٨١ . (٥) الأزرق ١/٣٩٢ .

لا أشبع الله بطنك ! أما تكفيك الخلافة حتى تطلب هذه الدار^(١) .
ولم يكن كل ما أصاب الناس في مكة من تغير تحت تأثير الحضارات الأجنبية التي أخذوا ينقلونها هناك هو بناء الدور والقصور فحسب ، فقد أخذت معيشة القوم تتغير — ونقصد طريقة أكلهم وحياتهم — إذ دخل مكة كثير من الرقيق والجواري الفارسيات والروميات . دخلوا في عصر الخلفاء الراشدين مع الفاتحين الذين جلبهم ، وكان القواد أنفسهم يرسلون بهم ، فقد أرسل معاوية إلى عمر بأربعة آلاف من سبي قيسارية^(٢) ، واستمرت هذه السيول الأجنبية فيما بعد ، وساعد عليها ثراء الناس وأسواق الرقيق .

ولا ريب في أن هذا الرقيق الفارسي والرومي غير كثيراً في معيشة القوم إذ كانوا يقومون على خدمتهم وكانوا يعدّون لهم حياتهم إعداداً . يقول ابن خلدون : « لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبنائهم ، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة ، فقد حكى أنه أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعا ، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ، فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم ، واستعملوهم في منهنهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليه أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه مع ما حصل لهم من

(١) أغاني طبع دارالكتب ٢١١/١ . (٢) البلاذري ص ١٤٢ ويقال

إن الزبير مات عن ألف عبد وأمة . انظر السعدي ٢٥٤/٤ .

اتساع العيش والتمتّن في أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترّف في الأحوال ، واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرّئي .. فأتوا من ذلك وراء الغاية^(١) .

والحق أن أهل مكة والعرب جميعا اقتحمتم الحضارات الأجنبية اقتحاما ، وأخذت تغزوهم في عقر دورهم وفي حياتهم وطريقة معيشتهم ، فإذا كانوا قد فتحوا فارس وبلاد الروم (مصر والشام) حربيا فإن هذه البلدان فتحتهم حضاريا . وقد أقبلوا على ذلك أول الأمر حذرين على نحو ما أقبل عمر في الأخذ بنظام الدواوين الفارسي ، فاقصر على ديوان العطاء^(٢) ، ولكن لا نصل إلى معاوية حتى نجد يأخذ نظم الدواوين الفارسية كلها^(٣) . وهذا ما نلاحظه في الحياة نفسها ، فقد كان الصحابة إلى عصر عمر لا يتعمقون الحضارات الأجنبية ولا يأخذون إلا بظاهر منها ، ولكنهم أخذوا يتعمقونها وينسابون فيها أثناء عصر عثمان^(٤) ، وكلما تقدموا في الزمن تقدم بهم التأثير بهذه الحضارات .

وساعد أهل مكة على الاستمرار في هذا التأثير ما ورثوه عن آبائهم في الجاهلية من أموال ، وما جلبه لهم هؤلاء الآباء في الفتوح

(١) المقدمة ص ١٤٤ .

(٢) الوزراء والكتاب للجهمي طبع الحلبي ص ١٧ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤ . (٤) السعدي ٢٥٣/٤ .

الإسلامية من ثروات ، وكان ديوان العطاء الذى استحدثه عمر مدداً مستمراً طوال العصر الأموى لا ينفطع . ومن المعروف أن الأمويين كانوا يغدقون أموالهم على شباب مكة والمدينة ليلهمهم عن طلب الملك والخلافة^(١) ، فكان لذلك كله أثره فى استمرار البذخ الذى عرفته مكة عقب الفتوح . ويدل على ذلك من بعض الوجوه ما كانوا يتخذونه فى الكسوة التى كانت توضع على الكعبة ، ومعاوية هو أول من كسا الكعبة الديباج واشترى لها العبيد^(٢) . ولما فرغ ابن الزبير من بنائها كساها القباطى ، ومسح بالخلق داخلها وخارجها ، فكان أول من خلقها^(٣) . وبعث الوليد إلى خالد بن عبد الله القسرى وهو على مكة بثلاثين ألف دينار ، ف ضربت صفائح ، وجعلت على باب الكعبة وعلى الأساطين التى داخلها وعلى الأركان والميزاب ، فكان أول من ذهب البيت فى الإسلام^(٤) .

وهذه كلها صور من الحضارة التى أخذت تغزو مكة بل الكعبة نفسها ، ولا ريب فى أن البيوت خلف الكعبة كانت تأخذ بحظ بل بحظوظ مختلفة من هذه الحضارة .

(١) انظر الفخرى ص ١٢٧ وابن عبد ربه ١/١٤٥ .

(٢) البقوى ٢/٢٨٣ . (٣) البقوى ١/٣١١ .

(٤) البقوى ١/٣٤٠ .

ترف ولهم

وهذا الثراء وتلك الحضارة سرعان ما تحولاً إلى ضروب من الترف والنعيم ، وماذا ينقص أهل مكة لكي يترفوا ؟ إن المال ميلء حجبورهم والجوارى الفارسيات والروميات ميلء قصورهم . وليس من ريب في أن هؤلاء الجوارى كنّ يفهمن الحياة في صورة أخرى غير الصورة العربية ، وأنهن أخذن يدخلن هذه الصورة في دور مكة وقصورها ، يساعدهن في ذلك الموالى والرقيق الذى حُشد هناك من كل مكان .

وبَوْنٌ بعيد بين حياة المكيين في العصر الإسلامى وحياتهم في العصر الجاهلى ، فقد كانت حياتهم حينذاك خشنة إلى حد ما ، أما في هذا العصر فقد بدّلوا حياة أخرى عرفوا فيها كل ضروب النعيم والترف في المطعم والملبس وفنون الزينة المختلفة ، إذ أتيح لهم أن يأخذوا بحظوظ وافرة في كل جانب من جوانب الحياة ، فطعموا الألوان المختلفة من الطعام ^(١) ، وأكلوا وشربوا في أواني الذهب والفضة ^(٢) ، ولبسوا السندس والديباج والإستبرق ومقطعات الخبز ^(٣) والحرير والحلل

(١) المستطرف للإبشيحي طبع المطبعة العثمانية بمصر ١٦٢/١ .

(٢) ابن عبد ربه ١١١/١ وابن سعد ١٢٦/٤ .

(٣) أغاني طبع دار الكتب ٦٦/٥ .

الموشاة^(١)، وحتى إبلهم كانوا يضعون فوقها القطوع والديباج^(٢)، وكانوا يضعون في أعناق خيولهم أطواقا من الذهب^(٣). ويروى صاحب الأغاني في أخبار الهذلي أحد مغنبيهم أنه كان إذا أمسى أشرف على المسجد وغنى وهو في الجبل، فلا يلبث أن يرى الجبل كقرص الخبيص صفرة وحمرة من أردية قریش^(٤). وكان العرجي الشاعر يلبس الحلتين بخمسمائة دينار^(٥) أو بنحو ثلاثمائة جنيه.

وإذا كان الرجال يصنعون ذلك كله أو يغرقون في ذلك كله، فإن النساء هن الأخريات غرقن في فنون الزينة المختلفة، سواء في ملابسهن أو في حليهن. وقد تفنن في اتخاذ الثياب الرقيقة الشفافة^(٦)، كما تفنن في اتخاذ الحلي والجواهر^(٧). ولعلت أسماء جماعة من الفتيات والسيدات على نحو ما نلح أسماءهن في البيئات المتحضرة من مثل عائشة بنت طلحة، وكانت تقيم في المدينة سنة وفي مكة أخرى، وكانت تصيف بالطائف^(٨)،

(١) أغاني طبع دار الكتب ٢٢١/١ وانظر ٢٧٨/١.

(٢) نفس المصدر ٢٢١/١. (٣) أغاني ٢٥٩/١.

(٤) أغاني طبع دار الكتب ٦٥/٥ والخبيص: نوع من الحلواء يتخذ من

التمر والسمن.

(٥) أغاني طبع دار الكتب ٣٩٥/١ وفي حديث أبي بكر حين حضرته

الوفاة: والله لتألن النوم على الأذنين كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان.

(٦) انظر ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٧٤، ٢١١، ٢٨٣ وانظر

الأغاني ٤٠٤/١.

(٧) ابن سعد ٣٤٣/٨ وأغاني ٢٧٣/٨ وانظر ٢٧٨/٨.

(٨) أغاني طبع بولاق ٦١/١٠.

وكان لها ماشطتها الخاصة^(١)، وكانت تعنى بطيبتها وعطرها^(٢). وعلى مثالها كانت الثريا صاحبة عمر بن أبي ربيعة وهي بنت عبد الله^(٣) بن الحارث بن أمية الأصغر، ويظهر أن أباه كان من أثرياء مكة، وقد كان لها قصر عظيم^(٤)، وكانت مثل عائشة تصيف بالطائف^(٥). ويظهر أن دارها بمكة كانت تكتظ بالرقيق والجواري، فقد تخرج فيها اثنان من أشهر المغنين وهما الغريص ويحيى قيل، كما تخرجت فيها سمية^(٦)، وهي مغنية كانت هناك. وكانت الثريا جميلة وكان فيها دلٌّ وإعجاب بنفسها^(٧) على عادة الفقيات والسيدات المترفات.

وليس لدينا أخبار واضحة عن هؤلاء السيدات وما كنَّ ينفقن في زينتهن، ولكن لا بد أنهن كنَّ يسرفن في ذلك، فللمال كثير وحوانيت العطر والطيب حولهن^(٨)، وكذلك حوانيت الثياب القطنية واليمنية^(٩) والمروية^(١٠). والمرأة من عاداتها إن وجدت المال أنفقته على ملابسها وهيئتها وزينتها وعطرها.

ولعل أهم ما يلاحظ على هذه البيئة المترفة أن جمهرة من كانوا فيها من شباب كانوا فارغين من عمل، فليس هناك ما يشغلهم،

(١) أغاني ٦٠/١٠ . (٢) أغاني ٥٤/١٠ .

(٣) انظر في نسبها الأغاني ٢١٠/١ . (٤) أغاني ٢١١/١ .

(٥) أغاني ٢١٢/١ . (٦) أغاني ٣٥٩/٢ .

(٧) أغاني ٢١٤/١ وما بعدها . (٨) أغاني ٣٩٩/٢ وانظر ٤٧/٣ .

(٩) أغاني ٣٦٨/٢ وانظر ٢٥٩/١ . (١٠) أغاني ٢٥٩/١ .

وخاصة أن بنى أمية انصرفوا عنهم بعد ثورتهم مع ابن الزبير ، فلم يتخذوهم على الولايات ، ومع ذلك لم يمنعهم عطاء ، بل كانوا يزيدون فيه من حين إلى حين ، فهم أهلهم وعشيرتهم الأقربون . وقد ورثوا عن آبائهم في الجاهلية والإسلام أموالاً ضخمة كما قدمنا ، فكان ذلك كله سبباً في أن تتكوّن بمكة طبقة من الشباب المترف العاقل الذي نُشِّيَ في الحامية .

ومثل هذا الشباب في المدن المترفة إن لم يوجه لدراسات فكرية ، توجهه تَوّاً إلى اللهو والملاهي حتى يقطع وقته في اللذات والمتعات الممكنة . وأهم متعة عنيت بها مكة في هذا العصر هي متعة الغناء ، وسنعرض لها بالتفصيل في الفصل التالي . ومن أخبارهم في هذا الباب أنهم تعلقوا بلعب الشطرنج والنّرد والقرق أو ما يسمى في مصر بالسبيجة^(١) . روى أبو الفرج أن « عبد الحكم الجعفي اتخذ بيتاً فيه شطرنجات ونردات وقرقات ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار أوتاداً ، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جر دفترأ ، فقرأه ، أو بعض ما يلعب به ، فلعب به مع بعضهم^(٢) » .

وعلى هذا النحو انتشرت الملاهي في مكة ، وانتشر معها المرح ، وربما كان من أهم ما يصوره أن نجد لمكة في هذا العصر مضحكا مشهوراً ، كانوا يتخذونه للتندر والدعابة . وهذه عادة من عادات

(١) انظر لعب العرب لليمور ص ٤٩ . (٢) أغاني ٢٥٣/٤ .

الجماعة حين تيمدين وتتحضر، فإنها تميل إلى الدعابة والنادرة، ويوجد لها من يضحكها وينشر في جوها المرح. ومضحك مكة حينئذ شاعر خفيف الروح يسمى الدَّارِيّ، وقد ترجم له أبو الفرج ترجمة طريفة ذكر فيها مجموعة من نوادره، فن ذلك أنه كان عند بعض الولاة يحدثه، فأغفى الوالى، فعطس الدارمى عطسة هائلة، ففزع الوالى فزعاً شديداً، ثم استوى جالساً وقال له: أتفزعنى؟ قال: كلا! ولكن هكذا عطاسى، فقال ائتنى بيئنة على ذلك. فخرج فأثاء برجل، فسأله الوالى: بم تشهد لهذا؟ قال: أشهد أنى رأيته مرة عطس عطسة، فسقط ضرسه، فأغرق الوالى فى الضحك^(١).

وكما كان الدارمى يضحك الأمراء والرجال فى مكة، كان يضحك النساء، فكان لا يطيب لهن متنزّة إلا به^(٢)، وهو فى ذلك يشبه أشعب مضحك المدينة. وطلبت منه صديقة طيباً، وكان فيه بخل وحرص، فوعدها بإحضاره، ثم تاب إلى رشده فقال:

أنا بالله ذى العِزِّ وبالرُّكنِ وبالصَّخْرَةِ
من اللّائى يُرِدْنَ الطَّيِّبَ فى اليُسْرِ وفى العُسْرِ
وما أقوى على هذا ولو كنتُ على البصره
وتصادف أن التقياً، فعاتبته إلى أن قالت له: يا دارمى أتحنى؟ فقال: نعم، أفحنى؟ قالت: نعم. قال: فيالك الخير! فأنت تحبينى

وأنا أحبك فما مدخل الدراهم بيننا^(١). وكانت له بديهة حاضرة ، قال له محمد بن إبراهيم الإمام : لو صلحت عليك ثيابي لكسوتك ، قال : فديتك ! إن لم تصلح عليّ ثيابك صلحت عليّ دنائرك^(٢).

وهذا المجتمع المرح الضاحك الذي كان يأخذ بحظوظ من المتع والفكاهة ، كان يأخذ أيضاً بحظوظ من الحرية ، وهي حرية ينبغي أن لا نسيء فهمها ، فمن طبيعة المجتمعات المتحضرة أن يكثر فيها اختلاط الرجال بالنساء . وهذا ما نلاحظه في مكة أثناء هذا العصر ، ويظهر أن السفور والبروز للرجال كان شائعاً عند العرب قبل الإسلام ، وقد دعا القرآن الكريم نساء النبي إلى الحجاب^(٣) ، ولكن يظهر أن السفور استمر عند بعض النساء ، فقد كانت عائشة بنت طلحة تسفر^(٤) ، وكذلك كانت سُكينة^(٥) بنت الحسين ، وعمره^(٦) الجمحية صاحبة أبي دَهِب الشاعر المكي المعروف .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم لقاء عمر بن أبي ربيعة الدائم بالثريا^(٧) صاحبة ، وبغيرها من شريقات^(٨) مكة . ويقول أبو الفرج في بعض أخباره إن فتيات مكة كن يخرجن للتهزء مع الرجال^(٩). وليس في هذا

(١) أغاني ٤٧/٣ . (٢) أغاني ٤٨/٣ .

(٣) سورة الأحزاب ، آية ٥٩ . (٤) أغاني ٥٤/١٠ .

(٥) أغاني ١٦٥/١٤ . (٦) أغاني طبع دار الكتب ٩٣/٧ .

(٧) أغاني طبع دار الكتب ٢١٥/١ وما بعدها .

(٨) أغاني ٩١/١ وانظر أغاني ١٠٥/١ . (٩) أغاني ٤٧/٣ .

غربة ما دام المجتمع كان يبيح اللقاء بين الرجال والنساء ، وكل ما في المسألة من غربة أننا نأبى أن نقيس الماضي على الحاضر ، وننظر إلى بعض جوانب الحياة في المدن القديمة نظرة ضيقة ، والحياة هي نفسها في كل عصر . على أنه ينبغي أن لا ننزل من ذلك إلى اتهام مجتمع مكة بالتحلل في الخلق ، ففرق بين الحرية وبين الإباحية . ومع ذلك ينبغي أن نلاحظ أيضاً من طرف آخر أنه قد يوجد التحلل في الخلق عند بعض الأفراد ، ولكن هذا لا يكون شيئاً عاماً ، بل هو ضريبة الترف وضريبة الحرية التي يساء استعمالها أحياناً . ونستطيع أن نضع في هذا الجانب ما يرويه أبو الفرج عن بعض النساء واستهتارها^(١) . وقد يكون من الظواهر الواضحة في هذا الجانب أن نجد الناس يقبلون على الخمر بصورة لم نكن نألفها في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، وحقاشرها الأسود بن عوف بمكة في عهد عمر وحده^(٢) . ولكن هذه حادثة فردية كحوادث أخرى تروى في عهد الرسول^(٣) صلى الله عليه وسلم وفي عهد عمر أيضاً^(٤) . غير أننا لا نمضي في العصر الأموي حتى نجد داء الخمر يغلب على بعض المسكين ، ويظهر أنهم أحلوا في هذا العصر نبيذ التمر وما يتخذ من الزهر والرطب^(٥) .

وأكبر الظن أن دور المعتن كانت تقدم للمستمعين بعض

(١) أغاني ٩٣/١٧ . (٢) المعارف ص ١٢١ .

(٣) المعارف ص ١٦٨ . (٤) ابن عبد ربه ٤٠٧/٣ .

(٥) أغاني طبع بولاق ١٥/١٥ .

الشراب^(١) ، وساعد على ذلك أن المغنين أنفسهم كانوا يشربون^(٢) .
وقد حاول نافع بن علقمة والى عبد الملك وابنه الوليد أن يكفّ الناس
عن هذه الحال^(٣) .

وما ترتاب في أن هذا كله ثمرة من ثمار الترف الذي غرقت فيه
مكة ، وأيضاً فإنه ثمرة من ثمار مجتمع مكة الجديد الذي كان يزخر
بالجواري الأجنبية والرقيق الأجني ، فكان الأولون من العرب
يقبلون على الخمر لذة ومتعة بحياتهم المتحضرة الجديدة ، وكان الآخرون
من الموالي يقبلون عليها حزناً وأسى على حياتهم القديمة .

(١) أغاني ٢٠٨/٨ .
(٢) أغاني طبع دار الكتب ٣٦٧/٢ .
(٣) أغاني طبع بولاق ٢٠/١١ .

الفصل الثاني

الغناء في مكة

١

في العصر الجاهلي

من يُعنى بدرس الحياة العربية في العصر الجاهلي يلاحظ كثرة النصوص التي تدل على انتشار الغناء وذيوعه في كل مكان من الجزيرة العربية . يقول المسعودي : « لم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أُولعَ باللامى والطرب من العرب ^(١) » . ويكاد الإنسان لا يقرأ ديوان شعر جاهلي لشاعر مهمّ إلا ويجد فيه ذكر الشراب والغناء ^(٢) ، ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون أشعارهم ، وفي الأغاني أن المهمل تغنى ببعض شعره ^(٣) وكذلك الشّليّك ^(٤) بن الشّلكة . ولعل مما يدل على ذلك أن نجدهم يعبرون عن إنشاد الشعر بالغناء والتغنى . ففي حديث عمر بن الخطاب للناطقة الجعدى أنه قال له : « أسمعني بعض ما عفا الله لك

(١) المسعودي ٩٣/٨ .

(٢) انظر على سبيل المثال معلقة الأعشى ومعلقة طرفة وميمية . علقمة بن

عبدة الفحل . (٣) أغاني طبع دار الكتب ٥١/٥ .

(٤) أغاني طبع بولاق ١٨/١٣٤ .

عنه من غنائك ، يريد من شعرك^(١) .

فالشعر والغناء كانا مرتبطين في العصر الجاهلي ، وكانا يتخللان حياة العرب في سلمهم وحربهم . وما يشهد لذلك من بعض الوجوه ما يقوله ابن رشيقي من أن القبيلة من العرب كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس^(٢) . فالشاعر كان يستقبل بالغناء ، وأكبر الظن أنه كان يشارك فيه .

ولم تكن مكة شاذة على هذا الذوق العام عند العرب ، بل لعلها كانت مبرزة في هذا الجانب بحكم ما فيها من مال وثراء . وكان بجوارها سوق عكاظ ، وفيها كانت تُلقى قصائد الشعر الكبيرة المسماة بالمطولات أو المعلقات . ومن يدرى لعلها كانت تغنى^(٣) أيضاً ، إذ كانت أسواق العرب بمجتمع الشعراء والمغنين والمغنيات^(٤) .

وكانت مكة من جهة أخرى مركز الوثنية الجاهلية ، ولا بد أنهم كانوا يرتلون وينشدون بعض الأناشيد أثناء حجهم وإفاضةهم . وما يروى أنهم كانوا يرتلون : « أشرق ثبير كيا نُغير^(٥) » . وفي القرآن الكريم : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكسَاءً وتَضَدِيَةً » .

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة الثانية) ص ٢٨ .

(٢) ابن رشيقي ٣٧/١ وانظر المزهر طبع بولاق ٢٣٦/٢ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٤٠٣/١ . (٤) طبرى ١٣٠٧/١ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٢٠٠/٢ .

والمكاء : الصغير والتصدية : التصفيق . وفي المحبر لابن حبيب صوراً
لتعليقاتهم وتهليلاتهم في الجاهلية^(١) . ويقول المسعودي : « لم تكن
قريش تعرف من الغناء إلا النصب^(٢) » . وربما كان في اشتقاق هذه
الكلمة ما يدل على أن هذا ضرب من النشيد الديني حول الأوثان ،
فالنصب : كل ما نصب وعُبد من دون الله ، والأنصاب هي الأوثان ،
وفي الحديث « كلهم كان يَنْصِب » أي يغني غناء النصب^(٣) .

وفي هذا العصر لم تكن فكرة الحرير قد ظهرت ، فكان النساء
يتمتعن بما يتمتع به الرجال ، وكن يشتركن في الغناء على شكل جوقات
وخاصة في الأعراس إذ يعزفن على الدفوف والمزامير^(٤) ، وفي الحروب
إذ ينشدن أناشيد حربية لتحسيس الجيش . ومما يروى في هذا الصدد
أن هنداً بنت عتبة وجماعة من نساء قريش كنَّ يضربن على الدفوف
في غزوة أحد ، وكانت هند تنشد الشعر ، وكن يَرُدُّنَ عليها^(٥) . وكان
من القنن الخاصة بالنساء في الجاهلية واشتهرت فيها هند بنت عتبة
النواح ونَدَبُ الموتى^(٦) .

وبجانب هند وصواحبها القرشيات نجد أحاديث كثيرة عن القيان
في مكة ، ويتعمق ذكرهن في تاريخ مكة ، حتى ليزعم الرواة أن عاداً

(١) المحبر ص ٣١١ . (٢) المسعودي ٨/٩٣ .

(٣) انظر مادة نصب في لسان العرب .

(٤) الطبري ١/١١٢٦ . (٥) الطبري ١/١٤٠٠ .

(٦) أغاني طبع دار الكتب ٤/٢١٠ . وانظر أيضاً أغاني طبع بولاق

وما بعدها ، والفضليات ص ٢١٥ .

وفدّت في أيام العاليق وفداً يستقي لها من مكة ، فلما وصل الوفد إلى مكة أقبل على الشراب والاهو والسماع إلى غناء الجرادتين ، وكانتا قينتين معاوية بن بكر^(١) . وكان عند عبد الله بن جدعان قبيل الإسلام قينتان سماهما الجرادتين ، وكانتا تغنيان الناس ، وقد وهبهما لأمية بن أبي الصلت الثقفي ، وكان امتدحه^(٢) . وفي الأغاني أن أبا سفيان « نصح قريشا أن ترجع في غزوة بدر ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرى بدرأ ، فنقيم عليه ثلاثاً وننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب^(٣) » .

وكل هذه النصوص تدل على أن القيان كنّ كثيرات في مكة أثناء العصر الجاهلي . ويروى الزمخشري في الكشف أن النضر بن الحارث كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته ، فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ، ويقول هذا خير مما يدعوك إليه محمد^(٤) » .

وهنا يختلف الباحثون فيقول ليال إن هؤلاء القينات كنّ إما فارسيات أو يونانيات من سوريا ، وكن يتغنين أشعاراً عربية ولكن

(١) الطبري ٢٣٣/١ والسعودي ٢٩٦/٣ حيث يزعم أن اسم أحدهما ثماد والثانية قعاد .

(٢) أغاني طبع دار الكتب ٣٢٧/٨ .

(٣) أغاني ١٨٣/٤ ، وانظر الطبري ١٣٠٧/١ .

(٤) انظر تفسير الكشاف في سورة لقمان وتعليقه على الآية الكريمة : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث » .

بالحان أجنبية ، ويزعم فون كريم أن هؤلاء القيان كن يغنين بلسانهم
 الفارسي أو اليوناني^(١) ، ولعله ذهب هذا المذهب لقول حسان بن ثابت إنه
 رأى عند جبلة بن الأيهم عشريقان : خساروميات يغنين بالرومية بالبرباط ،
 وخسايغنين غناء أهل الحيرة^(٢) . ولكن هذا إن صدق في بلاط جبلة
 فإنه لا يصدق على مكة وغيرها من قرى الجزيرة وبواديها ، بل إن الأخبار
 كلها التي تدور حول هؤلاء القيان تدل على أنهم كن يغنين باللسان
 العربي ، وقد غنت إحداهن شعراً للناطقة فيه إقواء ، ودلته بصوتها على
 موضعه^(٣) . وكانت جراداتا عبد الله بن جدعان تغنيانه بشعر أمية
 ابن أبي الصلت فيه^(٤) .

ومهما يكن فقد كان الغناء منتشرأ في مكة أثناء العصر الجاهلي ،
 وكان يشترك فيه نساء قريش وهذه العناصر الأجنبية من القيان .
 ويظهر أن الرجال كانوا يشتركون فيه أيضا ، فحسان بن ثابت يروي أنه
 كان يقد على جبلة بن الأيهم من يغنيه من مكة^(٥) ، ويروي المسعودي
 أن النضر بن الحارث قدم العراق فتعلم ضرب العود والغناء عليه ، فقدم
 مكة فعمل أهلها فاتخذوا القينات^(٦) . واتخاذ القينات هنا معناه المبالغة فيه .

(١) انظر هنا : Farmer, A Hist. of Arabian Music

(London 1929) p. 12.

(٢) أغاني طبع بولاق ١٥/١٦ . (٣) أغاني طبع بولاق ١٦٤/٩ .

(٤) أغاني طبع دار الكتب ٣٢٨/٨ وما بعدها .

(٥) أغاني ١٥/١٦ . (٦) المسعودي ٩٣/٨ .

ونرى من ذلك كله أن موجة حادة من الغناء اكتسحت مكة في العصر الجاهلي ، حتى بلغ من بعض القوم هناك أن يرتحل إلى العراق فيطلب تعلم الغناء ثم يعود فيعلمه قومه . وهذا دليل نهضة ، وإن كنا لا نستطيع أن نتحقق منها ، إذ ليست عندنا صور من غناء القوم ، تدل على مدى ما اتخذوه من رسوم في غنائهم .

على أننا نميل إلى أن الغناء بمكة في هذا العصر الجاهلي لم ترسم له قواعد ، إنما كان المغنون والمغنيات والقيان ، كل يغنى حسب ذوقه وميوله وعواطفه ، إذ كان العرب لا يزالون أقرب إلى الفطرة في كل فنونهم .

٢

في عصر الرسول والخلفاء الراشدين

لا تكاد الحوادث والشخصيات تتضح في مكة أثناء عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، ومن أجل ذلك تقل النصوص عن حركة الغناء حينئذ . غير أن المعقول أن أدواته ومعارفه لم تحطم بعد الفتح لسبب بسيط ، وهو أن الإسلام لم يحرم الغناء ، فلم يرد في القرآن الكريم نص واضح ضده . وذهب بعض المفسرين^(١) إلى أن قوله تعالى في سورة فاطر : « يزيد في الخلق ما يشاء » ، إنما يشير إلى الصوت الحسن ، وفي سورة لقمان : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

(١) انظر تفسير البيضاوي للآية الكريمة .

وإذا تركنا القرآن الكريم إلى الحديث الشريف وجدنا روايات متضاربة ، ولعل ذلك ما جعل الغزالي يعقد فصلا طويلا في إحيائه للسمع والغناء ، وقد برهن بأدلة كثيرة على إباحته ، وقال إنه لا يدعو إلى تحريمه نص ولا قياس^(١) . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال عن داود عليه السلام إنه « كان حسن الصوت في النياحة وفي تلاوة الزبور » . وقد أنكر الرسول على زواج بعض الأنصار أنه لم يكن فيه غناء ، وتعجب من ذلك^(٢) .

ومما يلفت النظر أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن في ترتيل القرآن ، فما روى عنه أنه قال : « زينوا القرآن بأصواتكم » . وكان يعجب بصوت أبي موسى الأشعري وهو يرتل القرآن ، وكان يقول : « لقد أوتي زمماراً من مزامير آل داود^(٣) » . على أن النبي من جهة أخرى لم يباح أن يُصْحَبَ القرآن بالعزف والضرب على الأدوات الموسيقية ، ولكن مهما يكن فإنه لم يدع إلى تحريم الغناء^(٤) .

وإنما سقنا ذلك لندل على أن الإسلام لم يدع أهل مكة إلى إبطال الغناء الذي شاع في ديارهم ، أما أن الرسول أمر قبل دخول مكة للفتح

(١) إحياء العلوم للغزالي طبع بولاق ٢/٢٤٨ .

(٢) ابن عبد ربه ٣/٢٣١ . (٣) الغزالي ٢/٢٧٤ .

(٤) الغزالي ٢/٢٥٥ وانظر مشكاة المصابيح ٢/٤٢٥ والترمذي ١/٢٤١ .

بقتل ثلاث قيان هن سارة مولاة عمرو بن هشام (أو هاشم) بن عبد المطلب^(١) وقريبة وفرتنا قينتي عبد الله بن خطل^(٢) فرجع ذلك في حقيقة الأمر إلى أنهم كن يغنين بهجائه^(٣) ، وقد قتلت قريبة ، وعاشت فرتنا إلى خلافة عثمان^(٤) .

وهؤلاء الثلاثة إنما ذكرت أسماؤهن لأنهن اشتركن في الدعوة ضد الرسول ، وليس من شك في أنه كان وراءهن كثيرات لم يَحْضَنَ فيما حَضَنَ فيه . ونظن أنهن قد بقين يغنين ، إذ لم يكن هناك ضرورة لإبطال الغناء إلا إن اتصل بمحرم كالشراب والقمار . وتعد أيام الحج عند المسلمين أعياداً ، ومن ثَمَّ كانت تصحبها مظاهر السرور بما يمكن أن يكون فيها من غناء ، فقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه دخل على ابنته عائشة رضى الله عنها في أيام منى ، فوجد عندها جاريتين تُدَقِّقان وتضربان ، والرسول صلى الله عليه وسلم متدثر بثوبه منزمل ، فانتهرها أبو بكر ، فكشف الرسول عن وجهه ، وقال : دعهما يا أبا بكر . فإنها أيام عيد^(٥) .

ولعل في هذا ما يدل على استمرار الغناء في مكة أثناء عصر

(١) الطبرى ١/١٦٢٦ .

(٢) ابن هشام ٥٢/٤ والطبرى ١/١٦٤٢ .

(٣) ابن هشام ٥٢/٤ وانظر الطبرى ١/١٦٤٠ .

(٤) طبرى ١/١٦٤٢ . (٥) النزالي ٢/٢٥٤ .

الرسول وقد استقر ونما في عصر الخلفاء الراشدين ، فقد أقبلت أسلاب الفتوح الإسلامية ومغانمها على الحجاز في عهد أبي بكر وعمر ، وأقبل معها كثير من الرقيق الأجنبي . ونحن لا نصل إلى عصر عثمان حتى نشعر أن حياة العرب على وشك التحول تحولاً تاماً إلى الترف وما يتبع الترف من لهو وملاهي ، فقد فتحت البلدان ، ومصرت الأمصار ، وعاد كثير إلى ديارهم في الحجاز : مكة وغيرها ، ولم يعودوا فارغين ، وإنما عادوا وجحورهم مملوءة بالمسال ، فبنوا القصور على مثال ما رأوا في الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ، وحشدوا فيها الأسرى من فرس وروم ، وأخذوا يستبدلون بحياتهم القديمة حياة جديدة ، فيها تأثر واضح بألوان الحضارات الأجنبية ، كما أخذوا ينمون الفن القديم في بيئتهم ، فن الغناء ، وكان كثير منهم يجلب معه بعض المغنين أو بعض المغنيات ، ومن طريف ما يروى أن عبد الله بن عامر والي البصرة لعثمان اشترى جوقة من الإماء الصناعات ^(١) .

وكما قدمنا ليست حوادث مكة وشخصياتها وانحمة في هذا العصر ، عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، ولذلك لا تتضح لنا في سهولة حركة الغناء فيها حينئذ وما نالته من رقي وحظيت به من تقدم تحت تأثير العناصر الأجنبية الجديدة المجلوبة من الفتوحات ، فمكة تخفى ظروف الحياة وشخصياتها في هذه الحقبة وراء ظروف الحياة وشخصياتها في المدينة

(١) أغاني طبع دار الكتب ٣٢١/٨ .

العاصمة . غير أن ما اكتظت به المدينة حينئذ من مغنين ومغنيات جلبوا من الخارج^(١) يدل على أن مكة هي الأخرى كان حظها عظيماً في هذا الجانب ، وخاصة منذ عصر عثمان ، إذ أخذ المسلمون يخطون خطوات واسعة نحو الترف والمقنع المختلفة .

٣

في العصر الأموي

لعلنا لا نفلو إذا قلنا إن الغناء كان أهم شيء في الحياة بمكة وغيرها من مدن الحجاز أثناء العصر الأموي ، فقد أقبل الناس عليه إقبالا شديداً . ويخيل إلى الإنسان أن أيام الناس ولياليهم كلها قد أصبحت غناء ، ففي كل مكان وفي كل زمان لا تسمع إلا أحاديث الغناء والمغنين .

ويزعم السعودي أن الغناء لم ينم في مكة والمدينة إلا منذ عصر يزيد ابن معاوية^(٢) . وهذا غير صحيح إلا إذا سلمنا بأن يزيد هو الذي أشاع الغناء هناك ، وقد رأينا الغناء منذ العصر الجاهلي ، ووجدناه مستمراً في عصر الرسول والخلفاء الراشدين . والصحيح أن الغناء أخذ في النمو بمكة والمدينة جميعاً تحت تأثير العناصر الأجنبية التي جلبها الفاتحون

(١) انظر الجزء الأول من هذه السلسلة وهو الخاص بالمدينة ص ٦٠ .

(٢) السعودي ١٥٧/٥ .

هناك ، منذ عصر أبي بكر وعمر . ويؤكد ذلك أننا لا نصل إلى مفتتح العصر الأموي حتى نجد مغنين مشهورين ، يتقنون الغناء على أصول نظرية عربية حديثة ، وهي نظرية لم تتم فجأة ، بل أخذت تكونها مدة طويلة من الزمن . ولذلك كنا نظن ظناً أن الغناء بدأ في النمو منذ عصر عثمان ، لا عصر يزيد بن معاوية ، كما يقول المسعودي .

ونحن لا نكاد نتقدم في العصر الأموي حتى نجد لمكة مغنين مشهورين من مثل ابن مسجج وابن مُحَرِّز وابن سُرَيْج والغريص ويحيى قَيْل والأبجر وغيرهم كثير . ومن يقرأ في الأغاني لأبي الفرج لا يزال يجد من حين لآخر اسم مغن مكى أو مغنية مكبية من مثل بَغُوم وأسماء وكاتنا أمّتين عند عمر بن أبي ربيعة^(١) ، ومثل سُمية وكانت أمة في دار الثريا صاحبة عمر^(٢) . ومكة لا تشتهر هذا العصر بدور كبيرة للمغنيات مثل دار عَزَّة الميلاء في المدينة^(٣) ، وكذلك دار جميلة^(٤) التي خرجت كثيراً من المغنيات . ولكن ينبغي أن نلاحظ أن أكثر المغنيات اللاتي اشتهرن في دار جميلة كن يزرن مكة وخاصة في مواسم حجها ، وقد ذهبت جميلة في أحد المواسم وكان معها الفرّهة وعزّة الميلاء وحبابة وسلامة وخُلَيْدَة وعُقَيْلة والشماسية وفرّعة وبُلبُلَة ولَنَّة العيش

(١) أغاني طبع دار الكتب ١٦٥/١ .
 (٢) أغاني ٣٥٩/٢ . (٣) أغاني طبع بولاق ١٤/١٦ .
 (٤) انظر ترجمتها في الأغاني طبع دار الكتب ١٨٦/٨ وما بعدها .

وسُعيدة والزرقاء ، ثم خمسون قبينة لأهل المدينة خرجن معها لكي
ياخذن عنها بعض الغناء ^(١) .

وقد يكون من المبالغة أن نفصل في هذا العصر بين المغنين
والغنيات في مكة والمدينة ، فدأماً كان هناك اتصال ، ودأماً كان
معنى مكة يذهب إلى المدينة ، ومعنى المدينة يذهب إلى مكة .
فطوئيس وسائب خاثر ومعبّد وابن عائشة ومالك الطائي وعطرّاد ، كل
هؤلاء كانوا يزورون مكة ويغنون فيها ، وكذلك كان يزور المدينة
ويغنى فيها ابن مسجح وابن محرز وابن سريج والقريظ والأبحر ويحيى
قليل ، وغيرهم . ولم يكن هذا شأن المغنين وحدهم ، فقد كان أيضاً شأن
المغنيات بل كان شأن الناس أنفسهم ، فكل شاعر مكّي مشهور نجد
في أخباره أنه زار المدينة ، وكل شاعر مشهور في المدينة نجد كذلك في
أخباره أنه زار مكة . ويخيل إلى الإنسان كأنما كانت إحدى البلديتين
ضاحية للأخرى ، أو كأنما كانت بينهما مرحلة واحدة . وكان هذا
سبباً في اختلاط النصوص على بعض الباحثين ، فلم يكادوا يميزون في
شاعر مثل عمر بن أبي ربيعة بلدته التي كان يعيش فيها أمى مكة
أو المدينة لكثرة حوادثه في البلديتين جميعاً . ومن الطّرف التي تصوّر
ذلك من بعض الوجوه أن نجد مسألة المغنية المشهورة التي خرجتها
جميلة ، والتي ابتاعها يزيد بن عبد الملك بعشرين ألف دينار ^(٢) لا يشتهر

(١) أغاني ٢٠٩/٨ .

(٢) أغاني ٣٤٣/٨ .

بها وبجبتها أحدُ سكان المدينة ، وإنما يشتهر بذلك أحدُ قرَّاء مكة ويسمى عبد الرحمن بن أبي عمار الجُشمي ، وكان يلقب بالقسّ لعبادته ، سمعها في المدينة ، وربما في مكة ، فيتعلق بها وشغف حبا ، وراح ينظم في جملها أشعاره ^(١) .

ولا يستطع أن يفهم مدى ما كان من نهضة في الغناء واتساع به في مكة والمدينة جميعا إلا من يرجع إلى كتاب الأغاني ويقرأ فيه أخبار المغنين والمغنيات هناك ومواكبهم ودورهم ونواديهم . ومن الدور والنوادي الشهيرة في مكة دار كانت يبيع أطرافها ، وكان يأنس بها ابن سريج والغريز في كل جمعة ، ويحتمل لهما ناس كثير من مكة ، ويوضع لسلك منهما كرسي يجلس عليه ، ثم يغني كل منهما صوتا ، أو كما نقول الآن دورا ^(٢) . وكانت كل دار لمن تعدّ ناديا من نوادي الغناء ، فهو يستقبل فيها من يريدون سماعه ^(٣) ، وكانت بعض دور الأشراف والشريفات تعدّ كأنها فنادق ، كدار ابن أبي ربيعة الذي كان يلزمه المغنون وعلى رأسهم ابن سريج وكان هو نفسه يشتري القيان والإماء المغنيات ، ومثل دار الثريا بنت عبد الله بن الحارث صاحبة عمر ، وقد تخرّج فيها الغريز ويحيي قَيْل وُسْمِيَّة ^(٤) . وكان المغنون يقصدون إلى بعض دور الأشراف فيغنونهم ، كما كانوا يقصدون إلى بعض

(٢) أغاني طبع دار الكتب ٢٧٦/١ .

(٤) أغاني ٣٥٩/٢ .

(١) أغاني ٣٣٤/٨ .

(٣) أغاني ٣٦٨/٢ .

نواديههم ، وكانوا يظهرون في الأعراس وفي حفلات الختان ^(١) . وكانوا
يكثرون من الوقوف في طريق الحاج ^(٢) وعلى أبي قُبَيْس ^(٣) وأخْشَب ^(٤)
مِنَى وعند بستان ^(٥) ابن عامر ، فركب الحاج بعضهم بعضاً ، ويجسسون عن
مناسك الحج ومشاعره ، وكانوا يقفون أحياناً بين المأزَمين ^(٦) وعلى
كُثَب من التَّعْميم ^(٧) وكانت تضطرب الحامل وتمد الإبل أعناقها .

واندفع الناس في مكة يعجبون بهذا الغناء ، ومعهم الفقهاء ، وعلى
رأسهم عطاء بن أبي رباح تلميذ ابن عباس ، ويروى الرواة أنه ختن
ابنهِ واستدعى في ختانه الغريص وابن سريج ^(٨) ، كما يروون أنه لقي
ابن سريج بذى طوى فاستمعه صوتاً ، فلما سمعه « اضطرب اضطراباً
شديداً ودخلته أريحية ، فحلف ألا يكلم أحداً بقية يومه إلا بالشعر الذي
غنى فيه ابن سريج ، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام ، فكان كل من
يأتيهِ سائلاً عن حلال أو حرام أو خبر من الأخبار لا يجيبه إلا بأن يضرب
إحدى يديه على الأخرى وينشد هذا الشعر حتى صلى المغرب ^(٩) » .
ومثل عطاء في الإعجاب بهذا الغناء واسترواحه ابن جريج ، قال داود

(١) أغاني ١/٢٧٨ .

(٢) أغاني ١/٢٥٩ .

(٣) أغاني ٢/٣٦٢ .

(٤) أغاني ١/٢٩٣ وأخْشَب منى إما أبو قبَيْس أو قبيعان أو الجبل الأهر

(٥) أغاني ١/٣١٦ .

المشرف هناك .

(٦) أغاني ٣/٣٤٥ والمأزَمَان : مضيقتا جبلين بمكة .

(٧) أغاني ٣/٣٤٦ والتَّعْميم : موضع على فرسخين من مكة .

(٨) أغاني ١/٢٧٨ وانظر ٢/٣٤٨ . (٩) أغاني ١/٢٥٧ .

المسكى : « كما في حلقة ابن جريج وهو يحدثنا وعنده جماعة فيهم عبد الله ابن المبارك وعدة من العراقيين إذ مرَّ به ابن تيزن المغني وقد ائثر بِمِثْرٍ عَلَى صدره ، وهى إزرة الشطّار عندنا ، فدعاه ابن جريج فقال له : أحب أن تُسمعني ، قال : إني مستعجل ، فألح عليه ، فقال له : امرأني طالق إن غنيتك أكثر من ثلاثة أصوات ، فقال له : ويحك ! ما أمجلك إلى اليمين ! غنى الصوت الذى غناه ابن سريج في اليوم الثانى من أيام منى على جرة العقبة ، فغنى ، فقطع طريق الذهاب والجلأى حتى انكسرت الحامل ، فغنّاه : (عوجى على فسلى جَبْرُ) ، فقال له ابن جريج : أحسنت والله ! ثلاث مرات ، ويحك ! أعدّه ، قال من الثلاثة فإني قد حلفت ، قال : أعدّه فأعاده ، فقال : أحسنت ، فأعده من الثلاثة ، فأعاده وقام ومضى ... والتفت ابن جريج إلى أصحابه ، فقال : لعلمكم أنكرتم ما فعلت ؟ فقالوا : إنا لننكره عندنا بالعراق ونكرهه ، قال : فما تقولون فى الرجز يعنى الحداء ؟ قالوا : لا بأس به عندنا ، قال : فما الفرق بينه وبين الغناء ^(١) ؟ . والفرق فى الواقع كان فرق ذوق ، إذ كان أهل العراق فى هذا العصر ينبذون الغناء ويطرحونه ^(٢) ، ولم يعرف لهم مغنٍّ مشهور فى العصر الأموى سوى حنين ^(٣) ، وكان ذوقه محافظا ، فكان لا يغنى إلا النصب ^(٤) .

(٢) ابن عبد ربه ٣/٢٣٢ .

(٤) أغاني ٢/٣٥٢ .

(١) أغاني ١/٤٠٨ .

(٣) أغاني ٢/٣٤١ .

وكما كان فقهاء مكة يعجبون بالغناء كان يعجب به كذلك قضاتها
وعلى رأسهم الأوقص الحزومي ، ويظهر أنه التحق بدور المغنين في أول
حياته ، فقد حكى عن أمه أنها قالت له : « إنك خلقت في صورة لا تصلح
معها الجامعة الفتيان في بيوت القيان ، فعليك بالدين فإن الله يرفع به
الخصيسة ، ويؤتم به النقيصة ^(١) » . فكان ذلك سبب انصرافه عن
الغناء . ويقول أبو الفرج : « ولي قضاء مكة الأوقص الحزومي ، فما
رأى الناس مثله في عفافه ونبله ، فإنه لفأتم ليلة في جناح له إذ مرَّ به
سكران يتغنى (عوجي علينا ربة الهودج) فأشرف عليه فقال : يا هذا
شربت حراماً ! وأيقظت نياماً ! وغنيت خطأ ! خذه عني ! فأصلحه
له ، وانصرف ^(٢) » .

ولعل في هذا ما يدل على أنه لم يبق أحد في مكة إلا وكان يعجب
بالغناء ، وأخذ هذا الإعجاب يتزايد مع مر الزمن ، إذ كان المغنون
أو قل كانت جمهورهم في أول الأمر من فئة الخنثين ، وهي فئة كانت
تخضب أيديها وتلبس ملابس النساء ، وتوسط بينهم وبين الرجال ^(٣)
وشدد نافع بن علقمة والى مكة لعبد الملك وابنه الوليد في طلب هؤلاء
الخنثين ^(٤) . غير أنا لا نغضى في العصر الأموي حتى نجد هذه الفئة

(١) ابن عبد ربه ٢٣٤/٣ . (٢) أغاني ٣٦٧/٢ .

(٣) انظر أغاني ٢٤٩/١ وكذلك ص ٢٥٢ ، ٢٥٦ وانظر أغاني ٣٦٠/٢
وكذلك ٣٦٨/٢ وكذلك أغاني ٢٧٣/٤ . (٤) أغاني طبع بولاق ٢٠/١١ .

تضعف تدريجاً ، وحتى نجد الغناء يصبح عملاً ممتازاً يقبل عليه الأمراء من مثل عمر بن عبد العزيز ، إذ روى أبو الفرج له أصواتاً تركها في الغناء^(١) ، وقد أخذ العرب يشتركون فيه بجانب الموالي الذين استبدوا به في أول الأمر ، وقد مر بنا آنفاً أن الأوقص الحزومي حاول أن يكون مغنياً .

ولسنا ندري أكان للمغنين بمكة في هذا العصر ما يشبه النقابة أم لا ؟
ولسكن على كل حال كانت بينهم زمالة يحترمونها وقد أخذوا ينشرون في جو مكة المرح والدعابة . روى أبو الفرج أن ابن أبي عتيق خرج على نجيب له من المدينة قد حمله من طُرف المشارب^(٢) وغير ذلك ، فلقى فتى من بني مخزوم مقبلاً من بعض ضياعه ، فقال : يا ابن أخى أتصحبني ؟ قال : نعم ، قال الحزومي : فضميننا حتى إذا اقتربنا من مكة جَنَبْنَا عنها حتى جُزَّناها ، فصرنا إلى قصر ، فاستأذن ابن أبي عتيق ، فأذن له ، فدخلنا ، فإذا رجل جالس كأنه عجوز بربرية مختضة ، لا أشك في ذلك ، وإذا هو الغريص وقد كبر ، فقال له ابن أبي عتيق تشوقنا إليك ، وأهدى له ما كان معه ، ثم قال له : نُحِبُّ أن نسمع ، قال : ادعُ فلانة جارية له ، فجاءت فغنت ، فقال ما صنعت شيئاً ، ثم حلَّ خضابه وغنى (عوجي علينا ربّة الهودج) فما سمعت أحسن منه قط ، فأقمنا عنده أياماً كثيرة ، وخبأه قائم وطعامه كثير ، ثم قال له ابن أبي عتيق إني

(٢) المشارب : ما يشرب منه آنية .

(١) أغاني ٩/ ٢٥٠ .

أريد الشخصوس ، فلم يبق بمكة تحفةً عدني ولا يمان ولا عود إلا حمله على راحلته ، فلما ارتحلنا وبرزنا صاح به الغريز ، فرجعنا إليه ، فقال : ألم تروا أنه « يحشر من بقيعنا هذا سبعون ألفاً على صورة القمر ليلة البدر » ؟ فقال له ابن أبي عتيق : بلى ، فقال : هذه سنّ لي انتزعت ، فأحب أن تدفنها بالبقيع ، فخرجنا والله أخسر اثنين لم نعتمر ولم ندخل مكة ، حاملين سنّ الغريز حتى دفناها بالبقيع ^(١) . وعلى هذا النحو كان الغناء يُشيع في مكة أثناء العصر الأموي جوّاً ، كله مرشح ومرور وفسكاهة .

٤

الغناء المنفرد

وليس كل ما يلاحظ على الغناء لهذا العصر كثرة العاملين فيه من الموالى ، فنحن نلاحظ أنه ارتقى ضروباً من الرق ، بل لقد استطاع المغنون أن يحدّثوا نظرية الغناء العربي المعروفة التي نقرؤها في كتاب الأغاني . وبذلك أصبح الغناء العربي فنّاً له قواعد مرسومة ، وقد نوعه المغنون في ستة ضروب ، وهي : ثقيل أول ، وثقيل ثان ، وخفيف الثقيل ، ورمل ، وخفيف الرمل ، وهزج . ومرجع هذه الضروب إلى نوع النقرات فقد تكون ثقيلة ، وقد تكون خفيفة ، وقد تكون مزيجاً من الثقل والخفة . وميّزوا بجانب ذلك مجرى الصوت بحسب الأصابع ، فقالوا

(١) أغاني ٢/ ٣٦٨ .

ثَقِيلٌ أَوَّلُ بِالْبِنْصَرِ ، أَوْ مِنْ خَفِيفِ الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ بِإِطْلَاقِ الْوَتْرِ فِي مَجْرَى
الْبِنْصَرِ ، أَوْ يَقُولُونَ رَمَلٌ بِالسَّبَابَةِ فِي مَجْرَى الْبِنْصَرِ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ بِمَا يَزْخَرُ
بِهِ كِتَابُ الْأَغَانِي .

وَكَانَ الْمَغْنِينُ فِي مَكَّةَ أَثَرٌ بَعِيدٌ فِي نَشْوءِ هَذِهِ النُّظَرِيَةِ الْغَنَائِيَةِ .
يَقُولُ ابْنُ رَشِيقٍ وَقَدْ عَرَضَ لِلْغَنَاءِ عِنْدَ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ،
« وَغَنَاءُ الْعَرَبِ قَدِيمًا عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ : النَّصَبُ وَالسَّنَادُ وَالْهَزَجُ ... حَتَّى
جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ ، وَفَتَحَتْ الْعِرَاقَ ، وَجَلَبَ الْغَنَاءَ وَالرَّقِيقَ مِنْ فَارَسِ
وَالرُّومِ ، وَتَغَنَوْا الْغَنَاءَ الْمَجْزَأَ الْمُؤَلَّفَ بِالْفَارْسِيَّةِ وَالرُّومِيَّةِ ، وَغَنَوْا جَمِيعًا بِالْعِيدَانِ
وَالطَّنَائِيرِ وَالْمَعَازِفِ وَالْمِزَامِيرِ ^(١) » . وَابْنُ رَشِيقٍ يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ : إِنَّ النُّظَرِيَّةَ
الْغَنَائِيَّةَ عِنْدَ الْعَرَبِ حَدَّثَتْ تَحْتَ تَأْثِيرِ الْمَوَالِي الَّذِينَ جَلَبُوا مِنَ الْخَارِجِ ،
وَأَتَوْا مَعَهُمْ بِالْغَنَاءِ الْمَجْزَأَ الْفَارْسِيَّ وَالرُّومِيَّ . وَيَقُولُ أَبُو الْفَرَجِ فِي تَرْجُمَةِ
ابْنِ مَسْجُوحٍ شَيْخِ الْمَغْنِينِ فِي مَكَّةَ وَأَسْتَاذِهِمْ : « أَوَّلُ مَنْ نَقَلَ الْغَنَاءَ الْفَارْسِيَّ
مِنَ الْفَارْسِيِّ إِلَى الْغَنَاءِ الْعَرَبِيِّ سَعِيدُ بْنُ مَسْجُوحٍ مَوْلَى بَنِي مَخْزُومٍ . وَذَلِكَ
أَنْ مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ لَمَّا بَنَى دَوْرَهُ الَّتِي يُقَالُ لَهَا الرُّقُطُ حَمَلَ لَهَا بَنَاتَيْنِ
فَرَسًا مِنَ الْعِرَاقِ فَسَكَنَا يَبْنُونَهَا بِالْجِصِّ وَالْأَجُرِّ ، وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ مَسْجُوحٍ
يَأْتِيهِمْ ، فَيَسْمَعُ مِنْ غَنَائِهِمْ عَلَى بَنِيَانِهِمْ ، فَمَا اسْتَحْسَنَ مِنْ أَلْحَانِهِمْ أَخَذَهُ
وَنَقَلَهُ إِلَى الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، ثُمَّ صَاغَ عَلَى نَحْوِ ذَلِكَ ^(٢) » وَقَالَ أَبُو الْفَرَجِ فِي
مَوْضِعٍ آخَرَ : « إِنَّ أَوَّلَ مَنْ غَنَى هَذَا الْغَنَاءَ الْعَرَبِيَّ (يَقْصِدُ الْغَنَاءَ الْمُتَقَنَّ) »

(١) ابْنُ رَشِيقٍ ٢٤١/٢ . (٢) أَغَانِي ٢٨١/٣ .

بمكة ابن مسجح ، مولى بنى مخزوم ، وذلك أنه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام ، فسمع غناءهم بالفارسية ، فقلبه في شعر عربي وهو الذي علم ابن سُرَيْج والغريص^(١) « وقال أبو الفرج أيضاً : » سعيد بن مسجح مكي أسود مغن متقدم من فحول المغنين وأكابرهم ، وأول من صنع الغناء منهم ، ونقل غناء الفرس إلى غناء العرب ، ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبربطية والأسطوخوسية ، وانقلب إلى فارس ، فأخذ بها غناء كثيراً ، وتعلم الضرب ، ثم قدم إلى الحجاز ، وقد أخذ محاسن تلك النغم ، وألقى منها ما استقيحه من النبرات والنغم التي هي موجودة في نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنى على هذا المذهب ، فكان أول من أثبت ذلك وأحّنه ، وتبعه الناس بعد^(٢) .

وهذه نصوص صريحة في أن الغناء المتقن الذي ظهر في العصر الأموي لم يتم له هذا التحول بمؤثرات عربية خالصة ، وإنما تم له بمؤثرات أجنبية ، فهذا ابن مسجح أستاذ المغنين في مكة يأخذ عن الغناء الفارسي الذي كان يغنيه البناءون الذين جلبهم معاوية لبناء دوره والآخرين الذين جلبهم ابن الزبير لبناء الكعبة . ولا يكتفى بذلك ، بل نراه يرحل إلى الشام ليتعلم على المغنين هناك ويأخذ عنهم ألحانهم وإيقاعاتهم ، كما يرحل إلى بلاد فارس فيتعلم هناك أيضاً على المغنين ويتعلم الضرب والإيقاع على الأدوات الموسيقية المختلفة . ثم يعود إلى

(١) أغاني ٢٧٦/٣ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

مكة ، فينهض بالغناء العربي نهضة واسعة ، يخرج من دور البساطة القديم إلى دور جديد هو دور الغناء المتقن . ويظهر أن مغنين مختلفين ارتحلوا مثل ابن مسجح إلى بلاد الروم وفارس في طلب الغناء الأجنبي ، فقد روى أبو الفرج في ترجمة ابن محرز أنه « كان يسكن المدينة مرة ومكة مرة ، فإذا أتى المدينة أقام بها ثلاثة أشهر يتعلم الضرب من عزّة الميلاء ، ثم يرجع إلى مكة فيقيم بها ثلاثة أشهر ، ثم شخص إلى فارس فتعلم ألحان الفرس وأخذ غنائهم ، ثم صار إلى الشام فتعلم ألحان الروم وأخذ غنائهم . فأسقط من ذلك ما لا يستحسن من نغم الفريقين ، وأخذ محاسنها ، فمزج بعضها ببعض ، وألف منها الأغاني التي صنعها في أشعار العرب ، فأتى بما لم يُسمع مثله ، وكان يقال له صنّاجُ العرب ^(١) » .

وأظن في هذا كله ما يدل دلالة قاطعة على أن الغناء المتقن إنما تم تحت تأثيرات أجنبية . ولكن ينبغي أن لا نبالغ في ذلك ، فإن ابن مسجح وابن محرز ، ومن لف لفهما من المغنين لم ينقلوا نقلا النظريات الغنائية عند الأمم الأجنبية وإنما نقلوا بعض ألحان وبعض إيقاعات . وهذا هو معنى قول أبي الفرج عن ابن مسجح : إنه ألقى ما استيقبه من النبرات والنغمات الفارسية والرومية مما يعدد خارجاً عن غناء العرب ، وكذلك قوله في ابن محرز : إنه أسقط ما لا يستحسن من نغم الفرس والروم . ومعنى ذلك أننا نزع أن ابن مسجح وابن محرز في مكة استطاعا

أن ينفذا مع زملائهما من المغنين في المدينة إلى نظرية جديدة هي من تأليفهم جميعا ، وهي تلك النظرية التي أشرنا إليها آنفاً والتي تحمكت في تاريخ الغناء العربي على مر العصور ، إذ نجد كتاب الأغاني يطفح بكلمات ثقيل أول وثقيل ثان وخفيف الرَّمَل وهلم جرّاً . وهذا هو معنى قول أبي الفرج إن ابن مسجح أول من غفى على المذهب ، يريد مذهب هذه النقرات ، أو نظرية هذه النقرات التي سجلها في كتابه ، وما يطوى فيها من أصابع .

وإذن فنظرية الغناء العربي التي نقرؤها في الأغاني ليست أجنبية ولا مجلوبة من الخارج ، إنما هي عربية صنعت في الحجاز ، صنعها هؤلاء الموالى تحت تأثيرات أجنبية ، ولم ينقلوها نقلاً من لدن الأجانب . ولعل من أهم ما يدل على ذلك أن الأسماء التي تشيع فيها من رَمَل وهَزَج وثَقِيل وَسَبَّابة وبنصر وخنصر ونحو ذلك عربية . والذين استحدثوها برغم أنهم من الموالى ولدوا ونشأوا في جزيرة العرب ، وغفوا أولاً بالغناء العربي ، ثم تأثروا بالغناء الأجنبي : الفارسي أو الرومي . أما ما يقوله ابن خَرْدَازْبَه من أن العرب نقلوا الإيقاع في غنائهم من الفرس نقلاً^(١) فليس عليه دليل ، وخاصة إذا لاحظنا أن الفرس لم يكونوا يعرفون نظرية الوزن في الشعر ، فقد نقلوها هم عن العرب . ويقول صاحب الأغاني في أول كتابه : « إنه سيذكر اللحن وعروضه ، فإن معرفة أعار بض

الشعر توصل إلى معرفة تجزئته وقسمه ألحانه^(١) « وفي هذا ما يدل على أن نظرية الغناء التي استحدثها المغنون في مكة والمدينة لهذا العصر أُسِّسَتْ إلى حد ما على عروض الشعر العربي نفسه ، وهذه العروض لم تنقل من الخارج . وقد كتب أبو العلاء فصلا طريفاً عن الألحان في الغناء يتحدث فيه عن ضروب الإيقاع السابقة التي سميناها وهي : الثقيل الأول والثقيل الثاني وخفيف الثقيل والرمل والهزج ، وضبط الثقيل الأول بثلاث نقرات متساويات الأوزان ، وقاسه على مثال مفعولن ، بينما قاس الثقيل الثاني على مثال مفعولان ، وقاس خفيف الثقيل على مثال مفعولان أيضاً ولكن بسكون الفون ، أما الرمل فقاسه على مثال لان مفعو أو كما يقول العروضيون فاعلاتن ، وأما الهزج فقاسه على مثال قال لي ، أو كما يقول العرضيون فاعلن^(٢) .

ويوضح هذا الفصل الصلة بين عروض الشعر العربي والغناء الجديد الذي استحدثه المغنون في مكة والمدينة والذي كان يقع على هذا الشعر . ولعل في ذلك ما يدل دلالة قاطعة على أن نظرية الغناء الجديدة في مكة لم تنقل نقلا من لدن الأجانب ، وليس معنى ذلك أننا ننكر التأثير ، فالتأثير شيء والنقل شيء آخر .

على أن في هذا الرأي نفسه ما يرفع من شأن المغنين حينئذ ، وأنهم استطاعوا حقا بفضل ذكائهم وقدرة أيديهم وآذانهم وأذهانهم أن

يحدثوا للعرب هذه النظرية الدقيقة التي تحمكت فيمن بعدهم قروناً طويلة . ومن يرجع إلى كتاب الأغاني يلاحظ أن ابن مسجح كان يُعْنَى في غنائه بالضروب الثقيلة^(١) ، بينما عُنيَ ابن محرز بالضروب الخفيفة^(٢) . وينقل أبو الفرج عن إسحق الموصلي أن أباه قال له : « أول من عُنيَ الرملَ ابنُ محرز وما عُنيَ قبله ، فقلت له : ولا بالفارسية ؟ قال : ولا بالفارسية . وأول من عُنيَ رملاً بالفارسية ساهك في أيام الرشيد ، استحسن لحناً من ألحان ابن محرز فنقل لحنه إلى الفارسية وعُنيَ فيه^(٣) » . وواضح من هذا النص أن ابن محرز أول من عُنيَ هذا الضرب الخفيف المسمى بالرمل ، وواضح فيه أيضاً أنه ضرب عربي خالص ، لم يكن للفرس ضرب على مثاله ، بل لقد نقلوه في وقت متأخر عن العرب . وهذا نفسه يمكن أن يقال عن الضروب الأخرى السابقة .

ومهما يكن فإن التأثير الأجنبي في الغناء المسكى لهذا العصر إنما وقف عند بعض النغم في الأصوات وعند بعض الألحان والإيقاعات . أما بعد ذلك فنظرية الغناء العربي جديدة ، وهي من عمل هؤلاء المغنين الذين برعوا في فهم براعة هائلة . واسمع إلى ابن سُرَيْج تلميذ ابن مسجح ، وقد سأله مالك الطائي المغني عن قول الناس : « فلان يُصيب ، وفلان يخطئ » ، وفلان يحسن ؟ فقال : المصيب المحسن من المغنين هو

(٢) أغاني ١/٣٨١ .

(١) أغاني ٣/٢٦٨ ، ٢٨٢ .

(٣) أغاني ١/٣٧٩ .

الذي يشبع الألمان ، ويملاً الأنفاس ، ويعدّل الأوزان ، ويفخّم
الألفاظ ، ويعرف الصواب ، ويقيم الإعراب ، ويستوفي النغم الطوال ،
ويحسن مقاطيع النغم القصار ، ويصيب أجناس الإيقاع ، ويختلس مواقع
النبرات ، ويستوفي ما يشاكلها في الضرب من الفقرات ^(١) .

وهذا تصوير بديع لوصف ما أصابوا من إحسان في غنائهم . ولعل
هذا ما جعل الناس يتعلّقون بهم وبفهمهم ، فقد أحسنوه إحساناً بلغ
الغاية ، حتى لنرى الناس يتأثرون به تأثراً ، ينسيهم أنفسهم ووقارهم .
روى صاحب الأغاني أن ابن سريج مرّ به عطاء وابن جريج ،
فاستوقفهما ، فوقفا وغنّاهما : (إخواني لا تبعدوا أبداً) فغشى على ابن
جريج وقام عطاء يرقص ^(٢) . وإذا بلغ ابن سريج من تأثيره على
عطاء وابن جريج الشيخين المحدثين هذا المبلغ ، فماذا كان مبلغ تأثيره على
الآخرين ؟ لا بد أنه كان شديداً جداً . ونحن نسمع طرفاً كثيرة عن
تأثر الناس بهؤلاء المغنين ، فمنهم من كان ينقف لحيته أو يجرّقها ،
أو يُعلّق نعله في أذنيه ، أو يشق ثوبه من شدة التأثر وروعة الغناء . وقد
استمع جرير يوماً صوتاً من ابن سريج ، فقال : « الله دركم يا أهل مكة ،
ماذا أعطيتم ! والله لو أن نازعاً نزع إليكم ليقم بين أظهركم ، فيسمع هذا
صباح مساء لكان أعظم الناس حظاً ونصيهاً » ^(٣) . واستمع الحارث

(٢) أغاني ١/٣١٦ .

(١) أغاني ١/٣١٥ .

(٣) أغاني ١/٢٩٧ .

ابن خالد المخزومي والى مكة لعبد الملك يوماً إلى الغريض تلميذ ابن
سُريج فقال له: « يا غريض ! لا لوم في حبك ، ولا عذر في هجرك ، ولا
لذة لمن لا يروح قلبه بك ، يا غريض ! لو لم يكن في ولايتي مكة حظٌّ
إلا أنت لكان حظاً كافياً وافياً ، يا غريض ! إنما الدنيا زينة ، وأزين
الزينة ما فرّح النفس ، ولقد فهم قدر الدنيا على حقيقة من فهم قدر
الغناء ^(١) ». ومن طريف ما يرويه أبو الفرج أن « الهذلي أحد المغنين
في مكة كان نقاشاً يعمل البُرَم من حجارة الجبل ، فكان إذا أمسى
غنى ، فلا يلبث الجبل أن يرى كقرص الخبيص صفرة وحمرة من أردية
قريش ، فيقولون أعد ، فيقول : أما والله وها هنا حجر أحجاج إليه لم يرد
الأبطح فلا ، فيضعون أيديهم في الحجارة حتى يقطعوها له ويحذروها
إلى الأبطح ^(٢) ». ويقول أيضاً إنه كان يقول لهم : « أنزلوا أحجارى ،
فيلقون ثيابهم ويأثرون بأزهم وينقلون الحجارة وينزلونها ^(٣) ». وهكذا
كان الهذلي بفضل غنائه يحول شباب قریش إلى حمالين وحجارين !
وحدث صاحب الأغاني عن ابن سريج أنه غنى في فتيمة من بنى مروان
فطربوا ، وعظموه ، وتواضعوا له ، حتى صار في نفسه كأنه بمنزلتهم ، ثم
غناهم ثانية فطربوا ومثلوا بين يديه ، ورموا بمخلهم كلها عليه ، حتى

(٢) أغاني ٦٥/٥ .

(١) أغاني ٣٢٧/٣ .

(٣) أغاني ٦٧/٥ .

غطوه بها ، فمثلت له نفسه أنه الخليفة وأنهم له خدم ، ويقول : إنه لم يرفع طرفه إليهم بعد ذلك تيمناً^(١) .

وقد أخذت الدولة تعترف بهؤلاء المغنين وخاصة منذ الوليد بن عبد الملك الذي استقبل ابن سريج في دمشق استقبالا حافلا . ولما غناه غطاء بالخلع وأهداه كيسا من الدنانير وبدرأ من الدراهم^(٢) .

ويقال إن يزيد أخاه حج بالناس وسمع غناء ابن سريج فأعطاه حُلَّتَه وخاتمته^(٣) . ويروى أبو الفرج أن سليمان أخاها حج فسبق بين المغنين بدرّة ، والبدرّة : كيس فيه ألف درهم أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار ، ونال الجائزة ابن سريج^(٤) . ولعل في هذا كله ما يدل على أن الدولة أخذت تُعَفِّي بهؤلاء المغنين وتشجعهم لإحسانهم في قنهم ، فهي تستقدمهم تارة ، وتحج فتستمع إليهم تارة أخرى ، ممثلة في الخلفاء والأمراء . وكان بلاط الوليد بن يزيد مكثظا بمغنيّ الحجاز وعلى رأسهم مغنّو مكة مثل يحيى قنيل^(٥) والهدلى والأبجر ، ويقال إنه حج ؛ وبينما هو يسير ليلة في عسكره ، وإذا بصوت جميل ، فأشار لبعض من معه أن يقول : أعد الصوت ، فقال المغني : لا والله إلا بالفرس الأدهم بسرجه ولجامه وأربعائة دينار ، فنودي أين منزلك ؟

(٢) أغاني ٣٠١/١

(٤) أغاني ٣١٧/١

(١) أغاني ٣١٠/١

(٣) أغاني ٢٥٨/١

(٥) أغاني ٣٤/٧ وكذلك ٩٢/٧

ومن أنت ؟ فقال : أنا الأبحر ومنزلى على باب زقاق الخرازين . فغدا
عليه رسول الوليد بذلك الفرس وأربعمائة وتحت من ثياب ووشي وغير
ذلك ^(١) . وقد لزم الوليد حتى قُتل .

ولا يرتاب كل من يقرأ أخبار هؤلاء المغنين في أن منزلتهم أخذت
ترتفع في بلاط الخلفاء المروانيين حتى ليظن أنهم سبقوا الشعراء ، فقد
كانوا يغنون هؤلاء الخلفاء وينادونهم ويعودون من عندهم وقد ملأوا
حبورهم ذهباً وفضة . وهذا كله كان نتيجة تفوقهم في فنهم وثمره
نبوغهم في غنائهم .

٥

أشهر المغنين

نبلغ بمكة في هذا العصر كثير من المغنين ، وكتاب الأغاني يطفح
بأسمائهم . وقد ترجم أبو الفرج لنفر منهم ، وسنقتصر في الحديث عنهم
على مشهورهم ، إذ أثروا في الشعر الذي عاصرهم آثاراً عميقة .
وأشهرهم حينئذ ابن مسجح وابن محرز وابن سريج والفريض والأبحر .

ابن مسجح

هو أبو عثمان سعيد بن مسجح ، وُلد في مكة ، وكان أسود مولداً ،

(١) أغاني ٣/ ٣٤٦ .

وكان مولى بنى بُجَج ، وقيل إنه مولى بنى نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ^(١) . وهو أستاذ المغنين فى مكة ، فعنه أخذ ابن محرز ^(٢) وابن سريج ^(٣) . وهو أول من نقل الغناء الفارسى إلى الغناء العربى ^(٤) وبذلك كان أول من أعد للنظرية العربية فى الغناء . وبدأ ذلك فى عصر معاوية ^(٥) . وفى الأغانى أن « مولا سمعه يتغنى ، فدعا به ، وقال له : يا بُنَى أَعِدْ ما سمعته منك على ، فأعاده ، فإذا هو أحسن مما ابتداء به . فقال : أنى لك هذا ؟ قال : سمعت هذه الأعاجم تغنى بالفارسية ، فثقتها ، وقلبتها فى هذا الشعر . قال له : فأنت حر لوجه الله ، فلزم مولا ، واتسع فى غنائه ، ومهر بمكة ، وأعجبوا به لظرفه وحسن ما سمعوه منه ^(٦) » .

وسبق أن قلنا إنه نقل هذا الغناء الفارسى إلى العربية ممن بنوا دور معاوية الرُّقْطَ وكعبة ابن الزبير ، ونقلنا أنه كان يذهب إلى البلاد الأجنبية ليتعلم الغناء فذهب إلى سوريا وفارس ، ثم عاد إلى الحجاز وقد تشبعت نفسه بضرورة التجديد فى الغناء العربى القديم . واستطاع أن ينفذ مع تلميذه ابن محرز من جهة ومغنى المدينة من جهة أخرى إلى هذه النظرية الجديدة التى نقرؤها فى الأغانى ، التى تنتهى أسانيدنا إلى هذا العصر .

وكان ذلك سبباً فى شهرته . ويظهر أن جماعة من المتشددىن رفعوا

(١) أغانى ٣/٢٧٦ . (٢) أغانى ١/٣٧٩ .

(٣) أغانى ١/٢٥١ . (٤) أغانى ٣/٢٧٦ وانظر ٣/٢٨١ .

(٥) أغانى ٣/٢٨١ . (٦) أغانى ٣/٢٧٨ وما بعده .

أمره إلى عبد الملك فأرسل إلى عامله على مكة أن يقبض ماله ويسير به إليه ، فتوجه ابن مسجح إلى الشام . ويقول أبو الفرج : إن رجلاً له جوار مغنيات صحبه في طريقه ^(١) ، ولعله أراد لهن أن يأخذن عنه ويتعلمن فنه أثناء رحلته . وما زال حتى انتهى إلى دمشق ، وهناك تعرّف على أحد أقرباء عبد الملك فغناه ، وأعجب به إعجاباً شديداً ، وحينئذ أفضى إليه ابن مسجح بما جاء به فقال له : « إني أسمر الليلة مع أمير المؤمنين فهل تحسن أن تتحدّو ؟ قال : لا ، ولكنني أستعمل حذاءً ، قال : فإن منزلي بهذا منزل أمير المؤمنين ، فإن وافقتُ منه طيب نفس أرسلت إليك ، ومضى إلى عبد الملك ، فلما رآه طيب النفس أرسل إلى ابن مسجح ، فأخرج رأسه من وراء شرف القصر ثم حدّا . . فقال عبد الملك للقرشي من هذا ؟ قال رجل حجازي قدم على ، قال : أحضره . فأحضره له ، وقال له : احذُ حذاءً . ثم قال له : تغني غناء الركبان ؟ قال نعم . فقال : غنّه ، فتغنى ، فقال له : فهل تغني الغناء المتيقن ؟ قال : نعم ، قال : غنّه ، فتغنى . فاهتز عبد الملك طرباً . ثم قال له : من أنت ؟ ويلك ! قال له : أنا المظلوم المقبوض ماله المسير عن وطنه سعيد بن مسجح ، قبض مالى عامل الحجاز ، ونفانى . فتبسم عبد الملك ، ثم قال له : قد وضع عذر فتیان قريش في أن ينفقوا عليك أموالهم ، وأمنه ووصله وكتب إلى عامله برد ماله عليه وأن لا يعرض له بسوء . » ورجع ابن مسجح إلى مكة ،

(١) أغاني ٣/ ٢٨٢ .

وأَمْضَى فِيهَا بَقِيَّةَ حَيَاتِهِ آمَنًا . وَلَا نَجِدُ لَهُ أَخْبَارًا مَعَ أَحَدٍ مِنْ خُلَفَاءِ
عَبْدِ الْمَلِكِ . وَيَقُولُ صَاحِبُ الْأَغْنَى إِنَّهُ عَاشَ حَقَّ لَقِيهِ مَعْبُدٌ مَعْنَى
الْمَدِينَةِ ، وَأَخَذَ عَنْهُ فِي أَيَّامِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ^(١) .

ابن محرز

هُوَ أَبُو الْخَطَّابِ مُسْلِمٌ (أَوْ سَلْمٌ أَوْ عَبْدُ اللَّهِ) بْنُ مُحَرَّرِ مَوْلَى بَنِي
عَبْدِ الدَّارِ ، وَأَصْلُهُ أَبِيهِ مِنَ الْفَرَسِ وَكَانَ مِنْ سَدَنَةِ السَّكْعَةِ ^(٢) . وَقَدْ
تَلَّمَذَ ابْنُ مُحَرَّرٍ لِابْنِ مُسَجَّحٍ ^(٣) ، وَلَقَرَهُ الْمِيْلَاءُ ^(٤) ، فَكَانَ يَذْهَبُ إِلَيْهَا
فِي الْمَدِينَةِ ، حَيْثُ يَمْضِي هُنَاكَ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ يَأْخُذُ عَنْ مَعْنِيهَا . وَحَيَاتُهُ الْفَنِيَّةُ
طَرِيفَةٌ ، فَقَدْ شَخَّصَ مِثْلَ أَسْتَاذِهِ ابْنَ مُسَجَّحٍ إِلَى الشَّامِ وَفَارَسَ ، فَتَعَلَّمَ
الْحَانَ الرُّومِ وَالْفَرَسَ جَمِيعًا ، ثُمَّ أَخْضَعَ الْغَنَاءَ الْعَرَبِيَّ لِبَعْضِ هَذِهِ الْأَحْنَ ،
عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ يَصْنَعُ أَسْتَاذُهُ .

وَكَانَ لَا يَكْتَفِي مِثْلَ ابْنِ مُسَجَّحٍ بِمَا كَانَ يَقُومُ بِهِ فِي هَذَا الْجَانِبِ ،
بَلْ كَانَ يَذْهَبُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، لِيَسْتَمَعَ إِلَى مَا يَحْدُثُ الْمَغْنُونُ هُنَاكَ . وَمَعْنَى
ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَتْ لَدَيْهِ رَغْبَةٌ شَدِيدَةٌ فِي النَّهْوِزِ بِفَنِّهِ ، فَكَانَ يَقِيمُ بِمَكَّةَ
ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ يَبْرَحُهَا إِلَى الْمَدِينَةِ فَيَقِيمُ بِهَا ثَلَاثَةَ أُخْرَى ، ثُمَّ يَمْضِي بَقِيَّةَ
عَامِهِ فِي الشَّامِ وَفَارَسَ .

(١) انظر أغاني ٢٨٢/٣ وما بعدها .

(٢) أغاني ٣٧٨/١ .

(٣) أغاني ٣٧٩/١ .

(٤) أغاني ٣٧٨/١ .

واشتهر بأنه أول من غنى الرمل ، وكذلك اشتهر بأنه لم يكن يغنى إلا بزّوج من الشعر^(١) ، وقد غنى في إحدى حفلات جميلة مغنية المدينة المشهورة صوتاً مؤلفاً من ثلاثة أبيات ، فقالت له : يا أبا الخطاب كيف بدا لك في ثلاثة وأنت لا ترى ذلك ؟ فقال أحبيت أن أواسى معبداً^(٢) ، وكان معبد سبقه إلى غناء ثلاثة أبيات ، فأحب أن يوافقه في ذوقه . وهذا يدل على رهافة حسنٍ فيه .

وكان يقال له صنّاج العرب لإحسانه وجمال غنائه ، قال إسحق الموصلي قلت لليونس الكاتب : من أحسن الناس غناء ؟ قال : ابن محرز ، قلت : وكيف قلت ذلك ؟ قال إن شئت فسمرت ، وإن شئت أجهلت ، قلت : أنجل ، قال : كأنه خلق من كل قلب ، فهو يغنى لكل إنسان بما يشتهي . وكان يعد أحد الفحول الخمسة الذين ظهروا في الحجاز^(٣) .

ويقول أبو الفرج كانت العلة التي مات بها الجذام فلم يعاشر الخلفاء ولا خالط الناس ، ثم يروى أن غنائه لم يأخذه الناس عنه مباشرة ، وإنما أخذوه عن جارية لصديق له من أهل مكة كانت تألفه ، فأخذه الناس عنها^(٤) . ومع ذلك فنحن نجد يبرح مكة إلى الشام وفارس ودور المغنين والغنيات في المدينة . ويروى أبو الفرج نفسه في موضع آخر من كتابه أنا كان يفد مع ابن مسجع وابن سريج والغريص على المدينة ، فينزّلون

(٢) أغاني ٢١٣/٨ .

(٤) أغاني ٣٧٩/١ .

(١) أغاني ٣٧٩/١ .

(٣) أغاني ٣٨٠/١ .

بدار جميلة ويتمغنون فيها^(١). وربما أصابه هذا الجذام في أخريات حياته ،
ولكن على كل حال لا نجد له أخباراً مع الخلفاء والأمراء .

ابن سريج

هو أبو يحيى عميد بن سُرَيْج مولى بنى نوفل بن عبد مناف ، وقيل
بل مولى بنى الحارث بن عبد المطلب ، وقيل بل مولى بنى آيث وقيل
بل مولى بنى مخزوم^(٢) . وكان آدم أحمر ظاهر الدم خفيف العارضين
في غيبيه قَبِيل^(٣) ، ولد في خلافة عمر ، وأدرك يزيد بن عبد الملك
وناح عليه ، ومات في خلافة هشام^(٤) ، وقيل بل مات بعد قتل الوليد
ابن يزيد^(٥) . وقد أخذ الغناء عن ابن مسجج^(٦) ، ورحل إلى المدينة فأخذ
عن طُوَيْس^(٧) ، وكذلك أخذ عن نشيط الفارسي^(٨) مولى عبد الله
ابن جعفر ، وهو الذى أخذ عنه أهل المدينة الغناء الفارسي . ومعنى ذلك
أن ابن سريج وإن لم يرتحل إلى بلاد فارس لأخذ الغناء الفارسي كما
صنع أستاذه ابن مسجج ، فإنه ارتحل إلى المدينة لأخذه عن نشيط ، وإذن
فهو أحد من تأثروا بالغناء الفارسي في ألحانه .

وظل — على ما يظهر — خاملاً حتى كانت وقعة الحرة سنة ٦٢ هـ

- | | |
|-------------------------|-------------------|
| (١) أغاني ١٨٨/٨ . | (٢) أغاني ٢٤٨/١ . |
| (٣) أغاني ٢٤٩/١ . | (٤) أغاني ٢٥٤/١ . |
| (٥) أغاني ٢٥٠/١ . | (٦) أغاني ٢٥١/١ . |
| (٧) ابن عبد ربه ٢٤٢/٣ . | (٨) أغاني ٣٢١/٨ . |

فقال على أبي قُبَيْس ، وناح ، فاستحسن الناس نواحه . ويقال إن سكينه بنت الحسين قتيل كر بلاء بعثت إليه بشعر ، أمرته أن يصوغ فيه لحناً يباح به ، فصاغ فيه لحناً ، قدمه على جميع ناحة مكة والمدينة والطائف ^(١) . وما زال ابن سريج يقتصر على النياحة حتى ظهر الغريص وتنفق عليه في هذا الفن ، فتركه وعدل إلى الغناء ^(٢) ، فبرع فيه ومهر ، وارتفع نجمه لا في مكة وحدها بل في الحجاز كله . وكان في أول أمره يغني مرتجلاً ويوقع بقضيب ثم غنى بالعود ، وكان عوده على صنفعة عيذان الفرس ، وكان أول من ضرب به على الغناء العربي بمكة ^(٣) .

ولم يتقدم الزمن طويلاً بابن سريج حتى نال شهرة مدوية . قال إسحق : سألت هشام بن المُرِّيَّة وكان قد عُمرَّ وكان عالماً بالغناء ، فقلت له : « من أحق الناس بالغناء ؟ فقال لي أتحب الإطالة أم الاختصار ؟ فقلت أحب الاختصار فقال : ما خلق الله تعالى بعد داود النبي عليه الصلاة والسلام أحسن صوتاً من ابن سريج ، ولا صاغ الله عز وجل أحداً أحق منه بالغناء ، ويدلك على ذلك أن معبداً كان إذا أعجبه غناؤه قال : أنا اليوم سريجي ^(٤) . » وينقل إسحق عن أبيه إبراهيم أنه كان يقول : « غناء كل مغن مخلوق من قلب رجل واحد ، وغناء ابن سريج مخلوق من قلوب الناس جميعاً ، وكان يقول : الغناء على ثلاثة

(٢) أغاني ٢٥٥/١ .

(٤) أغاني ٢٥١/١ .

(١) أغاني ٢٥٤/١ وما بعدها .

(٣) أغاني ٢٤٩/١ وما بعدها .

أضرب ، فضرب مِله مطرب يحرك ويستخف ، وضرب ثانٍ له شَجِي ورقة ، وضرب ثالث حكمة وإتقان صنعة ، وكل هذا مجموع في غناء ابن سريج^(١) . وقال إبراهيم الموصلي أيضاً عن صوت سمعه لابن سريج : « ما سمعت هذا الصوت إلا أبكاني لأنني إذا سمعته أو ترنمت به وجدت غمراً على فؤادي^(٢) » . وقد سئل إسحق الموصلي عن غنائه وغناء ابن سريج فقال « والله لقد أخذت بخطام راحلته ، فزعرعتها ، وأخحتها ، وقت بها ، فما بلغت^(٣) » وكان يقول : « أصل الغناء أربعة نفر : مكيان ومدنيان ، فالمكيان : ابن سريج وابن محرز ، والمدنيان معبد ومالك^(٤) » . وتعلق الناس به في عصره ، وخاصة أهل مكة حتى قال ابن تيزن الغني ، وهو أحد غلمان ابن سريج : إذا أعجزك أن تطرب القرشي فغنه غناء ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة فإنك ترقصه^(٥) . وقد مر بنا أن عطاء الحديث سمع صوتاً له فرقص . وكان يتصافد أن يغني أثناء الحج فيحبس الناس عن مناسكهم . ويقال إنه غنى على أخشب منى غداة النفر صوتاً فارتفع حنين الناس وأنينهم^(٦) ، وأهداه شريف من أشرف الحجاج حلة وخاتماً قيمتهما ألف وخمسمائة دينار^(٧) . وكانت في ابن سريج رقة فكان لا يغني الناس صوتاً مُدِح به

(٢) أغاني ١/ ٢٧٠ .

(١) أغاني ١/ ٢٩٠ .

(٤) أغاني ١/ ٢٥١ .

(٣) أغاني ١/ ٢٥٢ .

(٦) أغاني ١/ ٢٩٣ .

(٥) أغاني ١/ ٢٨٣ .

(٧) أغاني ١/ ٢٦٢ وما بعدها .

أعداؤهم ، ولا صوتاً عليهم فيه عار أو غضاضة^(١) . واستدعاه الوليد ابن عبد الملك إلى بلاطه في دمشق ، وأنزله في أحد قصوره ، وأجزل له في جوائزه ، وكان ابن سريج يغنيه في مديح الشعراء له من مثل الأحوص وعدى بن الرِّقَّاع^(٢) . ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم قرب المغنين منذ الوليد إلى نفوس الخلفاء ، فقد كانوا يغنونهم في مدائحهم ، وربما كان ذلك أهم الأسباب في أنهم أخذوا يظفرون من جوائزهم بما لم يظفر به شعراؤهم ، ففرق أي فرق بين النشيد والغناء .

وترك ابن سريج ثلاثة وستين صوتاً كان يعرفها معرفة تامة إبراهيم الموصلي وابنه إسحق^(٣) . ويروى أبو الفرج أنه لما سمع مغنو مكة بسبعة معبد وشهرتها ، وهي أصوات سبعة سميت مُدَنَ معبد ، لحقهم لذلك غيرة ، فاجتمعوا ، فاختاروا من غناء ابن سريج سبعة ، فجعلوها بإزاء سبعة معبد ، ثم خairoا أهل المدينة ، فانتصفوا منهم^(٤) .

ولعل في هذا كله ما يدل على مدى إحسانه ومبلغ تفوقه ، وقد كان يغنى خاصة بالغناء الخفيف ، فكان أكثر غنائه من الأرمال والأهزاج^(٥) ، ولذلك كان يستخفه الناس ، وكانوا يقولون كان غنائه خلق من كل قلب^(٦) .

-
- | | |
|-------------------|---------------------------------|
| (١) أغاني ٢٦٩/١ . | (٢) أغاني ٢٩٧/١ وما بعدها . |
| (٣) أغاني ٢٦٨/١ . | (٤) أغاني طبع دار الكتب ٢٣٨/٩ . |
| (٥) أغاني ٢٦٧/١ . | (٦) أغاني ٢٥١/١ . |

الفريض

هو أبو يزيد أو أبو مروان عبد الملك^(١) ، أما الفريض فلقب
لُقِّبَ به لأنه كان نضر الوجه غض الشباب حسن المنظر . وكان مولداً
من مولدى البربر ، وهو مولى الثريا صاحبة عمر بن أبى ربيعة وأخواتها
المعروفات جميعاً باسم العَبَلات^(٢) .

وهو خريج ابن سريج وتلميذه ، وقد بدأ معه حين كان يحترف
النياحة ، فإن مولياته ألحقنه به لكي ينوح لمن على قتلاهن في
الحرة^(٣) . ولم يلبث أن تفوق على أستاذه في هذا الفن . ويقال إن
ذلك كان سبب عدول ابن سريج عنه إلى الغناء . وعدل الفريض معه
إليه ، فكان ابن سريج لا يغنى صوتاً إلا عارضه فيه^(٤) ، ولكنه لم
يستطع أن يزيه ، فقد كان دائماً يأتي دونه^(٥) ، ومع ذلك فقد كان يعدّ
في فحول المغنين وكبارهم . وجعله إسحاق الموصلى أحد خمسة تفوقوا
في فن الغناء بالحجاز^(٦) ، وروى أنهم أجمعوا على أن الفريض كان
أشجى غناء ، وكان ابن سريج أحكم صنعة^(٧) . ويقال إن سُكَّيْنَةُ بنت

(١) أغاني ٣٥٩/٢ وانظر ٢٥٥/١ .

(٢) أغاني ٢١١/١ وانظر ٣٥٩/٢ .

(٣) أغاني ٢١١/١ وانظر ٢٥٥/١ .

(٤) أغاني ٢٥٦/١ . (٥) أغاني ٢٧٦/١ وكذلك ٢٧٨/١ .

(٦) أغاني ٣٨٠/١ . (٧) أغاني ٣٦٢/٢ .

الحسين حجت ، فدخل إليها ابن سريج والغريص ، فقال لها ابن سريج :
يا سيدتي ! إني كفت صنعت صوتاً وحسنته وتنوقت فيه وخبأت لك في
حريرة في درج مملوء مسكا ، فنازعني الغريص ، فأردنا أن نتحاكم
إليك فيه ، فأينا قدمته فيه تقدم . ثم غناها كل منهما الصوت ، فقالت :
والله ما أفرق بينكما ، وما مثلكما عندي إلا كمثل اللؤلؤ والياقوت في
أعناق الجوارى الحسان ، لا يُدري أيُّ ذلك أحسن ^(١) . ويظهر أنه
استمر يجمع بين الغناء والنوح حتى آخر حياته ، فإن الثريا مولاته حين
ماتت ناح عليها ^(٢) . ويقول أبو الفرج إنه كان ينوح فيدخل المآتم
وتضرب دونه الحُجُب ، ثم ينوح فيفتن كل من سمعه ^(٣) . وكان في
الوقت نفسه يغني فيحسن الغناء ، ولكنه كان يأتي تابعا لابن سريج .
وهذا على كل حال لا يحطّ منه ، فقد كان ابن سريج على ما يظهر يتقدم
مغني الحجاز جميعا .

ومهما يكن فقد كان للغريص منزلة عظيمة في مكة ، وكان الحجاج
حين يسمعه يظفونه من الجن لجمال صوته ^(٤) ، وقد خرج إليه معبد
مغني المدينة الأول لسمع منه بعض أصواته ^(٥) ، فلما سمعه قال لقد
سمعت شيئا لم أسمع أحسن منه ، وقصّر إلى نفسي ، وعلمت فضيلته

(١) أغاني ٣٦٥/٢ وكذلك ٣٦١/٢ .

(٢) أغاني ٢٤٦/١ وانظر أغاني ٣٦٤/٢ (٣) أغاني ٣٦٠/٢ .

(٤) أغاني ٣٦٢/٢ . (٥) أغاني ٣٨٥/٢ .

على . ويظهر أنه كان يحسن التأثر والنقل ، فقد قالوا إنه سمع أصوات
رهبان بالليل في دَيْرَ لهم فاستحسنها ، وصاغ على مثالها لحناً^(١) .

وكان الغرييض مقرباً من نساء مكة والمدينة جميعاً ، وكان يحظى
بجوائزهن . ومن أشهر من غناهن عائشة بنت طلحة^(٢) . وليس من
شك في أنه كان المغنى الأول في دار مولياته العيلات وعلى رأسهن
الثريا صاحبة عمر بن أبي ربيعة . وكان يلزم عمر ويصحبه في غدواته
وروحاته ، وكان يتخذ رسولا إلى بعض صديقاته^(٣) . وكما كان
يلزم عمر كان يلزم الحارث بن خالد الخزومي الشاعر وإلى مكة
لعبد الملك ، وكان يجزل له في العطاء^(٤) . ويقال إنه غنى عاتكة بنت
يزيد فأسرت له بخمسة آلاف درهم وثياب عدنية ، وغير ذلك من
الأنطاف^(٥) . ولما قدم الوليد بن عبد الملك مكة صحبه وغناه فوصله
وكساه^(٦) ، وكذلك غنى يزيد بن عبد الملك أثناء حجه^(٧) .

ولعل فيما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أنه كان أحد المغنين
المتأخرين في عصره ، وتتلذذ لابن سريج كما قدمنا ، ويظهر أنه تتلمذ
أيضاً لابن مسجج^(٨) ، وكان كثير الروحات إلى دار جميلة

-
- | | |
|-----------------|-----------------------------|
| (١) أغاني ٣٩٧/٢ | (٢) أغاني ٣٧٨/٢ وانظر ٣٢١/٣ |
| (٣) أغاني ١٥٠/١ | (٤) أغاني ٣٢٣/٣ |
| (٥) أغاني ٣٢٣/٣ | (٦) أغاني ٣٩٥/٢ |
| (٧) أغاني ٣٨٢/٢ | (٨) أغاني ٢٧٧/٣ |

في المدينة^(١) . ولما شدد نافع بن علقمة في طلب المغنين والمخنثين هرب منه إلى اليمن فمات بها ، وكان ذلك في خلافة سليمان ابن عبد الملك . ويقال بل توفي في عُرْسٍ أو خِفَافٍ ، وتذهب الأسطورة إلى أن الجن نهته عن صوت فغنّاه فقملته^(٢) .

الأبجر

هو أبوطالب عبيد الله (أو محمد) بن القاسم وكان مولى لكنانة^(٣) ، أخذ الغناء على ما يظهر عن الغريص^(٤) ولكنه لم يشتهر بادی الأمر . ويقال إن عطاء بن أبي رباح خَنَ بنيه أو بنى أخيه ، فكان يختلف إليهم ثلاثة أيام يغني لهم^(٥) .

وكان يذهب إلى المدينة كعادة زملائه . ويقال إنه اجتمع يوماً مع ابن عائشة مغني المدينة في بيت ابن هبار فتغنى ابن عائشة ، فقال الأبجر : كل مملوك لي حر إن تغنيت معك إلا بنصف صوتي ، ثم أدخل إصبعه في شدة ، فتغنى ، فسمع صوته من في السوق وحشِر الناس^(٦) .

وكان الأبجر يعترض بغنائه الحجاج على عادة المغنين في مكة ، فكان يحبسهم عن مناسكهم ، وبينما كان يتغنى يوماً وإذا بالوليد بن

(١) أغاني ١٨٨/٨ وكذلك ٢١٠/٨ ، ٢١٣/٨ ، ٢٢٦/٨ .

(٢) أغاني ٣٩٩/٢ وما بعدها .

(٣) أغاني ٣٤٤/٣ . (٤) ٣٤٧/٣ .

(٥) أغاني ٣٤٨/٣ . (٦) أغاني ٣٤٨/٣ .

يزيد يمر به ، فيعجب بصوته ، ويرسل له بأربعمائة دينار ، ولزمه بعد ذلك فذهب معه إلى الشام ، واستمر عنده حتى قُتل ، فخرج إلى مصر ومات بها^(١).

وكانت فيه فكاهة ، فيقال إن رسول الوليد بن يزيد ذهب في استدعاء المغنين ، فعرض عليه نفسه فأبى أن يأخذه لأنه لم يكن يعرفه ، فقال له خذني ولك مع هذا شرط ، قال : وما هو ؟ فقال الأبحر : كل ما أصبته فلك شطره ، وذهب مع المغنين ، فغنوا الوليد ، فلم يتحرك ولا نشط ، وغنى الأبحر فطرب ، وارتاح ، وأمر له بعشرة آلاف درهم . فلما خرج المغنون وثب فقال للوليد : إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تأمر من يضربني مائة الساعة بحضرتك ، فضحك ، وقال له : قبحك الله ! وما السبب في ذلك ، فأخبره بقصته مع الرسول وقال : إنني أريد أن أضرب مائة ويضرب بعدى مثلها ، فقال له : قد لظفت ، أعطوه مائة دينار وأعطوا الرسول خمسين ديناراً^(٢).

وأغلب الظن أنه كان كثير الجوائز حتى قبيل ذهابه إلى دمشق ومعيشته في بلاط الوليد ، فالرواة يزعمون أنه « لم يكن بمكة أحد أظرف ولا أسرى ولا أحسن هيئة من الأبحر ، كانت حلتة بمائة دينار ، وفرسه بمائة دينار ، ومركبه بمائة دينار^(٣) . وإذا كان أصاب هذا في حياته فماذا

(١) أغاني ٣/ ٣٤٦ .

(٢) أغاني ٣/ ٣٤٨ .

(٣) أغاني ٣/ ٣٤٥ .

أصاب الذين يقدمونه من مثل ابن سريج والغريص ؟! وكل النصوص تدل على أن هؤلاء المغنين أحسنوا فهم إلى حد بعيد .

الهنزلى

هو أبو عبد الرحمن سعيد بن مسعود ، وكانت له مهنة غير الغناء ، فقد كان ينقش الحجارة بأبى قُبَيْس^(١) ، وكان منزله فى منى ، وكان فتيان قریش يأتونه ، فيغنيهم هناك ، وكان يجلس أحياناً على جمرة العقبة ويغنيهم^(٢) ، وأحياناً يغنيهم فى البطحاء^(٣) . وكانوا يذهبون أحياناً أخرى لمساعدته فى الحجارة ، أو بعبارة أدق كانوا يذهبون لسماع غنائه ، فيأبى إلا أن يساعده فى قطع الحجارة^(٤) . ويقول أبو الفرج : إنهم كانوا يفدون إليه ومعهم الطعام والشراب والدرهم ، فيقول لهم : الوظيفة ، فيقولون قد جئنا بها ، فيقول : الوظيفة الأخرى : أنزلوا أحجارى ، فينقلون له الحجارة وينزلونها ، ثم يجلس على قطعة بارزة من الجبل ، ويجلسون تحته فى السهل ، فيشربون وهو يغنيهم حتى المساء^(٥) . ويدل هذا الخبر على أن الناس لم يكونوا يستمعون للمغنين بالجان ، بل كانوا يستمعون إليهم بالوظيفة والدرهم ، وهى نفس الطريقة المتبعة

(٢) أغاني ٦٧/٥ .

(٤) أغاني ٦٥/٥ .

(١) أغاني ٦٥/٥ .

(٣) أغاني ٦٦/٥ .

(٥) أغاني ٦٧/٥ .

الآن . وليس من ريب في أن هذا كان دخلا منظما لهؤلاء المغنين ،
وأنة كان يدرّ عليهم كثيراً من الأموال .

وأهم حادث في حياة الهذلي أنه تزوج بنت ابن سريج ، زوجه
منها ابن سريج نفسه ، وهذا دليل على أنه كان يتبعه ويلازمه . ويقول
الرواة إنه أخذ غناء أبيها كله عنها ^(١) ، وجاء منها بولد فر يوماً على مجلس
فيه أشعب ، فتساءل الناس من هذا الصبي ؟ فقال أشعب : أوماترفونه ؟
هذا ابن الهذلي من ابنة ابن سريج ، ولد على عود ، واستهل ^(٢) بغناء ،
وحنّك بملوى ^(٣) وقطعت سرتة بوتر ، وخُتِنَ بمضراب !

وهؤلاء هم أشهر المغنين الذين ظهروا في مكة أثناء العصر الأموي ،
وكان وراءهم كثيرون لا يقولون عنهم شهرة . وقد ترجم أبو الفرج لطائفة
منهم مثل يحيى قيل ^(٤) مولى العبلات ، وكان أحد من لقيه الوليد بن
يزيد في مكة واستمع إلى غنائه ^(٥) ، ومنهم عبادل مولى قریش ، وهو
معن محسن متقدم من الطبقة الثانية ، ولم يفارق الحجاز ولا وفد إلى
ملوك بني أمية ، وكانت له صنعة كثيرة ^(٦) .

وكان بجانب هؤلاء المغنين كثير من المغنيات ، ولكن يظهر أن
مكة لم يكن بها دار خاصة بهن ، كدار غزاة الميلاء وجميلة في المدينة ،

(١) أغاني ٦٦/٥ .

(٢) استهل : صاح .

(٣) الملوى : من أجزاء العود .

(٤) أغاني ٣/١١٠ .

(٥) أغاني ٩/٢٧٥ .

(٦) أغاني ٦/٩٦ .

ولذلك لم نسمع كثيراً عنهم ، وإن كانت نصوص الأغاني تدل على أنهم كن كثيرات . وقد سبق أن قلنا إن التي نقلت للمغنين والناس غناء ابن محرز جارية لصديق له ، ودارُ الثريا وأخواتها العَبَلات التي أخرجت الغريص ويحيى قيل أخرجت كذلك مغنية عرفت هناك تسمى سُمَيَّة ، وكان عمر بن أبي ربيعة يمتلك جاريقتين مغنيتين هما بَعُوم وأَسْمَاء . ويقول أبو الفرج ، وقد عرض لموكب جميلة حين حجت ، إنه استقبلها في مكة قيان كثير لم يسمَّين لنا ^(١) . ومن المؤكد أن مكة كانت تكثف بهؤلاء القيان ، ويقال إن سلامة القيس التي نشأت في المدينة اشتراها يزيد من مكى يسمى سُهَيْل بن عبيد الرحمن ^(٢) ، ومعنى ذلك أن مكة حظيت بأغانيها وغنائها . وكذلك يقال إن حَبَّابة التي اشتراها يزيد أيضاً والتي خرجتها جميلة إنما اشتراها من آل لاحق المسكين ^(٣) .

ويخيل إلى الإنسان أن مكة في هذا العصر كانت فردوساً للمغنين والمغنيات ، وقد أشرنا مراراً إلى زيارة مغنى المدينة لها من مثل معبد وجميلة ، ويكاد لا يوجد مغن مشهور أو مغنية معروفة في المدينة إلا وزارها واستمعت إلى كبار مغنيتها . ومن لم يأت منهم استمع إلى هؤلاء المغنين المسكين في المدينة نفسها ، إذ كانوا يكثرُونَ من زيارتها ومن النزول على جميلة ، وأكثر ما أحيوا ليالي وحفلات فيها .

(١) أغاني ٣١٠/٨ . (٢) أغاني ٣٣٤/٨ وانظر ٣٣٩/٨ .

(٣) أغاني طبع بولاق ١٥٥/١٣ .

وقد كان هؤلاء المغنون من أهل مكة يكثر من زيارة دمشق ، كما كان يكثر من هذه الزيارة مغنو المدينة ومغنياتها . وأحدنا فيها بفضل زيارتهم وبفضل اهتمام الخلفاء بهم نهضة فنية في الغناء ، كان من آثارها هناك أبو كامل الغزَّيل مغني الوليد بن يزيد ^(١) ، بل كان من آثارها الوليد بن يزيد نفسه على نحو ما هو معروف ^(٢) .

ونحن لا نكاد نخطو خطوات في العصر العباسي حتى نجد هذا النهر نهر الغناء الحجازي الذي كان يسير نحو الشمال يتجه إلى الشرق حيث العراق ومدنه الكبيرة : البصرة والكوفة ثم بغداد . وكان للرافد الكبير رافد مكة أثر واسع في هذا التحول وما طوى فيه من نهضة فنية كبيرة للغناء والموسيقى في العراق . ولا يكاد يعيش في مكة مغن مشهور إلى العصر العباسي إلا وراه هناك ، وقد ترجم أبو الفرج في أغانيه لطائفة كبيرة من هؤلاء المغنين الذين كانوا واسطة انتقال هذا الفردوس الموسيقي من الحجاز إلى العراق من مثل ابن عباد وكان مولى لبني مخزوم وقيل بل مولى لبني جُمَح ، وهو من كبار المغنين وقد توفي ببغداد في الدولة العباسية ^(٣) ومثل إسماعيل ابن لُهرْبُذ وكان مولى لآل الزبير بن العوام ، وأدرك آخر أيام الرشيد ، وغناه يوماً فكاد يرقص من شدة الطرب ، ثم أسر له بعشرة آلاف درهم ^(٤) ، ومثل يحيى المسكي ،

(١) أغاني طبع دار الكتب ٣٢/٧ وكذلك ٤٦/٧ ، ٩١/٧ وما بعدها .

(٢) أغاني ٣٢/٧ وانظر ٢٧٤/٩ .

(٣) أغاني ١٧١/٦ . (٤) أغاني ١٠٤/٧ .

ويقول صاحب الأغاني : إنه قدم مع الحجازيين الذين قدموا على المهدي في أول خلافته ، وبقي في العراق هو وولده يخدمون الخلفاء إلى أن انقرضوا ، وكان آخرهم محمد بن أحمد بن يحيى المسكي ، وكان يغني مرتجلاً ، ويحضر مجلس المعتمد مع المغنين ^(١) ، ومثل سياط وكان مولى لخزاعة ، وقد ترك ستين صوتاً ^(٢) .

ولنرجع إلى المغنين الثلاثة المقيمين في عصر هارون الرشيد والذين جمعوا له الأصوات المائة التي أدار أبو الفرج كتابه (الأغاني) عليها ، وهم فليح بن أبي العوراء وابن جامع وإبراهيم الموصلي ، فإنك إذا ذهبت تبحث في حياتهم وتكوينهم الفني وجدت أولهم من أهل مكة وكان مولى لبني مخزوم ^(٣) . أما الثاني فكان سياط زوج أمه ^(٤) . ولهذا يغلب أن يكون مكي الولادة والنشأة ، وأما الثالث فإنه تعلم للمكيين ، وأخذ عنهم ^(٥) .

وأكبر الظن أننا لا نسرف إذا قلنا : إن نهضة الغناء في العراق أثناء العصر العباسي إنما كانت امتداداً لهذه الموجة التي نفذت إلى العراق على أيدي مغني مكة وزملائهم من مغني المدينة .

(١) أغاني ١٧٤/٦ . (٢) أغاني ١٥٦/٦ وما بعدها .

(٣) أغاني ٣٥٩/٤ . (٤) أغاني ١٥٢/٦ وانظر ٢٨٩/٦ .

(٥) أغاني ١٥٢/٦ ، ١٧٤/٦ .

الفصل الثالث

الشعر الغنائى فى مكة

١

الشعر فى مكة

كل من يدرس الحياة الأدبية العربية فى العصر الجاهلى يشعر شعوراً متأصلاً فى ذات نفسه بأن الشعر كان عمود هذه الحياة ، إذ كان سبيل القوم إلى التعبير ، سواء فى وقائعهم الحربية أو وقائعهم اليومية ، فلم يكن قد تكون عندهم بعد هذا الحائط العقى الذى يحول الأمة من عالم الشعر إلى عالم الكتابة الفنية . ووَجِدَ لدى القوم خطابة ، ولكنها كانت محدودة ، أما الشعر فكان الأسلوب العام للتعبير عن أحداثهم ويومياتهم .

ونحن نجد الشعر فى مكة أثناء العصر الجاهلى على كل لسان ، وفى كل مناسبة ، مما يجعلنا نؤمن أن أهل مكة كانوا مثل بقية العرب يعبرون بالشعر عن كل ما يضطربون فيه من عواطف دنيوية أو دينية . ونضرب لذلك مثلاً بيت بنى هاشم ، فنحن نجد الرواة يذهبون إلى كل الشخصيات اللامعة فيه شعراً ، قصصاً وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب

كل هؤلاء يُنسب إليهم شعر^(١) ، وكذلك حمزة^(٢) بن عبد المطلب وأخواه
الزبير^(٣) وأبو طالب . يقول ابن سلام : « كان أبو طالب شاعراً
جيد الكلام ، وأبرغ ما قال قصيدته التي مدح فيها النبي صلى الله عليه
وسلم ، وهي :

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ربيعُ اليتامى عِصْمةً للأرامل
وقد زيد فيها وطوّلت^(٤) » . وتروى سيرة ابن هشام كثيراً من
شعر أبي طالب . وإذا كان هذا شأن بيت واحد من بيوت قريش فما
بالنا ببقية البيوت ؟ وإن سيرة ابن هشام لتطفح بكثير من الشعر
القرشي ، وكذلك الطبري وكتاب الأغاني ، فقلما توجد شخصية متألقة
في تاريخ مكة الجاهلي إلا وينسب إليها شعر ، وخاصة من اتصلوا
بالسيرة النبوية ، فأبو جهل بن هشام وأبو سفيان وعمرو بن العاص ونبيه
ابن الحجاج وغيرهم من أشرف قريش ينظمون الشعر ويمجيدونه . وقد
ترجم صاحب الأغاني لآخرهم فقال : إنه من وجوه قريش وذوى النباهة
فيهم^(٥) . ومن ترجم لهم أيضاً مسافر بن أبي عمرو بن أمية وكان سيدياً
جواداً ، وهو أحد أزواد الركب ، وإنما سمو بذلك لأنهم كانوا لا يدعون
غربياً ولا مراً طريق ولا محتاجاً يجتاز بهم إلا أنزلوه وتكفلوا به حتى

(١) انظر سيرة ابن هشام الجزء الأول ص ١٣٥ وكذلك ص ٥٢ .

(٢) ابن هشام ٨/٣ .

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام طبع ليدن ص ٦١ .

(٤) ابن سلام ص ٦٠ . (٥) أغاني ٦٢/١٦ وما بعدها .

يظعن^(١) ، ويعرض أبو الفرج لشعره ، وما كان من مناقضات بينه وبين
عمارة بن الوليد ، وكان هو الآخر شاعراً ، وهو ثاني اثنين أرسلت بهما
قريش إلى النجاشي كي يسلم إليها المسلمين الذين اعتصموا به في الهجرة
الأولى المعروفة^(٢) .

ولا ننمى في حوادث السيرة وهذا الصراع الذي نشب بين الرسول
وأصحابه في المدينة والقرشيين في مكة حتى تلمع شخصيات كثيرة في
تاريخ مكة الأدبي ، فقد أخذ هذا الصراع مظهرين : مظهراً حربياً في
بدر واحد والخندق ، ومظهراً أدبياً في أهاج كانت مكة والمدينة جميعاً
تتقاذفان سهامها ونيرانها . وأهم من كانوا يقذفون هذه السهام والنيران
من مكة الحارث^(٣) بن هشام ، وعمر^(٤) بن العاص ، وهبيرة^(٥) بن أبي
وهب المخزومي ، وضرار^(٦) بن الخطاب وأبو سفيان^(٧) بن الحارث بن
عبد المطلب وعبد الله بن الزبيري ، وهو أهم هؤلاء الشعراء جميعاً ، وهو
القاتل يوم أحد^(٨) :

-
- (١) أغاني طبع دار الكتب ٤٩/٩ .
(٢) نفس المصدر ٥٥/٩ . (٣) ابن هشام ١٩/٣ .
(٤) ابن هشام ١٥١/٣ وكذلك ١٥٤/٣ .
(٥) ابن هشام ١٣٦/٣ وانظر ابن سلام ص ٦٥ حيث يقول : لأنه كان شديد
العداوة لله ورسوله فأخذه الله ودحضه .
(٦) انظر ابن هشام ٥٦/٢ ، ٩٣/٢ ، وكذلك ١٣/٣ ، ١٤٦/٣ ،
١٧٢/٣ ، ١٥٢/٣ .
(٧) ابن سلام ص ٦١ ويقول : له شعر كان يقوله في الجاهلية فسقط ولم يصل
إلينا منه إلا القليل . (٨) ابن سلام ص ٥٨ وابن هشام ١٤٣/٣ .

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا جَزَعَ الخَزَرَجِ من وَقَعِ الأَسَلِ
وما زال يتناقص هو وحسان بن ثابت حتى أتم الله نعمته على
رسوله ، ففتحت مكة ، فأسلم ، ومدح الرسول واعتذر إليه ، ومن قوله
بعد إسلامه ^(١) :

يا رسول الملّيك إن لساني راتقٌ ما ففتقْتُ إذ أنا بُورٌ
وأظن فيما قدمناه ما يدل دلالة واضحة على نشاط الشعر في مكة
أثناء العصر الجاهلي .

ويلاحظ ابن سلام أن قريشاً تزيد في أشعارها ^(٢) ، وهو يشير بذلك
إلى كثرة المنحول فيه . ومن المؤكد أن الشعر كان كل شيء في حياة
القوم الأدبية ، فعلى الرغم من مجلس شيوخ مكة وما يتطلبه من عناية
القرشيين بالخطابة تحت تأثير جدالهم وحوارهم في شئونهم المختلفة ،
فإنهم لم يُعرفوا بخطابة حينئذ ، إنما عُرفوا بالشعر . ونفس حوادث
السيرة لا نجد فيها خطباً ، وإنما نجد شعراً وشعراء مما يدل على أن الشعر
كان هو الفن المألوف عندهم .

ويذكر ابن سلام أن الشعر في مكة كان قليلاً ، ويعمل لذلك
بأنه لم تكن بين أهلها نائرة ^(٣) ، كما كان الشأن بين الأوس والخزرج .

(١) ابن سلام ص ٥٩ وابن هشام ٦١/٤ .

(٢) ابن سلام ص ٦٢ . (٣) ابن سلام ص ٦٥ .

في المدينة مثلاً ، فإن الحرب بين الحيين هناك سَعَرَت القوم ، وكونت منهم شعراء يتبادلون الأهاجي والنقائض . وفقدان مكة للحروب والحزازات بين أهلها في الجاهلية لا يجعلها تفقد الشعر ، ولا يؤخر مرتبتها فيه ، إنما يلون شعرها بلون حياتها ، فمن الطبيعي أن لا يكون هناك هجاء كثير لضعف دواعيه ، ولكن من الطبيعي بعد ذلك أن يتخذ القوم الشعر في التعبير عن روحهم وعواطفهم ، فينباع الشعر مستقرة في نفوسهم استقرارها في نفوس العرب جميعاً .

ومن المهم أن نعرف أن كثيراً من أحكامنا على الحياة الجاهلية ينقصه الدليل الصحيح ، فلم يبق لنا من هذه الحياة إلا رسومٌ وأطلال ، وخاصة فيما ضاد الإسلام وعارضه . وكلنا نعرف أن الإسلام محا الوثنية في الجزيرة محواً وكلّ ما اتصل بها من شعر وقول . ولعلنا لا نخطئ إذا زعمنا أن القرشيين عالجوا في شعرهم الوثني حياتهم الدينية ، فإن العربي من شأنه دائماً أن يعبر عن سلوكه في صراحة وصدق ، وإن قيام مكة على الوثنية في الجزيرة ليؤكد أن أبناءها نظموا شعراً كثيراً في آلهتهم . وأيضاً فإن حربهم اللسانية للرسول لا بد أن تكون قد احتمت على دفاع كثير عن دينهم . وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر^(١) ، فلا بد أن يكونوا قد عبروه بالإسلام . وأكبر الظن أنهم بدأوا هذه الحرب مع حركة التحنف التي ظهرت في مكة

قبيل الإسلام ، فنحن نجد زيد بن عمرو بن نفيل يفارق دين قومه وينظم شعراً يقولونهم فيه على وثنيهم وآلهتهم^(١) ، وأغلب الظن أنهم نقضوا هذا الشعر وعارضوه بشعر آخر نصرؤا فيه آلهتهم ووقروها .

وإذا كانت نصوص هذا الشعر الديني قد انمحت ، فقد بقيت نصوص أخرى غير دينية تدل على أن القوم استخدموا هذه الموهبة الفنية في كل ما اتصل بحياتهم ، وفي نفس الموضوعات التي أثرت عن غيرهم من عرب الجاهلية . فنحن نجد لهم مديحاً^(٢) وغزراً^(٣) وغزلاً^(٤) ورناءً^(٥) وعتاباً^(٦) . وقصيدة قُتَيْلَةَ بنت الحارث في بكاء أخيها النَّضْر وعتاب رسول الله على قتله بعد وقعة بدر ذائعة مشهورة ، وفيها تقول :
 ما كان ضَرَكَ لو مَنَنْتَ ؟ وربما منَّ الفتى وهو المغيظُ المَحْنَقُ
 فالنَّضْرُ أَقْرَبُ من أَسَرَّتْ قَرَابَةً وَأَحَقَّهُمْ إِنْ كَانَ عِتْقُ يُعْتَقُ
 ظَلَّتْ سِوْفُ بَنِي أَبِيهِ تَنْوُسُهُ اللَّهُ أَرْحَمَ هُنَاكَ تُشَقِّقُ
 ويقال : إِنْ رَسُولَ اللَّهِ لَمَّا بَلَغَتْهُ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ قَالَ : « لَوْ بَلَغْتَنِي قَبْلَ

(١) ابن هشام ١/٢٤١ وما بعدها .

(٢) ابن سلام ص ٥٨ وابن هشام ١/١٨٤ (٣) أغاني ٩/٥٥ .

(٤) أغاني ٩/٤٧ وانظر ٩/٤٩ .

(٥) ابن هشام ١/٢٤٧ وكذلك ٣/٢٨ وما بعدها .

(٦) ابن هشام ١/٣٥٤ وما بعدها .

قتله لمننت عليه» (١) . ويدل نسج هذه القصيدة وصدقها في التعبير والإفصاح عن اللوعة على مدى ما بلغته المرأة القرشية في العصر الجاهلي من إحسان للشعر . ووراء قتيلة نجد كثيرات ينسب إليهن شعر كبنات عبد المطلب (٢) ، وهند (٣) بنت عتبة زوج أبي سفيان ، وصفية (٤) بنت مسافر .

ومكة من هذه الناحية تتفوق على المدينة ، فإذا كان ابن سلام قد لاحظ أن الشعراء قليلون في مكة ، وهي ملاحظة تنافس في ضوء ما قدمنا ، فإن الشاعرات كن كثيرات على هذا النحو . والحق أن مكة كان فيها شعر كثير . واستمرت هذه الموجة الحادة من الشعر والشعراء على ما يظهر في عصر صدر الإسلام ، أو بعبارة أخرى في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، واستمرت حين كانت المعارك بين مكة والمدينة ، واستمرت أيضاً بعد الفتح ، فإن مكة أسلمت متأخرة ، ولم تدخل في الإسلام طائعة كما دخلت المدينة . ومن هنا كننا نظن أن استجابتها لأوامر الخلفاء الراشدين ونهيهم عن الهجاء والتشبيب بالنساء أضعف من المدينة . وإن كنا نلاحظ من طرف آخر أن دواعي الهجاء بين مكة والمدينة انتهت ، وأن هذه الدفعة المرة تلاشت ، ومع ذلك فالرواة يروون

(١) ابن هشام ٤٤/٣ . (٢) ابن هشام ١٧٩/١ وما بعدها .

(٣) ابن هشام ٤٠/٣ وكذلك ٧٢/٣ و ٩٧/٣ .

(٤) ابن هشام ٤٢/٣ .

أن ضرار بن الخطاب وعبد الله بن الزبيري « قدما المدينة في عهد عمر بن الخطاب فقصدا أبا أحمد بن جحش الأسدي الضريير ، وكان الناس يجمعون عنده ويتحدثون ، فقالا له : أنيناك لتجمع بيننا وبين حسان بن ثابت ، فإنه كان ينظم في الإسلام ، وكنا ننظم في الكفر ، ونريد أن نسمع منه ويسمع منا ، فأرسل إليه ابن جحش ، فجاءهم وعرض عليه ابن جحش أن يتناشد مع خصميه القديمين ما كانوا ينظمون من شعر قبل فتح مكة ، فقبل حسان ، وبدأ ضرار وعبد الله بن الزبيري ينشدانه ، ويُسمعانه مما كانا يقولان في هجائه وهجاء الأنصار والإسلام ، حتى إذا صار حسان يفور كالرجل خلياه ، وركبأرواحهما ، وانطلقا صوب مكة ، فخرج حسان ، يجر أذياله إلى عمر ، وقص عليه الخبر ، فأرسل في طلبهما ، فردا إليه ، وقال لحسان : أنشد ، فأنشد حسان حتى شفى نفسه ، ثم قال : شأنكما الآن ، إن شئتما فارحلا ، وإن شئتما فابقيا ^(١) . ولعل في هذا الخبر ما يدل على أن مكة لم تنس قديمها في عصر الخلفاء الراشدين ، ونحن نلتقي فيها حينئذ بأبي دهب الجمحي ، وقد ترجم له أبو الفرج في أغانيه . على أننا لا نتقدم في العصر الأموي عصر المغنين والغناء ، حتى نجد مكة تموج موجا بالشعراء .

وكثير من المسكين هاجر إلى المدينة مع الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد الفتح . وهذه هي الهجرة الأولى ، وهناك هجرة ثانية مع

الفتوح الإسلامية في عهد أبي بكر وعمر وعثمان ، ولكن مع ذلك كله استمر لسكة شأنها القديم في الشعر . ومن المعروف أن أكثر الهاشمين والأمويين نزحوا عنها . وبالرغم من ذلك نجد للأولين شاعراً مشهوراً في هذا العصر الأموي وهو الفضل بن العباس اللهي ، كما نجد للآخرين شاعراً مشهوراً هو العرجي حفيد عثمان .

على أنه ينبغي أن نلاحظ أنه إذا كان أكثر هذين البيتين الكبيرين قد هاجر من مكة ، فقد بقيت بيوت أخرى ، ورجع كثير من هاجروا إلى المدينة أو إلى الأمصار الإسلامية . وربما كان أهم بيت بقي في مكة ، أو على الأقل بقي أكثره هو بيت بنى مخزوم ، وكان لا يقل عن البيتين الأولين أهمية في العصر الجاهلي ، ونبع منه في هذا العصر شاعران معروفان هما عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد .

وبجانب ذلك نجد البيوت الأخرى تمدنا بشعراء ممتازين مثل ابن قيس الرقيات وأبي دهبيل الجمحي . ومعنى ذلك أن الحيط الفنى القديم استمر ، وأخذت تتشعب منه في هذا العصر الأموي عصر الغناء والمغنين خيوط وشعب كثيرة .

ونحن نلاحظ من طرف ثان أن مكة إذا كانت قد فقدت في هذا العصر بعض البيوت وكثيراً من الأسر والشخصيات فإنها أخذت تكسب عنصراً جديداً ، لم يكن مفقوداً تماماً قبل ذلك ، ولكنه يُعَدُّ على كل حال عنصراً جديداً ، ونقصد للموالى الذين أخذوا يتعلمون

العربية ، ويحاولون أن يتخذوها لسانهم وأداتهم في التعبير . وكانت مكة في الجاهلية تتجز في رقيق إفريقيا ، وظهر من هذا الرقيق في عصر الرسول والخلفاء الراشدين شاعر حبشي هو عبد بنى الحسحاس . وإذا فالعنصر الأجنبي في الشعر المسكى عُرف قبل الفتح الإسلامية ، ولكن الذى نلاحظه الآن هو اتساع هذا العنصر ، ودخول أجنبى جدد لأعهد الشعر العربى بهم . ونقصد هؤلاء الموالى من الفرس خاصة الذين جلبهم كبارُ الفاتحين من المسكين وغيرهم . وأشهر الموالى فى مكة حينئذ أبو العباس الأعمى وهو السائب بن فروخ مولى بنى الدئل .

وعلى هذا كان أهل مكة جميعاً فى العصر الأموى يصطنعون الشعر ، فهم يتخذونه مادة غنائهم ، وهم يسكبون فيه روحهم ومادة حياتهم . وأخذت مكة تنهض به تحت تأثير الغناء ، فلعلت أسماء وشخصيات كثيرة .

٢

الشعر الغنائى

كل من يعنى بالشعر العربى من أقدم عصوره إلى الآن يلاحظ فيه نوعاً من الشعر يُتَّخَذُ فيه رسوم وتقاليد خاصة من حيث البدء بوصف الأطلال ثم وصف الصحراء والإبل والانتقال من ذلك إلى الموضوع الخاص من مديح وهجاء . وقد شغلت قصيدة المديح الشعراء

منذ زهير إلى العصر الحاضر ، أما قصيدة الهجاء فإنها بلغت الذروة عند جرير والفرزدق والأخطل من شعراء بني أمية فيما يسمى بالنقائض .

وبجانب هاتين القصيدتين الطويلتين المدح والهجاء وما يتصل بهما من عتاب أو رثاء ونحو ذلك توجد مقطوعات قصيرة تُشغلُ بالحب عادة ، وقد تشغل بحماس أو رثاء أو مدح أو هجاء . وأكثر هذه المقطوعات يدل بصورته على أنه لم يُقلْ لينشد في سوق عكاظ وغيرها من أسواق العرب ، وإنما قيل ليفنى ، إما في الحرب وإما في السلم .

وإذن فالشعر العربي يتميز فيه صورتان : صورة غنائية كاملة تفصل بالغناء مباشرة ، وصورة غنائية ناقصة لم يكن الغناء هو الأصل في صنعها وإن كانت قد غُنِّيَتْ فعلا بعض مقطوعاتها . ومن الواجب أن نفرق دائما بين الصورتين فنسمى الأولى غنائية والثانية تقليدية ، لأنها استمرت بصورة واحدة ، وارتبطت بتقاليد كثيرة منذ كان يضعها زهير والنابعة وغيرها من شعراء الجاهلية .

وإن من يرجع إلى نصوص الشعر التي أنشدها ابن هشام في السيرة النبوية لأهل مكة في العصر الجاهلي يلاحظ أن أكثرها من النوع الغنائي التام ، فهي في جملتها مقطوعات ، وهي في جملتها سهلة خفيفة على اللسان والأذن حتى ليقول ابن سلام : « أشعار قرين أشعار فيها لين ، يشكل بعض الإشكال^(١) » . وأكبر الظن أن الإشكال الذي

(١) ابن سلام ص ٦٠ .

يقصد إليه ابن سلام هو أن أشعار قریش لا تجرى على صورة القصيدة التقليدية الطويلة التي عرفت عن شعراء العصر الجاهلي .

وفي رأينا أنه كان ينبغي لابن سلام أن يميز عند العرب وعند شعراء المدن خاصة بين نوعين من الشعر : نوع تقليدي يقوم على العناية الشديدة بفن القصيدة من حيث هي قصيدة فلها مقدمة شرعها أصحاب فن القصيد وهي مقدمة الأطلال وبكاء الديار المشهورة ثم لها بعد ذلك رسومها من حيث وصف الإبل والصحراء والانتهاه أحيانا بالحكم ، ونوع آخر لا تلتزم فيه كل هذه الرسوم والقواعد ، فأصحابه لم يلبغوا من الترف في الزمن ، بحيث يستطيعون أن يعقدوا فنههم كل هذا التقيد ، إنما هم أهل حياة يومية عاجلة ، لا تعطيههم الفرصة لكي يصنعوا القصيدة في حول كامل ، كما كان يصنع زهير في حولياته المعروفة ^(١) . ولنقارن بين حياة المسكين العادي في الجاهلية وحياة رجل البادية ، فالأخير أمامه الفسحة الكافية من الوقت ليصنع قصيدته كما يريد ، لحياته كلها حياة رعي ، وأوقاته كلها ملك له ، أما رجل مكة فتاجر ، تلهيه التجارة عن أداء فروضه الدينية ^(٢) ، فطبيعي أن تلهيه عن أداء الفروض الفنية المرسومة للقصيدة . ومن هنا كان المقروض أن لا ينجح فن القصيد في مكة ، وإنما

(١) البيان والتبيين ١٣/٢ وما بعدها .

(٢) في القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم » .

ينجح فن المقطوعات والأبيات القليلة التي يعبر بها الشاعر عن حادثة تجرى في حياته أو في الحياة الواقعة تحت بصره . وقد وجدت في مكة كما قدمنا بيوتاً للغناء كان يغنى فيها ألقيان من مثل جرادتي عبد الله بن جُدعان ، وقيان الحارث بن النَّضْر ، فإذا قلنا بعد ذلك إن مكة عرفت الشعر الغنائي التام منذ العصر الجاهلي لم نكن مبالغين ، فمن حيث المادة ، وهي المقطوعات القصيرة ، كانت المادة وافرة ، ومن حيث الغناء كان الغناء وافراً أيضاً .

وربما كان من أهم الأدلة ، التي تقطع بما نزعم ، أن هذه المقطوعات المسكية التي يرويها ابن هشام في سيرته تكثر فيها الأوزان الخفيفة من مثل المزج^(١) والمتقارب^(٢) ، بل إننا نجد فيها كثيراً من مجزوات السكامل^(٣) والمزج^(٤) والرجز^(٥) . ولا ريب في أن هذه ظاهرة تتصل بالغناء مباشرة ، إذ من شأن التلحين أن يؤثر في موسيقى الشعر وأن يقصّر فيها ويمد فتم تغيرات وتحرّيات كثيرة . وأيضاً فإن تاريخ الشعر العربي كله يدل على أن الأوزان الخفيفة إنما تشيع تحت تأثير الغناء ، حدث ذلك في العراق أثناء العصر العباسي ، وحدث ذلك في الأندلس أيضاً ، فإذا رأينا بذور هذه الظاهرة واضحة في مكة منذ العصر الجاهلي آمناً بأن

(١) ابن هشام ٣/٣٥ وكذلك ص ٧٢ ، ٨٢ .

(٢) انظر ٣/٤٠ وهذا البحر كثير جداً في شعر السيرة .

(٣) ابن هشام ٣/٤١ . (٤) ابن هشام ٣/٤٢ .

(٥) ابن هشام ٢/١٤٥ .

تأثيرات مشابهة كانت هناك . وهذا إذا لم تصلنا نصوص توضح ما كانت عليه مكة حينئذ ، أما إذا وصلتنا نصوص تؤكد وجود دور للغناء فإن الأمر يختلف ، وأظننا لم ننس بعد هذه الجوقة الكبيرة التي صاحبت جيش مكة في غزوة أحد ، وكانت تقال من بعض نسوة قريش ، فسكن يضربن على الدفوف ، وكانت هند بنت عتبة تغني أثناء هذا الضرب والعزف بمقطوعات مختلفة ، من مثل :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق^(١)

ومعنى ذلك أن مكة عرفت في الجاهلية الشعر الغنائى في السلم والحرب ؛ بل أظننا لا نغلو إذا قلنا إنها لم تكدر تعرف الشعر التقليدى إلا في مواسم الحج وفي سوق عكاظ حين كان ينشد شعراء البادية شعرهم ، وإلا حين اصطدمت بشعراء المدينة في عهد الرسول من مثل حسان بن ثابت وكعب بن مالك . ومع ذلك فإنها لم تثبت لحسان ولا لكعب فيما يظهر ، لسبب بسيط ، وهو أنها لم تكن تحسن هذا النوع من الشعر التقليدى ، إنما كانت تحسن الشعر الغنائى الذى لا يحتاج إلى تقاليد فنية كثيرة ، والذى لا يتعب فيه صاحبه . وربما كان من الأدلة المهمة على أنها كانت تحسنه أنها استطاعت أن تطوِّع لغة الشعر للغناء بحيث يلاحظ في شعرها ابن سلام هذا الين الذى يشير إليه ، والذى دعاه

أن يقول : إن شعر مكة يشكل بعض الإشكال . وأظن أنه لم يعد يشكل علينا هذا اللين الآن ، لأننا فهمنا مصدره وعرفنا علته وسببه . ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على أن مكة ، كانت مُعَدَّة منذ العصر الجاهلي لشيوع الشعر الغنائى فيها ، فهى من هذه الناحية تتقدم المدينة ، كما تتقدم بيئات الشعر العربى الأخرى فى العصر الجاهلى . ونحن نعرف أن أهم الموضوعات التى دار عليها الشعر الغنائى فى العصر الأموى عند عمر بن أبى ربيعة وأصحابه هو الغزل وقصة الحب : حياته ووقائعه وموته . ويظهر أن هذه الظاهرة نفسها قديمة ، بل إن ما طبع غزل ابن أبى ربيعة وأصحابه من حرية وإباحية يظهر أيضا أنه كان معروفا منذ العصر الجاهلى ، فنحن لا نتقدم فى مكة إلى أواخر هذا العصر حتى نجد عبداً أسود نوبيا يشتهر بالشعر ، وكان مولى لبني الحسحاس ، وهم بطن من بني أسد ، ولذلك يسمى عبد بنى الحسحاس واسمه سُحَيْمٌ . وكان يصنع الشعر فى مقطوعات ، أو بعبارة أخرى كان يصنع هذا الشعر الغنائى ، وكانت فيه لُكْنَةٌ أعجمية ، فكان إذا أنشد الشعر يقول أهشنت والله ! . والطريف أنه كان ينظم هذا الشعر فى الغزل المادى المكشوف الذى شاع فيما بعد عند ابن أبى ربيعة وأصحابه . ويقول أبو الفرج : إنه عاش إلى عصر الخلفاء الراشدين ، وقُتِلَ بسبب شهواته وملاذاته وحديثه عن المرأة^(١) . ومعنى ذلك أن الغزل المادى الذى كان أهم موضوعات

(١) أغانى ٢/٢٠ وما بعدها .

الشعر الغنائى فى العصر الأموى وجد عند شاعر قديم ، وقد كان فى صورة
أفرغت الناس ، فهى أشد عنفا من صورة الغزل المادى الذى اشتهر به
ابن أبى ربيعة وأصحابه ، ولذلك رصده الناس وقتلوه .

وليس من ريب فى أن هذا يدل على أن الشعر الغنائى الذى شاع فى
مكة أثناء العصر الأموى له بذور ومقدمات قديمة فيها ، فهو ليس شيئاً
حادثاً أحدثه عمر بن أبى ربيعة وأصحابه ، إنما هو شئ قديم يتصل بالبيئة
منذ العصر الجاهلى وما كان فيها من موسيقى وغناء .

ولا نكاد نتقدم بعد عبد بنى الحسحاس حتى نجد فى أواخر عصر
الخلفاء الراشدين شاعراً مميّزاً يظهر فى مكة ، وهو أبو دَهبل الجُمَحى ،
ويقول أبو الفرج إنه من أشرف قريش ، وكان يحمل الحملات والديات ،
ويعطى الفقراء ، وَيَقْرِى الضيف^(١) ، ويتقدم أبو الفرج فى ترجمته ،
فيروى أشعاره ويقص أخباره .

وما نلم بهذه الترجمة حتى نشعر بتمام المشابهة بين أبى دهبلى
وبين شعراء العصر الأموى من مثل عمر ، فأكثر شعره مقطوعات ،
أريد بها إلى الغناء لا إلى الإنشاد ، وليس فيها هذا الجمود عند الأطلال
وبكاء الديار ، وإنما فيها وصف قصة الحب وما يرتبط بها من عذال
ووشاة وتباريح وآلام ، وفيها بجانب ذلك تصوير لأحداث النساء
ومجالسهن على نحو ما نجد عند ابن أبى ربيعة .

(١) أغاني ١١٦/٧ .

وليس هذا كل ما يميز شعر أبي دهب ، فنحن نجدده يمتاز بنفس الظاهرة القديمة التي أشار إليها ابن سلام ظاهرة اللين والسهولة . وهي طبيعية كما قدمنا ، لأن شعراء قريش في الجاهلية والإسلام جميعاً لم يكونوا يريدون بشعرهم التعبير عن التقاليد الفنية في أروع صورها كما نجد عند أصحاب المعلقات مثلاً ، إنما كانوا يريدون التعبير عن عواطفهم في يسر وسهولة وقرب من مألوف الناس في لغتهم اليومية .

وعاش أبو دهب حتى عصر ابن الزبير ، إذ نرى في شعره مديحاً لابن الأرق الخزومي واليه على اليمين^(١) . ومعنى ذلك أن خيوط الشعر الغنائى في مكة امتدت من الجاهلية إلى العصر الأموى عن طريق عبد بنى الحسحاس وأبي دهب الجمحي . فليس الشعر الغنائى إذن الذى شاع وذاع فيما بعد عملاً مبتكراً من أعمال العصر الأموى ، ولا ظاهرة جديدة منبئة الصلة بالماضى كما كان يتصور بعض الباحثين ، بل هو امتداد واستمرار لظاهرة قديمة .

وكل ما يمكن أن يلاحظ من جديد إنما هو اتساع موجة هذا الشعر اتساعاً شديداً تحت تأثير الغناء والموسيقى التي أصبحت لهو الناس وملء أوقاتهم على نحو ما صورنا ذلك في فصل الغناء . وأيضاً فالشعر الغنائى القديم لم يكن يُعَنَى بهذه الرقُم الموسيقية (musical notes) التي استحدثها المغنون في العصر الأموى والتي سبق أن عرضنا لها

(١) أغاني ١١٤/٧ ، ١٢٨/٧ ، ١٣١/٧ وما بعدها .

١
٩٥
عما نجده منتشرا في صفحات كتاب الأغاني من مثل : ثَقِيلٌ أَوَّلٌ وَثَقِيلٌ
ثانٍ وخفيف ثَقِيلٌ ورَمَلٌ وخفيف رَمَلٌ ، لسبب بسيط ، وهو أن هذه
الرقم ظهرت لأول مرة في العصر الأموي تحت تأثير هذه الحركة النشيطة
التي قام بها الموالى ، فبديهي أن لا يُغْنَى الشعر القديم على ألحانها ، لأنه
سابق لظهورها .

١٢
وإذن فنحن نستطيع أن نميز في تاريخ الشعر الغنائى المسكى بين
عصرين منفصلين : عصر كان يُغْنَى فيه هذا الشعر ولكن لاعلى نظرية
خاصة ، أو على الأقل لم يكن يُغْنَى حسب هذه النظرية الجديدة التي
وضعها المغنون من مثل ابن مِسَجَحَ وابن سُرَيْجَ والغرييض ومن لف
لقهم ، وإن كان يغنى على كل حال بالحن ، ولكنها لم تكن تخضع
لنظرية معينة ، وإنما كانت تخضع لأذواق الغنين حسب أمرجتهم
وميوهم . واستمر هذا العصر من الجاهلية إلى أن كان زمنُ بنى أمية
وعَمِلَ نقلُ الحضارات الأجنبية إلى الحجاز عمله . فترات أضواء عصر
ثانٍ هو عصر الشعر الغنائى المسكى المؤلف على نظرية الغناء التي تنتهى
أسانيدها في كتاب الأغاني إلى معنى العصر الأموي في الحجاز . ومعنى
ذلك أنهم هم الذين أحدثوها من عندهم وتحت تأثير رقى الغناء العربى
في عصرهم .

وهذا العصر الثانى هو عصر النهضة الحقيقية للشعر الغنائى المسكى
وقد لملت فيه شخصيات كثيرة على رأسها ابن أبى ربيعة وابن قيس

الرَّقِيَّاتِ مَنْ كَتَبُوا شَعْرَهُمْ تَحْتَ تَأْثِيرِ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ الْغَنَائِيَّةِ الْجَدِيدَةِ .

وَقَدْ أَخَذَتْ تَتَسَّعُ الْفُرُوقُ بَيْنَ هَذَا الشَّعْرِ الْغَنَائِيِّ الْجَدِيدِ ، وَالشَّعْرِ الْغَنَائِيِّ الْقَدِيمِ . وَلَعَلَّ أَوَّلَ مَا يَلَاظُ مِنْ هَذِهِ الْفُرُوقِ شِدَّةُ الْإِلْتِحَامِ بَيْنَ الْمَغْنِينَ وَالشَّعْرَاءِ ، وَبِذَلِكَ أَصْبَحَ الشَّعْرَاءُ يَعِيشُونَ مَعِيشَةً فَنِيَّةً غَنَائِيَّةً خَالِصَةً . وَلَنْضَرْبِ لِمِثَالِ ابْنِ أَبِي رَيْعَةَ ، فَأَخْبَارُهُ فِي كِتَابِ الْأَغَانِي دَائِمًا تَقِصُّ بِالْمَغْنِينَ وَالْمَغْنِيَّاتِ ، وَكَانَ يُلْزِمُهُ ابْنُ سَرِيحَ^(١) وَالْفَرِيضَ^(٢) يَغْنِيَانِهِ فِي شَعْرِهِ ، وَكَانَ عِنْدَهُ فِي الْبَيْتِ جَارِيتَانِ تَقُومَانِ لَهُ بِمَا يَقُومُ بِهِ ابْنُ سَرِيحَ وَالْفَرِيضَ وَهَما بَغُومٌ وَأَسْمَاءُ^(٣) . وَيُرْوَى أَبُو الْفَرَجِ كَثِيرًا أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَسْتَمَعَ إِلَى بَعْضِ شَعْرِهِ يُغْنِي فِي دَارِ جَمِيلَةٍ^(٤) . وَلَعَلَّ مِنَ الطَّرِيفِ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْسَلَ بِيَعْضِ شَعْرِهِ إِلَى بَعْضِ صَوَاحِبِهِ أَرْسَلَ بِهِ مَعَ الْمَغْنِينَ مِنْ مِثْلِ بُدَيْحِ الْمَلِيحِ^(٥) وَالْفَرِيضِ^(٦) .

وَهَذَا كُلُّهُ مَعْنَاهُ أَنَّ ابْنَ أَبِي رَيْعَةَ حِينَ كَانَ يَصْنَعُ أَشْعَارَهُ كَانَ يَصْنَعُهَا تَحْتَ تَأْثِيرِ هَؤُلَاءِ الْمَغْنِينَ وَالْمَغْنِيَّاتِ ، أَوْ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى تَحْتَ تَأْثِيرِ النَّظَرِيَّةِ الْجَدِيدَةِ لِلْغَنَاءِ . وَلَمْ يَكُنْ هَذَا شَأْنُ عَمَرٍ وَحْدَهُ ، وَإِنَّمَا كَانَ شَأْنُ بَقِيَّةِ الشَّعْرَاءِ الْمُسَكِّينَ مِنْ مِثْلِ ابْنِ قَيْسِ الرَّقِيَّاتِ وَالْعَرَجِيِّ ، فَقَدْ كَانَتْ حَيَاتُهُمْ

(١) انظر أغاني طبع دار الكتب ٢٥٨/١ وما بعدها .

(٢) أغاني ٣٩٥/٢ .

(٣) ١٦٥/١ .

(٤) أغاني ٢٠٦/٨ .

(٥) أغاني ٨٨/١ .

(٦) أغاني ٣٧٦/٢ .

متحضرة ، وكانوا يعيشون للشعر والغناء وهذا الترف الذي أصاب المكيين في العصر الأموي .

ونستطيع بذلك أن نفهم كيف أن عمر لم ينزع عن الغزل ومقطوعاته إلى الشعر التقليدي من مديح أو هجاء ، فقد كان ثرياً ، ولم يكن في حاجة إلى أموال الخلفاء ، وكان يعيش هذه المعيشة الفنية الخالصة التي تقوم على الغناء والموسيقى والشعر ، فبديهي أن لا ينزع عن حكاية عواطفه ، وأن يستغرق الحب شعره وخواطره .

وارجع إلى ديوان ابن أبي ربيعة ، فستجده كله يشغل بالغزل ، وستجد عمر يتيح لهذا الفن تحت تأثير الغناء كل ما يمكن أن يصل إليه من رقة وازدهار . وحقا وجد في مكة من شغلوا أنفسهم بالمديح ، ولكنهم كانوا أقلية ، وكانوا غالباً من الموالى مثل أبي العباس الأعمى الذي كان يتشيع للأمويين ، وقلما وجدنا قرشياً يعني بالمديح سوى ابن قيس الرقيات . على أن هذا المديح كان عارضاً في فنه ، ولذلك كان مديحه أناشيد غنائية ، مما سنعرض له فيما بعد .

إنما المهم أن نلاحظ الآن أن مكة عُنِيَتْ عناية بالغة بالشعر الغنائي في العصر الأموي ، وأن بعض الشعراء أخذ يتخصص في هذا الفن ، لا يتعداه إلى غيره من ضروب الشعر التقليدي . وما للمكيين والشعر التقليدي وما يرتبط به من مديح وهجاء ؟ فقد أصبحوا مترفين ، وأصبحوا ينعمون بألوان وفنون من الحضارة أزلت ما في

نفوسهم من وحشة وقسوة وخصومة وحدة ، وهياتهم لهذه المعيشة الفنية
الخالصة من الشعر والغناء والموسيقى . فطبيعى أن لا يُعَنُوا إلا بالشعر
الغنائى وأن يكون كل حياتهم وكل فنونهم وكل مواهبهم وكل
حواسهم وخواطرهم .

٣

خصائص ومميزات فى الشعر الغنائى

١. غزله من يستعرض الشعر الغنائى عند العرب فى جميع عصوره من
مقطوعات المسكين فى الجاهلية إلى موشحات الأندلسيين وأزجالهم يجد
الحب أهم الموضوعات التى تناولها هذا الشعر . وحقاً تناول موضوعات
أخرى كالحماسة والمديح والفخر والهجاء ، ولكن ليس ذلك هو الغالب
عليه ، إنما الغالب عليه هو النسب والغزل .

ونحن لا نصل فى مكة إلى عصر هذه النظرية الغنائية حتى نجد
أصحاب هذا الشعر الغنائى يكادون يقصرون أنفسهم وشعرهم على
الحب وحكاية حوادثه ووقائعه ، فقد أصبح الغزل الموضوع الأساسى
الذى يعالجه الشاعر الغنائى . وديوان عمر بن أبى ربيعة خير مثال
يصور هذا الجانب ، فليس فيه إلا غزل وتشبيب وتصوير لهذه
العاطفة الإنسانية الخالدة عاطفة الحب .

وليس هذا كل ما يميز الشعر الغنائى عند عمر وأصحابه ممن عاشوا فى

هذا العصر ، عصر النظرية الغنائية ، فمن أهم ما يميزه أن فكرة القصيدة كادت تختفي منه إلا قليلا ، لسبب بسيط ، وهو أن الشاعر لم يكن يريد أن يصنع شعراً فحسب ، وإنما كان يريد أن يصنع شعراً يُغنى ، ومن طبيعة الغناء أنه لا يحتاج إلى قصائد طويلة ، فحسبُ المغنى أن يغنى طائفة قليلة من الأبيات يُحسِنُ تنعيمها وتلحينها . واشتهر ابن محرز بأنه أول من غنى بزُوجٍ من الشعر ، ثم اقتدى به المغنون ^(١) .

وما من شك في أن هذا الذوق كان له تأثيره على الشعراء فلم تعد هناك حاجة لكي ينظموا قصائد ، فالمغنون لا يغنون قصائد ، وإنما يغنون مقطوعات ، ثم هم يكتفون من المقطوعات بالأبيات القليلة ، بل بالبيتين ، فحسب الشاعر إذن أن يصنع البيتين والثلاث .

ومع ذلك فقد تطول المقطوعة عنده ، واسكنها على كل حال لا تصبح قصيدة بالمعنى المألوف في الشعر التقليدي عند زهير والناطقة في العصر الجاهلي أو عند جرير والفرزدق في العصر الأموي ، وإنما تصبح مقطوعة طويلة إن صح هذا التعبير . وهي مقطوعة تبدأ بالحب وتنتهى بالحب .

ليست المقطوعة الغنائية ، وإن طالت وأصبحت قصيدة ، متنوعة الموضوعات كالقصائد التقليدية ، بل إن المقدمة المعروفة في القصائد التقليدية ، مقدمة الأطلال والديار نجدتها تختفي في المقطوعة الغنائية وفي

(١) أغاني ١/ ٣٢٩ .

القصيدة الغنائية لسبب بسيط ، وهو أن حياة أصحاب هذه القصيدة لم تكن حياة تنقل في البادية ، إنما كانت حياة استقرار في المدينة ، فلم تعد هناك حاجة عند الشاعر ولا عند من يخاطبهم لكي يبكي لهم ديار حبيبته ، ويصف أطلالها وما يجوس خلالها من حُرِّ الوحش .

ومن هنا اختفت المقدمة التقليدية ، مقدمة بكاء الأطلال والديار من الشعر الغنائى ، وأصبح هذا الشعر لا يعالجها إلا على سبيل الفكاهة ، وفي الحين البعيد بعد الحين . فقد أصبح الشعرُ شعرَ مدن واستقرار ، وأصبح الشاعر لا يتناول فيه حوادث ماضية مع بعض أحيائه اللاتي تركن في بعض المراعى ، ثم عاد فلم يجدهن ، وإنما يتناول حوادث حاضرة كانت تحدث له مع صواحيبه في المدينة أو في ضواحيها ، وهو لذلك يمكن أن يسمى شعراً يومياً ؛ فقيه يقص الشاعر حوادثه اليومية مع من شغفن قلبه حباً ، وما وقع له معهن من وقائع ، وما دار بينه وبينهن من أحداث .

وقوام هذه الأحاديث وصف الحب نفسه ولواعجه وآلامه وما يرصد الحبين من عُدَّال ووشاة ، وهو وصف صريح ، فيه مادية ثقل وتكثر حسب الشاعر ، وحسب السيدة التي يفتزل بها ، وماذا تريد من شعراء متحضرين سادت في مجتمعاتهم ضروب من الحرية ؟ إنهم لا بد أن يفصحوا في صراحة عن خلجات قلوبهم ، وكل ما ينطوى في أفئدتهم ، أو يرتفع في حواسهم .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم لماذا كان طابع الشعر الغنائى عند
عمر بن أبى ربيعة وأصحابه طابعاً مادياً مكشوفاً . فهم شباب مترف أترفته
الحضارة الأجنبية التى غرق فيها إلى آذانه ، وأترفت ذوقه وشعوره ،
كما أترفت ذوق الفتيات المسكيات وشعورهن ، فانطبع المجتمع بطوابع
من الحرية التى نجدها دائماً فى المجتمعات المتقدمة . وينبغى أن نفرق
دائماً بين الحرية وبين الفساد الخلقى ، فمجتمع مكة لهذا العصر عصر
النظرية الغنائية أو العصر الأموى كانت تسوده ضروب من الحرية ،
ولكن لم تكن تسوده ضروب التحلل الخلقى كما قد يتراءى لمن يقرأ
أخبار عمر بن أبى ربيعة وما نسجه خيال الرواة من مبالغات .

ومهما يكن فقد دار هذا الغزل أو هذا الشعر الغنائى حول تصوير
الحب فى صراحة وفى حرية ، فالشعراء يصورون حياتهم الفارغة إلا من
هذا الحب وما يجدون فيها من وَصَبٍ وعذاب لا يتكلفون حشمة ، ولا
يصطنعون ضرباً من ضروب الوقار .

وينبغى أن نلاحظ أن هذا المجتمع المسكى حينئذ كان مليئاً بالجوارى
الأحبيبات ، وكان الشعراء يتغزلون فيهن ، فطبيعى أن لا يتكلفوا حشمة
ولا يصطنعوا وقاراً حين يقعون فى غرام بعضهن ، وحين يلتقون بهن
فى دور الفناء أو فى دور الرقيق .

ونستطيع أن نلخص حياة المسكين حينئذ بأنها شباب مترف ،
وجوار أجنبيات من كل جنس وكل لون ، وحضارة وثرأ . وهذا كله

أعد إعداداً لهذا الغزل الصريح الذي تحولت بعض جوانبه إلى ما يمكن أن نسميه غزلاً مكشوفاً أو غزلاً إباحياً ، فالحياة المتحضرة هي نفسها الحياة المتحضرة في كل أمة وفي كل مدينة .

وإذا تركنا الموضوع الذي عالج هذا الشعر الغنائى إلى لغته لاحظنا أنه لا يساق في عبارة ضخمة غير مألوقة ، وإنما يساق في عبارة عادية . وقرأ في ديوان عمر أو في ديوان ابن قيس الرقيات فإنك تجد لغة قريبة منك كأنما كتبت بالأمس ، فليس فيها صعوبة ولا غرابة ، ولا تكلف للفظ ولا لعبارة . وهذا من أهم ما يميز الشعر الغنائى في جميع عصوره ، فهو شعر لم يكتب لطبقة أرستقراطية في الأدب ، وإنما كتبت للشعب وللعامه ، ومن أجل ذلك لا يعدل صاحبه إلى لغة الأدب الرفيعة ، وإنما ينطق مع اللغة الشعبية ، فهو أدب شعبي إن صح هذا التعبير .

واستعرض النصوص المختلفة التي يروي أبو الفرج أنها ألّفت في مكة أثناء العصر الأموى ، فإنك تجدها دائماً خفيفة ، فالشاعر كان يتخذ لغته غالباً من الحديث الشعبي حتى يخاطب القلوب مباشرة وكأنه كان يريد بشعره غاية شعبية ، أو بعبارة أخرى كان يريد أن تحمله أفواه الجماهير وأن تقبله آذانهم ، وأن يدور في مجالسهم وأحاديثهم ، لأنه من جهة قريب منهم في لغته ، ثم هو من جهة أخرى مصوّر لحياتهم اليومية وحياة شعرائهم التي تجري تحت أعينهم ، فهو كالمرآة الصادقة ، يستبين فيها المسكى تقاسيم عواطفه ووجداناته .

ولا نعجب بعد ذلك إذا رأينا ابن سَلام يلاحظ على الشعر المكي في الجاهلية لِينًا ، فتلك صفة استمرت فيه من الجاهلية إلى العصر الأموي ، عصر عمر بن أبي ربيعة وأصحابه ، لسبب بسيط ، وهو أن هذا الشعر كان شعر مدينة اتصلت قديما بالغناء ، وأريد لشعرها أن يُغَنَّى وأن تحمله أفواه الناس الذين كانوا يعيشون مع الشعراء هناك . وما من شك في أن هذه الظاهرة ، ظاهرة اللين ، أخذت تتسع ، أو قل أخذ سلطانها يتسع بعد العصر الجاهلي ، بحكم هذا التطور الذي أصاب مكة تحت تأثير العناصر الأجنبية التي ملأت شعابها ودورها . وبون بعيد بين مجتمع مكة في الجاهلية ومجتمعها في العصر الأموي ، فقد غلغت عليه في العصر الأخير العناصر الأجنبية من فارسية ورومية وأخذ يُطَبَّعُ بطوابع غريبة عنه . وبديهي أن الذين كانوا يعيشون في مكة حينئذ لم يكونوا يحسنون من العربية ما كان يحسنه أسلافهم القدماء ، فقد تحضروا واختلطوا بموال من أم مختلفة ، وعاشروهم ، وعاشوا معهم في دورهم وقصورهم . وطبيعة الحياة اللغوية وما يحدث فيها عادة تحت تأثير مثل هذه الظروف ، تجعلنا نجزم بأن لغة المكيين تطورت حينئذ ، وأنها اتخذت سُبلًا مختلفة إلى السهولة والبعد عن الغرابة .

ولعل هذا ما جعل اللغويين ينفرون من الاستشهاد بأشعار المكيين من مثل عمر وابن قيس الرقيات ، فقد كانوا لا يؤثّقونهم ،

ولا يعدونهم فصحاء^(١) ! لهذا الاختلاط بالأعاجم الذى صاروا إليه .
وليس من شك فى أن هذا الشعر الغنائى الذى كان يريد أصحابه لجمعهم
أن يحمله وأن تدور به ألسنته وتقبله آذانه كان يُصنَع بحيث يلائم
هذا المجتمع الجديد وما فيه من عناصر أجنبية . وأظن أننا لم ننس
ما قلناه فى الفصل السابق من أن الذين نهضوا بالنظرية الغنائية عند
العرب كانوا من الأجانب مثل ابن مسجح وابن محرز وابن سريج
والغريص ، فطبيعى أن يؤلف لهم عمر وأصحابه الشعر الذى يفتنون فيه من
لغة سهلة دانية منهم ، يستطيعون أن يفهموها فى يسر وبدون مشقة .
ومعنى ذلك أن عوامل كثيرة تضافرت على أن تصبح لغة
الشعر الغنائى المكي فى العصر الأموى لغة قريبة من حديث الناس
المألوف ، فيها لين ، وفيها عذوبة ورقة ، وفيها هذه الشفافية لا عن الفكر
الذى تؤديه بل عن القلوب نفسها التى تعبر عنها . فقد رفع الحجاب بين اللغة
والقلوب التى تؤدى عنها من جهة ، كما رفع الحجاب بين هذه اللغة
وبين القلوب التى تخاطبها . فهى لغة من محيطهم ، محيط أحاديثهم
الشفوية ومحيط أحداثهم ووقائعهم اليومية . ومن هنا كنا نجد متعة لا تقدر
فى قراءة هذا الشعر الغنائى المكي ، إذ يعبر عن كل ما فى نفس صاحبه
تعبيراً صافياً فيه واقعية إلى أقصى حد ممكن ، وفيه قرب من قصة القلب
الإنسانى العام أيضاً إلى أقصى حد ممكن .

(١) أغاني ٥ / ٨٨ .

وإذا انتقلنا إلى موسيقى هذا الشعر ، لاحظنا فيها أيضاً ملاحظتنا في لغته ، فهي موسيقى شفاقة لا تحجب شيئاً مما وراءها ، بل إنها تأتي لتكمل التعبير مع المعاني التي تحملها ، وهي موسيقى شعراء متحضرين قد أترف ذوقهم وأترف شعورهم ، ولذلك لا نحس فيها بشذوذ في نغمة ولا بخدوش في نبرة .

وأصبح المثل الأعلى عند هؤلاء الشعراء أن تكون أوزانهم سهلة خفيفة حتى تتلاءم وهذا الغناء الجديد وما يُطوى فيه من ألحان ، وكان الناس يستهويهم الغناء الخفيف ، وقلما أعجبوا بالغناء الكامل القام . واشتهر ابن سريج أهم المغنين في مكة بأنه يحسن هذا الضرب من الغناء ^(١) إحساناً شديداً ، فإذا عرفنا أن ابن سريج كان يلزم عمر بن أبي ربيعة ، يلحن له شعره ويغنيه عرفنا إلى أي حد كان له أثر في نغم شعره . ويقول أبو الفرج : إن ابن سريج كان يميل في غنائه إلى الأرمال والأهراج ^(٢) . وليس من شك في أن هذا هو السبب الصحيح في أن هذين الوزنين اللذين يندمجان اندماجاً تاماً في هذه الألحان وهما الرمل والمزج يكثران في ديوان عمر كثرة مفرطة ، كما تكثر الأوزان الخفيفة من مثل المتقارب والمديد والوافر والخفيف والرجز . وكل ذلك ليلائم بين شعره والمغنين من حوله وما يطلبونه لتأجينه ، ولم يكن ابن

(١) أغاني ٦٨/١ .

(٢) أغاني ٢٧٦/١ وانظر ٢١٩/٤ وكذلك ٢٨٣/٦ .

سريع وحده الذى يطلب الغناء الخفيف ، فقد كان الغرييض مثله ^(١) .
وإذن فالمغنيان الكبيران اللذان لازما عمر وغنى له شعره ولحناء كانا
يميلان إلى الغناء الخفيف ، فلا عجب إذا وجدنا ديوانه بعد ذلك يمتاز
بظاهرة الموسيقى الخفيفة والأوزان السهلة القريبة .

وليس هذا كل ما يلاحظ من تأثير المغنين والغناء على الشعر
والشعراء فى هذا العصر ، فنحن نظن ظناً أن الشعر حدث فيه تعديلات
كثيرة فى أوزانه تحت تأثير نظرية الغناء الجديدة . ولنتصور الآن أن
الملحنين عندنا والمغنين يسعون جادين إلى إحداث نظرية غنائية جديدة
فيها أثر للألحان الأجنبية ، أليس ذلك يتطلب من الشعراء جهداً حتى
يلائموا بين أوزان شعرهم وهذه النظرية الجديدة ؟ وأقصر ما فى المسألة
وأقلها خطراً أن المغنين من شأنهم أن يمدوا فى حروف بعض التفعيلات
أو يهمسوا ، وهذا من شأنه أن يحدث تغييراً طفيفاً أو كثيراً فى موسيقى
المقطوعة التى يغنونها ، وما دام الشعراء كانوا يعيشون معهم مختلطين
ممتزجين كما قدمنا ، فلا بد أنهم كانوا حين يلاحظون ذلك يأتون لهم
بمقطوعات جديدة تتلاءم وما يريدون من مدّ وهمس أو تطويل وحذف .
وقد وضع الخليل بن أحمد فى عروضه اسمين لمثل هذه التغييرات هما :
الزحاف والعلل ، وما نشك فى أن هذه الزحافات والعلل إنما تمت تحت
تأثير ضروب من الغناء فى الجاهلية والإسلام جميعاً ، غير أنها اتسعت الآن

بحكم هؤلاء المغنين من الأجانب ونظريتهم الغنائية الجديدة .

ولم يكتف الشعراء بهذه التغييرات الداخلية في الأوزان ، بل اتجهوا إلى عمل آخر يتضح في شعر عمر وغيره من المكين هذا العصر ، وهو الحذف في تفاعيل الوزن ؛ ومن هنا كثرت المجزوءات لا في الأوزان الطويلة المعقدة فحسب ، بل أيضا في الأوزان الخفيفة السهلة من مثل الرجز والخفيف والمديد والرمل والمتقارب والمزج ، فكل هذه الأوزان نجد مجزوءاتها منبثة في شعر المكين أثناء العصر الأموي .

وتمّ ذلك كله تحت تأثير الغناء وهذا الالتحام الشديد بين المغنين والشعراء من جهة ، ثم بين الغناء والشعر نفسه من جهة أخرى . وليست لدينا معلومات واضحة عن مدى معرفة عمر وابن قيس الرقيات والقرّاجي وأضرابهم لنظرية الغناء التي عاصرتهم ، ولكن على كل حال هذه المعرفة ليست ضرورية ، فيكفي أن يوجههم المغنون لما يريدون . ومع ذلك فنحن نجد من معاصريهم شاعراً يسمى الدارمي يقول أبو الفرج عنه : إن له أصواتا يسيرة ، وقد روى له صوتا من المائة المختارة لهرّون الرشيد وهو قوله :

أفّق يا دارمي فقد بليتما وإنك سوف توشك أن تموتا
أراك تزيد عشقا كل يوم إذا ما قلت إنك قد برّبتا^(١)

(١) أغاني ٤٤/٣ وما بعدها .

والصوت من وزن الوافر . وليس من شك في أن الدارحى هذا يُعَدُّ مثلاً طريفاً للشعراء المسكينين ومدى تأثرهم بالغناء الجديد ، فهو يسعى إلى تعلمه ، كي ينظم شعره حسب ما يريد من ألحان ، أو كي يقع من المغنين في عصره موقعاً حسناً فيغنوه ، ويتيح له ما يريدون من ألحان وأنغام .

وعلى هذا النحو كان أصحاب الشعر الغنائى يجددون في أوزانهم تحت تأثير النظرية الجديدة للغناء ، وقد رأوا أن يختاروا للمغنين أوزاناً أكثر بساطة وأكثر ألفة ، فعمدوا إلى الأوزان السهلة الخفيفة ، ولم يكتفوا بذلك بل غيروا في مدِّ حركاتها وتقصيرها عن طريق الزحافات والعلل ، ولم يكتفوا بذلك أيضاً ، بل ذهبوا يجزّون فيها و يعدّلون حتى تحمل كل ما يريد المغنون لها من إيقاعات وأنغام وألحان .

٤

فتنة المسكينين بالشعر والغناء

إذا قرأنا في كتاب الأغاني الأخبار التى يسوقها عن المسكينين في هذا العصر شعرنا كأنما كانت هناك خيوط محكمة تصل بين قلوبهم جميعاً وبين قلوب شعرائهم الذين انطلق المغنون يغنون فى أشعارهم ، ويخيل إلى الإنسان كأنما أصبح الشعر الغنائى شُغْلَ الناس الشاغل ، فهم يملأون به أفواههم وأسماعهم وأوقاتهم ، يشترك فى ذلك الرجل ، والمرأة ، والغنى ، والفقير ، والحر ، والمولى ، والعابث المستهتر ، والعايد الورع . فقد تحولت مكة إلى شعر وغناء ، واحتدّت الموجة فشملت النساك والفقهاء

من أمثال ابن عباس وعطاء بن أبي رباح وابن جُرَيْج . قال أبو الفرج :
 « بينا ابن عباس في المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من
 الخوارج يسألونه إذ أقبل عمر بن أبي ريعة في ثوبين مصبوغين مُوردين
 أو مُمَصَّرِينَ ، حتى دخل وجلس ، فأقبل عليه ابن عباس ، فقال :
 أنشدنا ، فأنشده :

أمن آل نعم أنت غاد فُمُبَكِّرُ غداة غدٍ أم راح فَمُهَجِّرُ
 حتى أتى على آخرها . فأقبل عليه نافع بن الأزرق ، فقال : الله
 يا ابن عباس ! إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصي البلاد ، نسألك
 عن الحلال والحرام فتتناقل عنا ، ويأتيك غلام مُتَرَفٍ من مترف
 قریش ، فينشدك :

رأت رجلاً ما إذا الشمس عارضت فيَخْزِي وأما بالعشي فيخْصِرُ
 فقال ابن عباس : ليس هكذا قال ، قال : فكيف قال ؟ فقال :
 قال :

رأت رجلاً ما إذا الشمس عارضت فيَضْحِي وأما بالعشي فيخْصِرُ^(١)
 فقال ابن الأزرق : ما أراك إلا وقد حفظت البيت ! قال : أجل ،
 وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها ، قال : فإني أشاء ،
 فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها ... ثم أقبل على عمر بن أبي ريعة ،
 فقال أنشد ، فأنشده :

(١) يضحى : يظهر للشمس ، يخلص : يبرد .

تَشَطُّ قَدًّا دَارُ جِيرَانِنَا وللدَّارُ بعدَ غَدٍ أبعدُ
 وكان ابن عباس بعد ذلك كثيرا ما يقول : هل أحدث هذا المغيرى
 شيئا بعدنا ^(١) . وإذا كان ابن عباس مع جلاله ووقاره ومجلسه في
 الدرس بين سائله من فقاء العراق وفقهاء الخوارج يتركمهم ليستمع إلى
 ابن أبي ربيعة وما أحدث في قصّة الحب المسكى ، فغيره من أهل مكة
 كان أشد إعجابا بابن أبي ربيعة وزملائه من أصحاب الشعر الغنائى بل
 أشد فتنة وسحرا .

ويظن الإنسان أنه لم يعد في مكة إلا هذا الشعر يتناقله الناس
 ويعنى فيه المغنون والمغنيات ، وكان من عبّادهم وفقّاهم من إذا سمعه
 أخذ يرقص ^(٢) . واستمع عطاء بن أبي رباح يوما إلى شيء من هذا
 الشعر فحلف ألا يكلم أحدا بقية يومه إلا به ^(٣) ، وكان ابن جريج مثل
 أستاذه يفتن به فتنة شديدة ^(٤) .

وعلى هذا النحو كان ابن عباس وغيره من الفقهاء يروون هذا الشعر
 الغنائى فى المسجد الحرام ويُنشدونه ويستشدون أصحابه وكان غيرهم من
 المسكين يرويه فى الطرقات والمنعطفات وفى شعاب مكة وبطاحها وفى
 ضواحيها ومتنزهاتها إذ لم يكن للقوم من لهو يلهم به سوى الغناء وهذا
 الشعر الذى كان يصاحبه ، والذى كان يقص قصصا بديعا رواية الحب

(٢) أغانى ٣١٦/١ وانظر ٢٩٠/١ .

(٤) أغانى ٣١٦/١ .

(١) أغانى ٧٢/١ .

(٣) أغانى ٢٥٧/١ .

المسكى التى كانت تتمثل فصولها تحت أعينهم .

وكانت الطريقة التى يحمل بها هذا الشعر إلى الناس فى مكة طريقة محبة إلى نفوسهم ، ألم تكن الغناء الذى كانوا يفتنون به هو الآخر فتنه بعيدة ؟ . وهكذا أخذ ينشر هذا الشعر الغنائى الفتيمة حوله بما يحمل من معانيه القريية التى كأنها انتزعت من قلوب المسكين جميعاً ، ثم بما يحمله معه من هذه الألحان التى كان يصبه فيها المغنون صباً ، فتبدو للناس عارية هذه الفتنة الفنية .

وإننا لنزعم أن المسكين عاشوا حينئذ معيشة كلها شعر وغناء ، بل قل كلها طرب وموسيقى ، وكانوا فى هذا العصر يقولون « إذا أعجزك أن تطرب القرشى ، فغته غناء ابن سريج فى شعر عمر بن أبى ربيعة فإنك ترفسه ^(١) » . وهكذا كانت مكة فى عصر ابن ربيعة كلها رقص وطرب وغناء .

واندفع فى هذا الطرب الرجال والنساء ، فكانت هناك الثريا صاحبة عمر بن أبى ربيعة ، وكانت تعجب به وبشعره ، وكان فى بيتها من موالها يحى قليل والغريض وشمسة ، وكانوا جميعاً يغنونها فى شعر عمر فيها ، فهى تعجب بالشعر من جهة ، وهى تصبح موضوعاً له من جهة أخرى .

(١) أغاني ١/٢٨٤ .

وكان القرشيون يعرفون لعمر وشعره هذا التأثير في الثريا وغيرها من نساء مكة . حدثت ظبية مولانها فاطمة بنت عمر بن مصعب أنها مرت بجدها عبد الله بن مصعب وهي داخلة منزله وهو بفنائها ، ومعها دفتر فقال لها : ما هذا معك ؟ ودعاها ، فجاءته ، وقالت له : شعر عمر ابن أبي ربيعة ، فقال : « ويحك تدخلين على النساء بشعر عمر بن أبي ربيعة ! إن شعره لموقعا من القلوب ومدخلا لطيفا ، لو كان شعر يَسَحَّرُ لكان هو ^(١) » .

ولعل مما يدل على فطنة النساء بهذا الشعر الغنائي أن نجدهن لا يتحررن من أن يُذكرن فيه وأن يتغنى الشعراء بأسمائهن ، ويعرضوا لجمالهن وسحرهن . ومن هنا تردد اسم الثريا في شعر عمر كما تردد اسم زينب بنت موسى الجمحية ، وغيرها من شريقات قریش . وكأنما كن يتخذن من هذا الغزل الغنائي ما تتخذه المرأة من الصحافة الحديثة ، فهن يعلنن عن أسمائهن فيه ويتخذن من الشعراء ما تتخذه المرأة الحديثة من مصوِّرى الصحف ، وكن يستبقن إلى هذا استبقا . ولم تشترك فيه المكيات المقيّات وحدهن ، بل اشترك فيه المكيات اللائى هاجر أبائهن إلى المدينة أو إلى دمشق ، فكانت السيدة سكينه بنت الحسين تطلبه ^(٢) ، وكذلك كانت عائشة بنت طلحة ^(٣) ، بل إننا نجد أم محمد

(١) أغاني ١ / ٧٨ .

(٢) أغاني ١ / ١٠٥ وكذلك ١٦١ / ١ وما بعدها .

(٣) أغاني ١ / ٢٠١ .

بنت مروان بن الحكم تحج ، فترسل إلى عمر بن أبي ربيعة ألف دينار
كي يتغزل بها^(١) ، وحجت أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك ،
فطلبت إلى الشعراء أن ينظموا فيها ، فبعضهم تشجع وتغزل بها ، وبعضهم
جبن ، واكتفى بالنظم في جواربها^(٢) .

وإن في هذا ما يدل إلى أي حد كان يفتتن النساء بهذا الشعر
الغنائي ، فكل منهن تريد أن تظهر في مرآته الصافية ، إذ كانت هذه
المرأة تلعب في أيدي المغنين والمغنيات لمعانا شديدا قويًا له بريقه المؤثر على
نفوس الرجال وقلوبهم . ولم يكن النساء يجدن في هذا عيبا ولا ما يشبه
العيب ، بل كن يجدن فيه شرفا ، فالنساء دائما هن النساء ، يحببن الثناء
على حسنهن والتغنى بمجاليهن .

وانساق المسكيون جميعا يصفقون لهذا الشعر الذي يُغنى ، والذي
يطربون له أي طرب ، فهو كل بهجتهم في مدينتهم وكل مسرتهم في
حياتهم . وانساق معهم الفقهاء والعُباد على ما قدمنا ، بل إننا نجد منهم
من يسام في هذا الشعر ، فقد كان هناك ناسك من نساك مكة وقرأتها
يسمى عبد الرحمن بن أبي عمار الجُشَمِيّ ، وكان يلقب بالقَسَّ لعبادته ،
فتصادف أن اشترى سلامة نبيل من نبلاء مكة يسمى سُهَيْل بن
عبد الرحمن ، وأحضرها معه من المدينة ، وأخذت تغنى في داره ، فسمعها

(١) أغاني ١٦٦/١ .

(٢) أغاني طبع بولاق ٤٩/١١ .

الْقَسُّ عَلَى غَيْرِ عَمَدٍ مِنْهُ ، فَبَلَغَ غَنَاؤُهَا مِنْهُ كُلَّ مَبْلَغٍ ، وَمَا لَيْتَ أَنْ شُفِّفَ
بِهَا وَشُهِرَ ، فَغَلَبَ لِقَبِّهِ عَلَيْهَا ، وَسَمِيَتْ سَلَامَةُ الْقَسِّ ، وَفِيهَا يَقُولُ ^(١) :

سَلَامٌ هَلْ لِي مِنْكُمْ نَاصِرٌ أَمْ هَلْ لِقَلْبِي عَنْكُمْ زَاجِرٌ
قَدْ سَمِعَ النَّاسُ بَوَجْدِي بِكُمْ فَهُمْ اللَّائِمُ وَالْعَاذِرُ

وَأَخَذَتْ أَرْجَاءُ مَكَّةَ تَرُدُّ هَذِهِ الْقِصَّةَ الطَّرِيفَةَ وَتَرُدُّ مَا يَقُولُهُ
فِيهَا الْقَسُّ ، وَهِيَ مُشْفَقَةٌ عَلَيْهِ ؟ وَلَسْكَنَ مَاذَا تَسْتَطِيعُ مَكَّةَ ، وَسَلَامَةُ
لَيْسَتْ حُرَّةً ، وَفِي مَلِكٍ نَبِيلٍ مِنْ نَبِلَائِهَا . وَسَعَرَتْ هَذِهِ الْحَالُ الْقَسُّ
فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِفْلَاتًا مِنْهَا ، بَلْ لَقَدْ اشْتَغَلَ قَلْبُهُ نَارًا ، وَامْتَلَأَ فُؤَادُهُ حُزْنًا
وَكَمَدًا ، فَذَهَبَ يَقُولُ ^(٢) :

سَلَامٌ وَيْحَكَ هَلْ تُخَيِّينَ مِنْ مَاتَا أَوْ تَرْجَعِينَ عَلَى الْمَحْزُونِ مَا فَاتَا
وَلَمْ يَلْبَثْ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنْ أَرْسَلَ إِلَى سَلَامَةَ يَشْتَرِيهَا مِنْ
مَوْلَاهَا ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنْعَمَ بِدُونِهِ ، وَلَا اسْتَطَاعَ أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَبْقَوْهَا
لصاحبهم ، فَقَوْلِي أَسْفَا يَكَادُ يَمَيِّزُ حُسْرَةَ وَلَوْعَةٍ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَّا
الشَّعْرُ يَنْفُثُ فِيهِ حُرْقَ قَلْبِهِ وَلَوْاعِجَ فُؤَادِهِ ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ ^(٣) :

أَلَا قُلْ لِهَذَا الْقَلْبِ هَلْ أَنْتَ مُبْصِرٌ وَهَلْ أَنْتَ عَنْ سَلَامَةِ الْيَوْمِ مُقْصِرٌ
أَلَا لَيْتَ أَنِّي حِينَ صَارَتْ بِهَا النَّوَى جَلِيسٌ لِسَلَمَى حَيْثُ مَا عَجَّ مِنْ هَرَى

(١) انظر الأغاني ٣٣٤/٨ وما بعدها .

(٢) أغاني ٣٣٦/٨ .

(٣) أغاني ٣٣٩/٨ .

ويقول أبو الفرج : إن للقس أشعاراً كثيرة يطول ذكرها^(١) .
وليس من ريب في أن هذه الأشعار كانت تروّع المكيين روعة شديدة ،
فهي من الشعر الغنائى الذى يفتنون به ، وهى لعابدهم القس المشهور .
وعلى هذا النحو كان عباد مكة لا يعجبون بالشعر الغنائى فحسب ،
بل كانوا يساهمون فيه ، ويشتركون في صنع مقطوعاته ، فهو الشعر الذى
ينشر الفتنة والسحر من حولهم ، وهو الشعر الذى يطلبه الرجال والنساء
والأشراف والشرىفات ، وهو الشعر الذى يقنيه ابن سُرَيْج والغريص
وابن مسَجَح ومن لف لفهم على آلائهم الموسيقية . وكأنما كان أهل مكة
جميعاً لا يملكون إلا أن يجروا وراء هؤلاء العُزَّاف يستمعون في نشوة
إلى أغانيهم ، التى تفيض سحراً وجمالاً ، وتذوب رقة وعذوبة .

٥

الشعر الغنائى على كل لسانه في الإسلام

لعل من أم ما يميز العرب في مختلف عصورهم أنهم أمة شاعرة تُعنى
بالشعر وروايته وحفظه ، وجاء الإسلام وليس لهم رباط مقدس يربطهم
إلا ما يصنعه شعراؤهم وينشدونه أو يغنونه من قصائد ومقطوعات
تردّد في كل مكان من الجزيرة العربية . وقد أخذ سلطان هذا الشعر
على نفوسهم يضعف بنزول القرآن الكريم على رسول رب العالمين ،

(١) أغاني ٨/ ٣٣٦ .

وزاد في ذلك أنهم شُغِلوا في صدر الإسلام بالجهاد والفتوح ، ولكن لا نكاد نتقدم بعد ذلك حتى نجدهم يهدأون ويستقرون ويعودون إلى الشعر سيرتهم الأولى ، وكأنهم كانوا يشعرون أنه الحافظ لهم من فنائهم . وأخذت كل قبيلة تقدم شعراءها وتُهدى شعرهم إلى القبائل الأخرى إما مديحاً أو هجاء ، ودارت هذه المعارك من الشعر التقليدي في إقليم العراق ، حيث كان جرير والفرزدق والأخطل يترامون بسهام الهجاء كما كانوا يهدون أزهارهم وباقاتهم من المديح إلى الأمراء والخلفاء . بينما شغلت الحجاز في مكة وغيرها من الحواضر بهذا الشعر الغنائي الذي وصفناه ، فقد انكب الناس عليه انكباباً ، وكاد ألا يبقى فيهم بقية لهجاء ومديح ، فقد شغفوا بالقصة الكبرى ، قصة القلب الإنساني ، ولم يكادوا ينظرون في القصص المحلية الصغرى ، قصص العرب وحروبهم في الجاهلية على نحو ما نجد في نقائض جرير والفرزدق .

وقد يكون من الطريف أن نعرف أن شعر القصة الكبرى ، أو بعبارة أخرى الشعر الغنائي التام كان أكثر ذيوفاً وانتشاراً من شعر القصص الصغرى ، أو الشعر التقليدي ، لأنه من جهة يحكى وقائع وحوادث حاضرة تتصل بحياة العصر وما انبث فيه من ألوان ترف ، ثم هو من جهة أخرى يُغنى وتنقله ألحان الغناء في العالم الإسلامي .^{٢٠} وفرق بين شعر تنقل حوادثه أو قل أكثر حوادثه بالجاهلية ، وقصص الحاربيين القدماء ، وما كان من أيام وحروب حينئذ ، فإن

ترك ذلك فإلى مديح السادة والأشراف بصورة قديمة موروثه؛ فرق بين هذا الشعر وشعر عمر بن أبي ربيعة وأصحابه الذي كان يحكى قصة الحب ووقائعها في مكة أثناء مواسم الحج وبعد هذه المواسم . وقد أثر عن الفرزدق أنه استمع إلى بعض شعر عمر فقال : « هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار ^(١) » . وقال جرير : « هذا الذى كنا ندور عليه فأخطأناه ^(٢) » .

وهذا اعتراف واضح من زعيمى الشعر التقليدى فى العصر الأموى بتميز شعر وأصحابه حين ولّوا وجوههم نحو هذه القبلة الفنية الجديدة ، قبلة التعبير المباشر عن خطرات القلب وأوهامه وأحلامه وآماله . وقد رأينا كيف أن هذا الشعر كان يستهوى أفئدة فقهاء مكة وعُبادها ، كما كان يستهوى فتياتها وشبانها وشيخها ، وأيضاً فإنه كان يستهوى المرأة النبيلة الشريفة ، ففيه كانت تُرسمُ صورها ، وفيه كان يتردد اسمها . وإذا كان الخلفاء الأمويون اشتهروا بطلبهم للشعراء التقليديين كي يسمعوا مدائحهم فيهم ، فإنهم أخذوا منذ يزيد بن معاوية يستقدمون المغنين والمغنيات فى الحجاز كي يُسمعوهن مقطوعات الشعر الغنائى الذى يضمنون فيه . وأقام الوليد بن عبد الملك حفل استقبال فى دمشق لابن سريج كما قدمنا ، ثم كان يزيد أخوه فبالغ فى استقدام مغنى الحجاز ،

(٢) أغاني ١٠٦/١ .

(١) أغاني ٧٥/١ .

وأكثر من إقامة الحفلات لاستقبالهم^(١)، وابتاع حَبَابَة^(٢) وسَلَامَة
القس^(٣)، وعاش معيشة غنائية خالصة طوال حكمه . ولم يلبث أن خرج
من بيته وتحت تأثير هؤلاء المغنين وشعرهم الذي يتغنون فيه شاعر غنائى
ممتاز ، هو الوليد بن يزيد ، الخليفة المشهور بضر به وغنائه وأصواته فى
شعره^(٤) .

والأصغر

ومعنى ذلك أننا لا نصل إلى عصر يزيد بن عبد الملك حتى يتفوق
الشعر الغنائى نهائيا على الشعر التقليدى فى بلاط الخلفاء ، بل إنه يبلغ
من نفوذه هناك أن يتحول إليه خليفة من خلفاء الأمويين . وليس من
ريب فى أن ذلك كان أثرا من آثار شيوع الشعر الغنائى على كل لسان .
ويحيل إلى الإنسان أنه لم يبق مكان إلا وشاع فيه هذا الشعر
ودار على جميع الألسنة ، وكان من أهم الأسباب فى ذلك أنه قيّد
بالحنّ المغنين ، فكان من يطلب سماع لحن من الألحان عند مغن مشهور
فى الحجاز يسمع أثناءه هذا الشعر الغنائى الطريف . وكان الشعراء
أنفسهم يعملون على أن يذيعوه عن طريق المغنين ، فعمر بن أبى ربيعة
يلزمه مغنيان مشهوران ، هما : ابن سُرَيْج والغريص ، فلا يكاد يرسل
مقطوعة من الشعر ، حتى يلحناها له ، وحتى يحفظاها فى صندوق أنغامهما .

(١) أغاني ١٠٩/٥ . (٢) أغاني طبع بولاق ١٥٦/١٣ .

(٣) أغاني طبع دار الكتب ٣٤٣/٨ .

(٤) انظر ترجمته فى الأغاني ١/٧ وما بعدها .

ولم يكونا وحدهما اللذان يصنعان ذلك ، فقد كان من وراءهما من معنى
مكة من يصنع صنعهما ، بل كان يصنع ذلك أيضا مغنو المدينة ، بل لقد
كان لذلك أثره في العراق فيما بعد ، فإن مدارس الغناء حين ظهرت
هناك في العصر العباسي أخذ المغنون يتداولون الألحان القديمة ، ويضيفون
إليها ألحانا جديدة ، مما أعطى لأصحاب الشعر الغنائي فرصة واسعة كي يحفظ
شعرهم من جهة ، ويذيع وينتشر من جهة أخرى . وقد روى أبو الفرج
لابن أبي ربيعة قصيدته التي تبدأ بقوله :

تَشْطُّ غدا دارُ جيراننا وللدارِ بعد غَدٍ أبعدُ

ثم ذكر عقبها من غنوا فيها ، فإذا هو يذكر أن الذي أخصى فيها
إلى وقته تسعة عشر لحنا ، ومن غنوا هذه الألحان من المكيين ابن
مسبح وابن سريج والغريص والأبجر ، بينما غنى فيها من المدنيين مَعْبِد
ومالك الطائي ويونس الكاتب وأشعب ، أما العباسيون فغنى فيها
منهم أحمد بن يحيى المكي وإسحاق الموصلي وابن جامع وعَلَيَّة بنت
المهدى ^(١) .

وما حدث في هذه المقطوعة حدث في كثير من المقطوعات
الأخرى لابن أبي ربيعة وغيره من الشعراء المكيين أمثال ابن قيس
الرقيات والعرجي ، فقد كان الشاعر يصنع القطعة وما يلبث المغنى أن

(١) أغاني ١/ ٨٦ .

يلحنها ، ولم يكن يلحنها مغنّو مكة وحدهم بل كان يلحنها أيضا مغنّو المدينة . ومن يرجع إلى أخبار المغنين والمغنيات في المدينة أثناء العصر الأموي يجد أكثر أصواتهم التي غنوا فيها لشعراء مكة ممن سميناهم . وكان هؤلاء الشعراء أنفسهم يرحلون إلى المدينة يطلبون إلى مغنّيتها ومغنياتها ، أن يلحنوا لهم أشعارهم ، وأعطى ابن أبي ربيعة أحد مغنى المدينة وهو الدلال مائة دينار على صوت من شعره غناه فيه ^(١) ، وكان عمر كثيراً ما يذهب إلى دار جميلة ليستمع فيها إلى بعض شعره الذي يغنى هناك ^(٢) . ولم يكن عمر وحده الذي يذهب إلى دار جميلة ليستمع إلى شعره يغنى هناك ، فقد كان يصنع صنيعة العرجي ^(٣) .

ولم يكن الشعراء وحدهم الذين ينقلون شعرهم ومقطوعاتهم إلى المدينة ، بل كان ينقل ذلك أيضا المغنون أنفسهم ، فنحن نجد دائماً في المدينة وفي دار جميلة بالذات يتغنون في شعر عمر وأصحابه ، يصنع ذلك ابن مسجح وابن سريج والغريص ^(٤) . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان المغنون المسكينون أنفسهم يرحلون إلى مكة يأخذون عن مغنّيتها ، صنع ذلك منهم كثير ، وعلى رأسهم معبد مغنى المدينة الذائع

(١) أغاني ٢٩٦/٤ .

(٢) أغاني ٢٠٨/٨ .

(٣) أغاني ٢٣٠/٨ .

(٤) أغاني ٢١٠/٨ وما بعدها .

الصيت^(١) . ويخيل إلى الإنسان أنه كانت هناك رحلة مستمرة بين مغنى مكة والمدينة ، فلا يسمع الأولون بمغن مشهور ينشأ في المدينة إلا ويرحلون لسماعه ، وكذلك لا يسمع الآخرون بمغن مشهور في مكة إلا ويقصدونه . وهؤلاء وأولئك جميعا يملأون حقائبهم وصناديق غنائهم بالشعر المكي ، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يميز عند المغنين هنا وهناك أى الشعراء كان أغلب عليه ، شعراء بلدته أم شعراء البلدة الأخرى ، فشعر الأحوص يتردد في مكة كما يتردد شعر عمر وأصحابه في المدينة . غير أن من يُنعم النظر بلاحظ أن المدينة ، وإن نافست مكة هذا العصر منافسة شديدة في الغناء حتى كادت تسبقها فيه من بعض الوجوه ، فإنها لم تستطع أن تظهر هذا الظفر في الشعر الغنائى ، فشكل من يقرأ كتاب الأغاني يلاحظ أن عمر وأصحابه كان شعرهم أشد ذيوغا وأكثر انتشارا لا في مكة نفسها بل في المدينة أيضا . وآية ذلك أن ترجمة الأحوص وأشعاره التى غُنّي فيها لم تستنفد من كتاب الأغاني إلا صفحات معدودة ، بينما استنفدت أخبار عمر وأشعاره ، وبعبارة أدق كادت أن تستنفد المجلد الأول من الأغاني . وليس للمدينة بعد الأحوص شاعر غنائى يمكن أن نضعه في صف ابن قيس الرقيات أو العرجي ، بل حتى في صف الحارث ابن خالد المخزومي .

وإذن فمكة هى ذات الحظ الأوفى من الشعر الغنائى في الحجاز أثناء

العصر الأموي ، هذا الشعر الذي كانت تردده حلق المغنين في كل مكان من الحجاز : في مكة وفي المدينة ، وأيضا في الطائف ، ووادي القرى . أما الطائف ، فكان ينزل في أوديتها العرجي ، ويقضي هناك أكثر أيامه وأوقاته ، وكان ينزلها معه فيند المغني ^(١) ، وكان كثير من أشرف مكة وشريفاتها ينزلها ، وخاصة في الصيف ، وكان ممن ينزلها الثريا ^(٢) صاحبة عمر بن أبي ربيعة ومعها موالها ، وعلى رأسهم الغريض ويحيي قيل وسمية .

وليس من شك في أن هؤلاء المغنين عملوا على إذاعة الشعر الغنائي المسكي هناك ، وطبيعي أن تعم هذه الأصوات المحببة إلى كل نفس ، وأن تدخل كل دار ، وأن تُغنى في كل منعطف وشعب من منعطفات الأودية وشعابها . وهذا نفسه نلاحظه في وادي القرى ، فقد كان يفد منه المغنون على مكة يتعلمون الضرب والغناء . ومن أشهر من وفدوا منه عمر ^(٣) الوادي مغني الوليد بن يزيد ، ويروي أبو الفرج عن عمر أنه سمع صوتا يغنيه بعض البدو فأعجب به إعجاباً شديداً وأخذه عنه ؛ وكان يقول : إنه لم يترنم به وهو جائع إلا شبع ، ولم يُغنَّ به وهو كسلان إلا نشط ، ولم يلحنه وهو مستوحش إلا أنس ^(٤) .

(٢) أغاني ١/٢١١ .

(١) أغاني ١/٣٩٣ .

(٣) أغاني ٧/٨٥ .

(٤) أغاني ٧/٨٦ وما بعدها .

وعلى هذا النحو كان في الحجاز كله بجواضره وبواديه يتناقل هذا الشعر الغنائى المسكى ، إذ كان بدعة العصر ، وكان الناس يجدون فيه وفيما اقترن به من ألحان وأنغام مقعة لا تقدر . ولم يقف انتشاره عند الحجاز كما مر بنا ، فقد أخذ ينفذ على الشام ، بل أخذت الشام تشارك فيه عن طريق الوليد بن يزيد . وكما عرفت الشام عرفتة اليمن ، فقد فر إليها الغريض حين تعقبه نافع بن علقمة وإلى مكة ، وهناك نشر ألحانه ، وما حملته من هذا الشعر الغنائى (١) .

وسبق أن عرضنا للمغنين وما كان لانتقالهم في العراق أو آخر هذا العصر وأوائل العصر العباسى من آثار مهمة في نشوء مدارس غنائية كبيرة هناك ، فقد انتقل فن الغناء بمغنيه ومغنيات وهذه الرق الموسيقية التى استحدثها ابن مسجح وتلاميذه في مكة وطويس وسائب خاثر وتلاميذها في المدينة ، انتقل ذلك كله إلى العراق . وطبعاً انتقل الفن بكل ما رافقه من شعر . ورأينا أننا كيف أن مقطوعة لعمر بن أبى ربيعة توارد عليها مغنو مكة والمدينة أولاً ثم مغنو العراق من مثل إسحق وابن جامع .

وأظن في هذا كله ما يدل إلى أى حد عمل الغناء على شيوع الشعر الغنائى وانتشاره ، فقد كان المغنون الحجازيون أنفسهم ينقلونه إلى دمشق تارة وإلى اليمن أو العراق تارة أخرى ، ونزل الأبحر المثنى

المكي المعروف مصر وبها توفي^(١) . ومعنى ذلك أن هذا الشعر كان يحمله المغنون إلى كل بقعة في العالم الإسلامي .

وهناك ممر آخر غير ممر المغنين عمل على ذبوع هذا الشعر وانتشاره في الأقاليم العربية ، ونقصد الحج والحجاج الذين كانوا يفدون على مكة من مشارق الأرض ومغاربها ، فأكبر الظن أن بعضهم كان يختلف إلى دور المغنين في مكة . على أن للمغنين أنفسهم كانوا يتعرضون لهم وهم يؤدون مناسكهم ، روى أبو الفرج أن ابن سريج كان عند بستان ابن عامر يُغَنَّى :

لمن نارٌ بأعلى الخَيْفِ دون البئر ما تخبو
أرقتُ لذكر موقعها فحنَّ لذكرها القلبُ
إذا ما أخذتُ أُلقي عليها المَنْدَلُ^(٢) الرُّطْبُ

فجعل الحاج يركب بعضهم بعضا ، حتى جاء إنسان من آخر القطرات فقال : يا هذا قد قطعت على الحاج وحبتهم ، والوقت قد ضاق ، فاتق الله وقم عنهم ، فقام عنهم وسار الناس^(٣) . وسمعه يزيد ابن عبد الملك في بعض المواسم فأعطاه حلقة وخاتمه^(٤) . ويروى أبو الفرج أنه رفع صوته مرة يغني في موسم آخر فسمعه الركبان فجعلوا يصيحون به : يا صاحب الصوت أمتق الله؟! قد حبست الناس عن مناسكهم ، فيسكت

(٢) المندل : العود .

(٤) أغاني ١/٢٨٥ .

(١) أغاني ٣/٣٤٦ .

(٣) أغاني ١/٣١٦ .

قليلا ، حتى إذا مضوا رفع صوته ، فيقف آخرون إلى أن مرّت قطعة من الليل^(١) . ومثل ابن مريج في ذلك الغريض فقد روى أبو الفرج أنه كان يعترض بصوته الحاج وأنه رجّع صوته يوما وغنّى في شعر ابن أبي ربيعة :

أيها الرايحُ المجدُّ ابسكارا قد قضى من تِهامة الأوطارا
فأضغى الحجاج كلهم إليه تعجباً من حسنه ، وتكلم الناس ، فقالوا طائفة من الجن حجاج استحسنانا لما سمعوا^(٢) . ولم يكن مغنومكة وخدم الذين يعترضون الحجاج ، فقد كان مغنو المدينة يصنعون صنيهم^(٣) . وهكذا كان المغنون الحجازيون يعترضون الحجاج بغنائهم وما يحمل من الشعر الغنائى الذى يؤلفه لهم الشعراء هناك . ومن يدرى ربما كان يرافقهم في قوافلهم بعض هؤلاء المغنين إما في ترحالهم نحو المدينة أو فيما هو أبعد من المدينة ؟ واشتهر في هذا العصر أحد أصحاب القوافل وهو دَحْمان بالغناء ، وهو من المدينة ، ولا بد أنه كان يغنى في قوافله هو وبعض حواريه ، فقد استمع الوايد بن يزيد إلى جارية في إحدى قوافله ، فاشترها بعشرة آلاف دينار^(٤) .

ولعل في هذا ما يدلنا إلى أى حد عمل الغناء على انتشار الشعر الغنائى وذيوعه . وكان لقرب موضوعه ومعانيه من نفوس الناس أثر

(٢) أغاني ٣٦٢/٢

(٤) أغاني ٢٥/٦

(١) أغاني ٢٦٢/١

(٣) أغاني ٢٠٨/٢

في هذا الانتشار والذيع لا يقل عن أثر الغناء ؛ إذ كان يتناول
أصحابه قصة الحب الإنساني ، هذه القصة التي تطرب لها قلوب البشرية
في مختلف عصورها ، ومختلف أمكثها وأقاليمها .

واستطاع الشعراء الغنائيون في الحجاز وعلى رأسهم شعراء مكة
أن ينهضوا بهذا الشعر نهضة واسعة من جميع الوجوه ، وهي نهضة وسعت
طاقة حمله في الصدور ، فإنهم كما قدمنا بسطوا في أوزانه وفي موسيقاه ،
كما قرَّبوا لفته من لغة الناس العامة ، فأصبح أطوع على الألسنة وأكثر
خفة على الأسماع والأفواه . ثم افترنت به هذه الطبول والآلات الوترية ،
فأضافت إليه شَجَى إلى شَجَى حيناً على نحو ما كان يصنع الغريص^(١)
أو فرحاً إلى فرح حيناً على نحو ما كان يصنع ابن سريج^(٢) .

والحق أن الغناء أحاط هذا الشعر بهالة من الالهام المستعر ، فإذا هو
يلهب القلوب والأفئدة في الأقاليم العربية ، وإذا هذه الأقاليم تعنوا له
جباهاً ، ولا تلبث الشام أن تدخل في هالة الالهام عند الوليد بن يزيد ،
ثم تتبعها العراق التي زادت الالهام نيراناً ، وأضافت إلى النور أنواراً .
ونحن نقف لنعرض أهم من أشعلوا هذه النيران والأنوار في مكة ، وهما
عمر بن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات .

(١) أغاني ٣٦٢/٢ .

(٢) أغاني ٢٩٠/١ .

الفصل الرابع

عمر بن أبي ربيعة

١

نجم وعشيرة وأهد

هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة ، ويغلب عليه أن ينسب إلى جده ، فيقال ابن أبي ربيعة ، وكنيته المشهورة أبو الخطاب^(١) . وينحدر عمر وآبؤ من عشيرة مهمة في مكة ، هي عشيرة بني مخزوم ، وكانت أحد البطون العشرة التي تؤلف قريش البطاح ، وكان صوتها مسموعاً بين هذه البطون ، وفي مجلس شيوخها المسمى بالملأ^(٢) .

وما زال نجم الخزوميين يصعد في أواخر العصر الجاهلي حتى أصبحت لهم شهرة مدوية في الجزيرة العربية ، وخاصة هذا الفرع الذي نجم منه عمر ، فقد كان أهم فروع الخزوميين ، إذ كان آباؤه وأعمامه يعدون من سادة قريش الأولين . وكان أحدهم وهو هشام بن المغيرة يلقب برب قريش^(٣) ، وكل من يقرأ السيرة النبوية يعرف اسم أخيه

(١) أغاني ١/٦١ . (٢) دائرة المعارف الإسلامية في مادة مخزوم .

(٣) ابن دريد ص ٦٣ ، ٩٤ .

الوليد بن المغيرة . ويقول أبو الفرج إنه كان سيداً من سادات قريش وجواداً من أجوادها ، وكان يعجب كيف ينزل القرآن الكريم على الرسول ، ولا ينزل عليه أو على عمرو بن عمير الثقفي ، وهما عظيمي القريتين^(١) ، وفيه نزل قوله تعالى : « وقالوا لو لا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيم » .

وبجانب الوليد وهشام ابني المغيرة نجد أبا ربيعة جد عمر ، وكان بطالا من أبطال قريش ، ولُقّب ذا الرمحين لأنه حارب يوم عُكاظ برمحين^(٢) .

ويظهر أن الخزوميين اشتهروا بالشجاعة في الجاهلية ، ولعل ذلك ما جعل قريشاً تسند إليهم أمر القُبّة والأعنة ، أما القبة فإنهم كانوا يضرّبونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به جيش قريش ، وأما الأعنة فيقصّدون بها أنهم يكونون على خيلها أثناء الحرب^(٣) .

وكما تقدم الخزوميون في قريش بالشجاعة ، تقدموا أيضاً بالكرم وبذل المال ، فقلما يتردد اسم شخص منهم ولا يتردد معه كرمه . وكانوا — على ما يظهر — من تجار مكة الثريين ، ولهذا تتردد في أوصافهم كلمة السيادة ، وهي لا تعني في مكة التجارة سوى الثراء العريض ، وقد

(١) ابن هشام ٢٢٨/١ وانظر تفسير الكشاف (طبع المطبعة البهية) ٣٥٠/٢

(٢) أغاني طبع دار الكتب ٦١/١ .

(٣) ابن عبد ربه ٤٥/٢ .

نزلت في الوليد بن المغيرة أيضاً الآيات الكريمة^(١) « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ
وَحِيداً ، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَدْتُ لَهُ تَهْمِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ
أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً » .

وفي هذه الأسرة يلمع اسم عبد الله بن أبي ربيعة ، ويقول أبو الفرج :
كان تاجراً موسراً ، وكان متجراً إلى اليمن ، وكانت قريش تلقبه
« العَدْلُ » ، لأنها كانت تكسو الكعبة في الجاهلية بأجمعها من أموالها
سنة ، ويكسوها هو من ماله سنة ، فأرادوا أنه وحده عدل لهم جميعاً .
وكان اسمه بَحِيرًا ، فلما أسلم عام الفتح سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم
عبد الله .

ويقول أبو الفرج : إنه كان لعبد الله عبيد من الحبشة يقصرون في
جميع المهن ، وكان عددهم كثيراً ، وعرض على رسول الله أن
يستخدمهم ، ويستعين بهم ، حين خرج إلى حُنَيْن ، فأبى^(٢) . واستعمله
الرسول على الجَنْدِ^(٣) ومخالفها ، فلم يزل عاملاً عليها حتى قتل عمر بن
الخطاب ، واستعمله عثمان بن عفان أيضاً^(٤) ، وما زال والياً له حتى

(١) تفسير الكشاف ٥٠٢/٢ . (٢) أغاني ٦٥/١ .

(٣) الجند : أحد ولايات اليمن الثلاث وهي الجند وصفاء وحضرموت ،
والمخاليف جمع مخلاف وهو الكورة .

(٤) أغاني ٦٥/١ وما بعدها وانظر أسد الغابة ١٥٥/٣ والطبري

توفى أثناء حصاره عام خمسة وثلاثين^(١) .

وتزوج هذا السيد المثرى ، الذى يقال إن رسول الله اقترض منه بضعة عشر ألفاً يستعين بها فى حربته ضد ثقيف^(٢) ، من امرأتين ، أما أولاهما فخبشية نصرانية ، جاء منها بالحارث وكان صالحاً ديناً^(٣) وخيراً عفيفاً^(٤) ، واستعمله عبد الله بن الزبير على البصرة ثم عزله^(٥) . وأما الثانية فأم ولد يقال لها مجذ سُلَيْت من حضرموت ويقال من حمير ، وقد جاء منها بعمر^(٦) .

وإذن فعمر يعنى الأم قرشى الأب ، وهو من سلالة أشراف قريش ونبلأها . كان أبوه أحد ساداتها العظمين ، وكان أخوه الحارث أيضاً من ساداتها المقدمين^(٧) ، فهو ابن سيادة ، وثراء ، وشرف ، وكرم ، وعز شديد .

٢

حياته وأهم وقوفه وصفاته

نَبَتَ عمر فى أسرة قرشية نبيلة ، ويقال إنه ولد فى العام الذى قتل

(١) الكامل لابن الأثير طبع ليدن ١٦١/٣ وشذرات الذهب لابن العماد

طبع القدسى ٤٠/١ .

(٢) الطبرى ٢٣٨٦/١ . (٣) أغاني ١١٠/١ .

(٤) الشعر والشعراء ص ٣٥٢ .

(٥) طبرى ٦٠٢/٢ وأغاني ١١٠/١ وهو الملقب بالقباع .

(٦) أغاني ٦٦/١ . (٧) أغاني ٦٦/١ .

فيه عمر^(١)، وإذن فقد ولد عام ٢٣ هـ . ولم ينص المؤرخون على مسقط رأسه ، وأكبر الظن أنه ولد في مكة ، فالمؤرخون يسلكون أباه فيمن نزل مكة بعد الهجرة إلى الله ورسوله^(٢) . ومن هنا كنا نظن أن مكة أول أرض مَسَّ ترابها عمر ، واستمر فيها أثناء نشأته وسِنِيهِ الأولى من حياته ، يقول في بعض شعره^(٣) :

وَأَنَا اسرُّ بِقَرَارِ مَكَّةَ مَسْكَنِي وَلَهَا هَوَايَ فَقَدْ سَبَتْ قَلْبِي
وَلَمْ يَكِدْ عَمْرٌ يَتَجَاوِزُ الثَّلَاثَةَ عَشْرَةَ مِنْ عَمْرِهِ حَتَّى تَوَفَّى أَبُوهُ كَمَا
أَسْلَفْنَا ، وَبِذَلِكَ خُلِّيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُمِّهِ الْغُرَيْبَةِ ، فَنَشَّأَتْهُ كَمَا تَهْوَى ، أَوْ كَمَا
تَنْشِئُ أُمُّ سَبِيَّةٍ فَتَاهَا الثَّرَى ثَرَاءَ مَفْرَطًا ، تَرَكَ لَهُ حَبْلَهُ عَلَى غَارِبِهِ لِيَتَنَاوَلَ
مِنَ اللَّهِو وَاللَّعِبِ كُلِّ مَا تَصْبُو إِلَيْهِ نَفْسُهُ .

وماذا نريد إلى شاب نُشِئَ في الحليمة والزينة ؟ إن مثل هذا الشاب لا بد أن ينشأ مفقونًا بدياه وبما حوله من ملاحيتها ، وماذا ينقصه ؟ إن داره تكفيظ بالجواري والسبايا ، التي كانت تكفيظ بها دور نبلاء قریش حينئذ ، وليست هناك طرفة يراها من طرف الدنيا إلا وهو يستطيع أن يقتنيها ، وأن يلهو بها ما شاء له هواه .

وكان عمر جميلًا^(٤) ، ولم يلبث أن تفجر في نفسه هذا الينبوع

(١) أغاني ١/٧١ . (٢) ابن سعد ٥/٣٢٨ .

(٣) ديوان عمر طبع ليبسك ١٧٦/٢ .

(٤) خزنة الأدب للبغدادى طبع بولاق ٢/٤٢٠ .

العذب ، ينبوع الشعر ، مع فطنة في الحديث ورقة شعور ومزاج ، فأصبح حديث الشباب والفتيات . وكانت موجة الغناء حادة كما قدمنا ، وكان الشعر هو القطرات التي تعقدها في أسماع الناس ، وكان عمر يحسن إرسال هذه القطرات النفسية ، فتعلق به مجتمع مكة تعلقاً شديداً .

وانضاف إلى ذلك أن عمر كان ثريا عظيم الثراء ، فحشد ثراه لغنه فهو يصنع المقطوعة من شعره ، ثم يطلب لها أروع المغنين في عصره ، ليفنوه فيها لحنا خالداً ، ويحيزهم جوائز مختلفة ، فهذا ابن سريج يعطيه في تلحينه لإحدى مقطوعاته ثلاثمائة دينار^(١) وهذا الغريض يعطيه في تلحين مقطوعة أخرى خمسة آلاف درهم^(٢) ، وهذا الدلال يعطيه في تلحين مقطوعة ثالثة مائة دينار^(٣) ، وهذه جميلة يعطيها في تلحين مقطوعة رابعة عشرة آلاف درهم^(٤) . ثم هاتان بغوم وأسماء في داره تغنيانه في كل ما ينظم^(٥) . وإنه ليعجب بصوت تغنيه جميلة في شعره ، فيرسل لها بإحدى جواريه تطارحها أياما حتى تتقنه^(٦) .

ويؤمن الإنسان بأن حياة عمر في مكة كانت شعرا وغناء خالصا ، ولم يكن للناس حينئذ من لهو سوى هذا الغناء وما يصاحبه من شعر ، فدار اسم عمر على كل لسان .

-
- | | |
|-------------------|-------------------|
| (١) أغاني ٣٥٩/١ . | (٢) أغاني ٣٢٢/٣ . |
| (٣) أغاني ٢٩٦/٤ . | (٤) أغاني ٢٠٨/٨ . |
| (٥) أغاني ١٦٥/١ . | (٦) أغاني ٢٢٢/٨ . |

وكان مجتمع مكة حينئذ تسوده ضروب من الحرية في لقاء الرجال للنساء ، وكانت أحاديث هذا اللقاء تُملأ بالصباغة والغزل ، وهل هناك حديث للشباب أمتع من هذا الحديث الذي تروى فيه قصص القلب الإنساني ؟ .

ونعجب الآن إذ نسمع عن هذه الأحاديث وتلك المجالس لأننا نريد أن نتصور مكة في صورتها المتحضرة الجديدة قرية بدوية ، وننسى أنه دانت لها والمدينة قُبَيْل هذا العصر كل دولة فارس وكثير من دولة الروم ، وأن مجتمعاها تطور تحت تأثير العناصر الحضارية التي دخلتها . والمجتمع المتحضر هو المجتمع المتحضر في كل عصر وفي كل مكان .

تحضرت مكة أو قل أغرقت في الحضارة ، ووُجِدَتْ فيها هذه هذه الطبقة اللاهية من الفتيات والفتيان الذين يقضون أوقاتهم في المتعة بالفنون الجميلة ، وكانت هذه الفنون في مكة لا يتعدى الشعر والغناء الذي يوقع عليه ، فوجدت المجالس التي تتمتع بهذا الشعر وبذلك الغناء وظهر — ككل مجتمع راق — كثير من السيدات اللاتي يُعَمِّن بهذين الفنين وأصحابهما .

ولم تكف بعض بيوتات مكة بالسماع من هؤلاء المغنين في الخفلات ، فاقترنت طائفة منهم ، على نحو ما نجد عند الثريا بنت علي بن عبد الله ابن الحارث بن أمية الأصغر فقد اقترنت الغريص ويحيى قَيْل وُسْمِيَّة .

وطبيعي أن تعنى مثل هذه الفتاة بالشعر الذى كان يغنى فيه موالها ، وكان أكثره من شعر عمر . ولعل ذلك ما تجل بالصلة بينها وبينه . وهى صلة فنية قبل أن تكون صلة شخصية . وكانت الثريا جميلة ^(١) ، فطبيعى أن تثير عمر وأن تجعله يتغنى باسمها وجمالها .

وفى كل مكان من حياة عمر نجد ثريات أخريات ، فقد كانت مكة تحفل بالشريفات والنبيلات ، وكن جميعا يحفظن بالشعر والغناء ، ويجلسن ليسمعن المغنين أو لينشدن الشعراء . قال الحارث بن خالد الخزومى : « بلغنى أن الغريض خرج مع نسوة من أهل مكة من أهل الشرف ليلا إلى بعض المتحدثات من نواحي مكة ، وكانت ليلة مقمرة ، فاشيقت إليهن وإلى مجالسهن وإلى حديثهن .. وكان عمر منى قريبا ، فأتيته ، فقلت له : إن فلانة وفلانة وفلانة — حتى سميتهن كلهن — قد بعثتنى ، وهن يقرأن عليك السلام ، وقلن تشوقن إليك فى ليلتنا هذه لصوت أنشدناه الغريض . وكان الغريض يغنى هذا الصوت فيجيده ، وكان ابن أبى ربيعة به معجبا ، وكان كثيرا ما يسأل الغريض أن يغنيه ، وهو قوله :

أسمى بأسماء هذا القلب مغمودا إذا أقول صحا يعتاده عيدا
فما أخبرته الخبر ، قال : لقد أزعجتني فى وقت كانت الدعء أحب

فيه إلى ، ولكن صوت الغرييض وحديث النسوة ليس له مترك ولا عنه
 محيص ، فدعا بثيابه ، فلبسها ، وقال : امض ، فمضينا نمشي العجل حتى
 قربنا منهم ، فقال لى عمر : خَفِّضْ عليك مشيك ، ففعلت ، حتى وقفنا
 عليهم ، وهن فى أطيب حديث وأحسن مجلس ، فسلمنا ، فتهيئنا ،
 وتحفّرنا منا ، فقال الغرييض : لا عليكى ! هذا ابن أبى ربيعة والحارث
 ابن خالد جاءا متشوّقين إلى حديثكن وغنائى ، فقالت فلانة : وعليك
 السلام يا بن أبى ربيعة . والله ما تمّ مجلسنا إلا بك ، اجلسا ، فجلسنا غير
 بعيد ، وأخذن عليهن جلايبهن ، وتقتعن بأخترتهن ، وأقبلن علينا
 بوجوههن ، وقلن لعمر : كيف أحسست بنا ، وقد أخفينا أمرنا ؟ فقال :
 هذا الفاسق جاءنى برسالتكن ، وكنت وقيداً^(١) من علة وجدتها ،
 فأمرعت الإجابة ، ورجوت منكن على ذلك حسن الإجابة ، فرددن
 عليه : قد وجب أجرك ، ولم يَحِبْ سعيك ، ووافق منا الحارث إرادة .
 فحدثن بما قلت له من قصة غناء الغرييض ، فقال النسوة : والله ما كان
 ذلك كذلك ، ولقد نهيتنا على صوت حسن ، يا غرييض هاته . فاندفع
 الغرييض يغنى الصوت حتى أتى على الشعر كله إلى آخره ، فكلّ
 استحسنه . وأقبل على ابن أبى ربيعة فجزانى الخير ، وكذلك النسوة .
 فلم نزل بأنعم ليلة وأطيبها حتى بدأ القمر يغيب ، فقمنا جميعاً ، وأخذ
 النسوة طريقاً ونحن طريقاً ، وأخذ الغرييض معنا^(٢) .

(١) وقيداً : مريضاً .

(٢) أغانى ٣٢٧/٦ وما بعدها .

وهذه صورة من صور كانت تحدث في مكة كلَّ عَشية ، فكان النساء يطلبن الغريز وأمثاله ليغنوا في شعر عمر ونظرائه ، وكثيراً ما أقام المسكين حفلات كهذه الحفلات التي تقام في عصرنا لعبد الوهاب وأم كلثوم . ولست أقصد الحفلات العامة ، وإنما أقصد الحفلات الخاصة . وبلغ من ثراء المكيين وترفعهم أن لا يقيموا هذه الحفلات كما نصنع الآن لمناسبة زواج أو عقد قران ؛ فقد كانت حياة القوم كلها حفلات ، وكأما غرَّتهم الدنيا ، فهم يقيمون هذه الحفلات يومياً إذا أرادوا . وكان المغنون والمغنيات حينئذ يُملكون ، فيكونون عند ساداتهم ، يقيمون لهم الحفلات الغنائية كلما شاءوا ، وما أكثر ما كانوا يشاءون . فما كنت تسير في شِعْبٍ من شعاب مكة أو في ضاحية من ضواحيها إلا وتنطلق الأصوات من حولك ، فقد كاد أن يكون في كل شِعْبٍ وكل ضاحية مسرح . وكانت المسارح حينئذ متحركة ؛ فهذا ابن مريج بعوده يُغَنِّي في أي مكان ، وهذا الغريز بقضييه يرتل أشجى الألحان ، وهذا عمر وأمثاله من أصحاب الشعر الغنائي ينظمون ، والمغنون من حولهم يغنون ويلحنون .

وكان لعمر القدح المعلى بين شعراء عصره في ذلك ، فهو سيد من سادات مكة ونبيل من نبلائها ، وهذه البيوت من حوله بيوت الشريفات والنبيلات قلما لا تكون هناك واشجة قرابة بينه وبين من فيها ، ولذلك كثر اجتماعه بصواحبها وكثرت مداخلته لأهلها ، فهو

يعشاهم الحين بعد الحين مع المغنين يستمع إلى الغناء في شعره والبلحين في نظمه . وأصبح عمر بدع العصر ، فهو طَلِبة كل بيت من بيوت أقربائه ، وهو طَلِبة كل فتاة مدلة بجهاها معجبة بحسنها ، تريد أن تظهر في مرآة شعره وفنه . وما أ كثر هؤلاء الفتيات اللاتي كن يردن الظهور في هذه المرآة الفنية الرشيقة ، فقد كانت مرآة متحركة تدخل في كل بيت من بيوت مكة ، بل لقد أخذت تدخل في بيوت المدينة وغيرها من بلدان العالم الإسلامي . وفتنت السيدات في المدينة بهذه المرآة كما فتن سيدات مكة ونبيلاتها ، فقد تعددت صورها وألوانها وتعددت أنفامها وألحانها . وكان يظهر ابن أبي ربيعة في أ كثرها ومعه ابن سريج أو الغريض ؛ بل معه أحياناً جميلة ومعبد وغيرها من مغنى أهل المدينة . وكل من يقرأ في الأغاني يخيل إليه أن عمر أصبح شغل النساء في المدينة ومكة جميعاً ، ولم تكن المسألة مسألة عمر كما قد يتبادر ، وإنما كانت مسألة شعره وابن سريج والغريض اللذين يلزمانه ، ولا ينفصلان عنه . وكأنما كانت تتكون الفرقة الفئائية في مكة لهذا العصر من شاعر دائم هو عمر ومغن هو ابن سريج أو الغريض ^(١) .

ولم يكن نساء مكة والمدينة وحدهن اللاتي يعجبهن بعمر وشعره ومن يعنون في هذا الشعر ، فقد كانت نساء بني أمية في دمشق يعجبهن بهذا الشعر أو بهذه المرآة ، وكن يطلبن الظهور فيها حتى أخت ^(٢)

(١) انظر في ذلك الأغاني ٣٧٦/٢ . (٢) أغاني ١٦٦/١ .

عبد الملك بن مروان وابنته فاطمة^(١) ، فإنهما طلبتا أن تطبعا على صفحتها .

وكانت هناك مواسم تكثر فيها هذه الطلبات على عمر وغيره من شعراء مكة ، ونقصد مواسم الحج ، إذ كانت تحشد نساء العرب وفتياتهم ، وكان الذوق العربي العام لا يمنع أن يشيد شاعر بجمال امرأة ، بل لعل في هذه الإشادة ما يعرف بها وبجمالها ، ولذلك كانت تطلبها المرأة العربية ولا تجد فيها غضاضة ، بل على العكس كانت تجد فيها طرافة وإعلاناً عنها وتمهيداً لأن يطلبها الأزواج^(٢) .

وهذا الذوق العام هو الذي أشاع الغزل في المرأة العربية الشريفة . وأخذ عمر بن أبي ربيعة يستغله ويبعد في استغلاله لا في فتيات مكة ونسائها ، بل في فتيات العرب جميعاً ونسائهم ممن يحبجن إلى مكة ، وتقع عينه عليهن ، وكأنا كانت عينه « عدسة » مكة في هذا العصر ، فلا تمر بها سيدة تسيحق أن تصوّر وأن ترسم في المرأة الفنية المسكية إلا وتهبّ عين عمر وتهب عيون زملائه من الشعراء ، فيسجلون صورتها . ومن هنا كنا نقرأ دائماً في أخباره أشعاراً وقصصاً عن جميلات الحواج . فهذه عائشة بنت طلحة تحج فقطعرض لها عين عمر أو عدسة عمر فترسمها^(٣) ، وهذه فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندي

(١) أغاني ١٩٠/١ وانظر ٣٥٧/٢ .

(٢) أغاني ٣٥٣/١ . (٣) أغاني ١٩٩/١ وما بعدها .

تجج ، فيتلقفها العين أو العدسة^(١) ، وهذه زوجة شيخ النحوي الأسود
الدولى تجج ، فتأبى العين أو العدسة إلا أن تتبعها^(٢) ، وهذه ليلي بنت
الحارث البكرية مع وقارها ترسمها العين أو العدسة^(٣) ، وهذه رملة
بنت عبد الله الخزاعية تلمحها العين أو العدسة فتصورها^(٤) . وهذا باب
يطول تعداد الأسماء والشخصيات فيه ، فقد أصبح شغل الشعراء المسكين
وعلى رأسهم عمر ، وأصبحت مواسم الحج مواسم للشعر والفن ترسم فيه
صور العذارى والسيدات الجميلات ، وحتى أميرات بنى أمية كن يرسمن
ويُصَوَّرْنَ وكن يطلبن ذلك ويتغينه ، فهنا الشعر الجميل الذى يعرف
كيف يصور جمال المرأة ، وهنا الأداة البديعة التى تعرف كيف تذيع
هذا الشعر ، ونقصد أداة الغناء . فهذا الشعر الغنائى هو الشعر الذى ينتشر
بسرعة على كل لسان ، والذى يملأ به الحجاج حقائبهم وهم عائدون إلى
أوطانهم وديارهم . فليس غريباً إذن أن يطلبه النساء ، وأن يتحول عمر
ومغنياه ابن سريج والغريض إلى ما يشبه المصورين فى صحافتنا الحديثة ،
فهم يتخللون الحجاج ، وقد يخرجون لاستقبالهم كي يلتقطوا أخبار الفتيات
والنساء الجميلات . وأظننا لا نعجب بعد ذلك إذ نقرأ فى أخبار عمر أنه
« كان يعتمر فى ذى القعدة ويحل ، ويلبس تلك الحلل والوشى ،
ويركب النجائب المخضوبة بالحناء ، عليها القطوع والديباج ، ويسبل

(١) أغاني ٨٤/١ وما بعدها . (٢) أغاني ١٤٧/١ وما بعدها .

(٣) أغاني ١٥٦/١ . (٤) أغاني ٢١٤/١ .

لميته ، ويتلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات عِرْقٍ محرمات ، ويتلقى
المدنيات إلى مَرٍّ ، ويتلقى الشاميات إلى السكيد^(١) . أو نقرأ :
« خرج عمر بن أبي ربيعة ومعه ابن سريج على نجيين ، رحلتاها ملبستان
بالديباج ، وقد خضبا النجيين ولبسا حلقتين ، فجعلا يتلقيان الحاج ،
ويقترضان للنساء إلى أن أظلم الليل^(٢) » .

وما يزال عمر وابن سريج صاحبه يستعرضان النساء في النهار على
هذا النحو حتى إذا أظلم الليل انطلقا إلى كثيب مشرف ، فالتقى عمر
على صاحبه ما لقفقه العين أو العدسة ، وسرعان ما يضع له ابن سريج
اللحن ، ثم يغنيه ، فيحبس الحجاج عن مناسكهم ، ويكاد بعضهم
يركب بعضا من شدة الزحام ومحاولة القرب من مسرح الغناء^(٣) .

وأظن في هذا ما يصور كيف كان عمر بن أبي ربيعة يحيا في مكة ،
فهو يحيا حياة فنية قوامها الشعر والغناء ، وقد مدّه ثراؤه وترفه بكل
ما يلزمه في هذه الحياة ، فهؤلاء المغنون من حوله أمثال ابن سريج
سمّاعون لشعره يغنون فيه ويلحنونه ، ويرتفعون في هذا الغناء والتلحين
إلى مدى واسع من الإحسان والتجويد . وما يزال مع هؤلاء المغنين
يتغنى بفتيات مكة ونسائها حتى إذا دار العام وأتى موسم الحج تحول إلى
جميلات الموسم يتبعهن ويصورهن . وفي أخباره أنه كان يشرب الخمر^(٤)

(١) أغاني ٢٢١/١ . (٢) أغاني ٢٥٨/١ .

(٣) انظر الأغاني ٢٥٩/١ وما بعدها .

(٤) أغاني ٢٠٧/٨ والديوان ص ٢٣٣ .

وأكبر الظن أن ترف عمر وفراغه وأوساط المغنين الذين كان يعاشرهم هو الذى دفعه أحياناً إلى الشرب ، ولكن فى غير إسراف ، بل نظن أن ذلك كان فى الندرة . وتناول عمر للخمر فى الندرة يدل على أنه كانت فيه روح عبث ، وهو جانب يتضح فى غزله وفى أحاديثه عن المرأة ، وماذا تريد إلى شخص مترف نُشئ فى الحلية والزينة والحرير والإستبرق والطيب والعطر ؟ إن حياته تكون مليئة بالمرح والعبث ، ونفس ذلك جعله تياهاً مُدلاً بنفسه . وعمر فى الواقع مثال لأبناء الطبقة الراقية الذين يشعرون بأنفسهم فى المجتمع الذى يعيشون فيه . وكان يعيش كما يريد « مهمبياً معظماً لا يقدر عليه سلطان ولا غيره ^(١) » . وأكبر الظن أنه كان أموى الهوى ، فقد هجا مصعب بن الزبير حين قتل زوجة المختار الثقفى ، وما قاله فى ذلك ^(٢) :

إن من أعظم الكبائر عندى قتل حسناء غادة عطبول
كُتب القتل والقتال علينا وعلى المحصنات جرّ الذبول
وطبيعى ألا يُعجَب عمر بمصعب وأخيه عبد الله ، فقد كان الأخير خاصة مُترَمِّماً ، ولم يكن يُعجَب بعمر ولا بشعره ^(٣) ؛ بينما كان يعجب به عبد الملك ^(٤) ، وقد استقصى الوليد معه ، حين حج ، إلى

(١) أغانى ٣٢٧/٦ .

(٢) الديوان ص ٢٤١ وانظر أغانى ٢٢٩/٩ .

(٣) أغانى ٧٣/١ .

(٤) أغانى ١٣٣/١٨ وانظر زهر الآداب للحصرى ١٢٠/١ والأمالى ٦٨/٣ .

وكذلك الأغانى ٧/١٥ وما بعدها .

الطائف وَعَنَّاَه الغرييض في أشعاره^(١) .

ولسنا نعرف تفاصيل واضحة عن حياة عمر الشخصية في أسرته وبيته ، وكل ما ذكره المؤرخون في هذا الجانب لا يتعدى ذكرهم لزواجه من كلثم بنت سعد الخزومية ، وأنها ولدت منه ولدين كان أحدهما يسمى جُوَانَا وَمَانَتْ عِنْدَهُ^(٢) . ويذكرون أيضاً أنه تزوج من جُمَحِيَّة^(٣) ، ولا يذكرون اسمها ، وهي زينب بنت موسى الجمحية ، وله فيها غزل كثير^(٤) . وكانت له بنت تسمى أمة الواحد^(٥) ، وقد تسمى أمة الحميد أو أمة الحميد^(٦) .

وهذا هو كل ما لدينا من معلومات عن حياة عمر الشخصية ، وهي معلومات لا تكاد تُبينُ عن شيء ، إلا أنها على كل حال تدل على أنه لم يتزوج كثيراً . ولسنا ندري هل تزوج الجمحية بعد وفاة كلثم أو أثناء حياته معها . وإذا عرفنا أنهم في هذا العصر كانوا يتزوجون في العادة غير واحدة ، أمكننا أن نعرف أن عمر كان غير قلق في حياته الزوجية .

والرواة إنما يمدُّوننا في الواقع بقصص كثير عن غزليات عمر ، أما حياته وتفاصيلها فقلما عُنُوا بها ، وحتى موته نجدهم يضطربون فيه جداً

(١) أغاني ١١٢/١ وانظر ٣٩٥/٢ وكذلك ١١٩/١ .

(٢) أغاني ٢٠٤/١ وما بعدها . (٣) أغاني ٢٢٠/١ وما بعدها .

(٤) أنظر أغاني ٩٣/١ وما بعدها . (٥) أغاني ٧٠/١ .

(٦) أغاني ١٦٥/١ .

فالمشهور أنه عاش سبعين سنة^(١) فإذا كان قد ولد سنة ٥٢٣ هـ فإنه يكون قد توفى سنة ٥٩٣ هـ . ومعنى ذلك أنه توفي في عصر الوليد بن عبد الملك وأنه لم يلحق عصر سليمان الذي تولى الخلافة سنة ٩٦ ولا عصر عمر بن عبد العزيز الذي ولى الخلافة سنة ٩٩ . وهنا يبدو خلط الرواة فنحن نرى بعضهم يزعم أن سليمان — وكانت فيه شدة — نفي عمر إلى الطائف^(٢) ، وأكثر من ذلك نرى بعضهم يزعم أن عمر بن عبد العزيز نفاه كما نفي الأحوص شاعر المدينة الغنائى إلى دهلك^(٣) ، وأبعد من ذلك أن نرى بعضهم يقول إن عمر غزا بالبحر فأحرقوا سفينته فاحترق^(٤) . وهناك رواية تزعم أنه تعرض لسيدة فتغزل بها وهى تحجج ، فدعت عليه ، فمات^(٥) .

وكل هذه فى رأينا فروض أملاها خيال الرواة ، وخاصة من قالوا باحترق عمر حتى يجعلوه شهيدا ، ولعل أهم ما يدل على فساد ما يقال من أن سليمان نفاه إلى الطائف وأن عمر بن عبد العزيز نفاه إلى دهلك أنه لم يعيش إلى عصرهما ، فقد روى أبو الفرج فى حديث بين الثريا والوليد بن عبد الملك عنه أنها قالت : يرحمه الله^(٦) . ونحن نعرف أن

-
- (١) أغاني ١/٧١ . (٢) أغاني ٩/٦٧ .
 (٣) أغاني ٩/٦٤ وانظر الشعر والشعراء ص ٣٤٩ ودهلك : جزيرة بالبحر الأحمر .
 (٤) الشعر والشعراء ص ٣٤٩ . (٥) أغاني ١/٢٤٧ وما بعده .
 (٦) أغاني ١/٢٣٧ .

الفريض فر إلى اليمن حين تعقب نافع بن علقمة المغنين في عهد سليمان ولم يلبث أن توفي هناك ، ولو أن ابن أبي ربيعة كان حيا لحصى الفريض من نافع . وفي أخبار الفريض قبل فراره إلى اليمن أن الثريا مولاته ماتت ، وأنه أتى كثير بن كثير السهمي ، فطلب إليه يصنع فيها أبياتا لينوح بها على الثريا^(١) . ومعنى ذلك أن الثريا توفيت إما في أواخر أيام الوليد أو في أوائل أيام سليمان ، ولو أن ابن أبي ربيعة كان حيا لرهاها ، واطلب الفريض أبياته التي ينوح بها عليها من عمر لا من كثير السهمي . ومهما يكن فقد توفي عمر عن سن عالية .

٣

شعره الفناي

يكنظ كتاب الأغاني بالأصوات أو الأدوار التي غنيت في شعر عمر ، والتي اشترك في غنائها كبار المغنين والمغنيات في مكة والمدينة أثناء العصر الأموي . ويكاد الإنسان يؤمن بأن شعره كله قصد به إلى الفناء ، فقد كانت تغنيه فيه الجوارى في بيته ، وكان يغني فيه المغنون والمغنيات في دور اللهو . وكان الحُجَّاجُ كلما ألموا بمكة ملأوا حقائبهم بهذا الشعر وأخبراه ، وبماذا يقضون أوقاتهم ولياليهم الطويلة بعد انصرافهم من

(١) أغاني ١/ ٢٤٦ .

مناسك الحج سوى أن يسمروا ويتحدثوا ويغنيهم من حين إلى حين
مغنٍ أو مغنيةٌ بشعر عمر وأصحابه المسكين ؟ . وما يكاد المغنى ينتهى من
غناؤه حتى يبدأ السمر ، ويبدأ الحديث ، ويبدأ القصص عن عمر وأمثاله
من أصحاب الشعر الغنائى .

ولعل هذا ما جعل القصص يكثر عن عمر ، فمخيلة القصاص لعبت
منذ حياة عمر نفسه بأخباره . ومن يرجع إلى ترجمته فى كتاب الأغانى
يجد كل صوت يُروى له ، تُروى معه قصة . ومن هنا كثر القصصُ
عن عمر واختلطت صورته على الرواة القدماء أنفسهم كما اختلطت على
الباحثين المحدثين ، لسبب بسيط ، وهو أن حياته امتدت أمام الناس
لقتسع للتسلية والترفيه عنهم .

وربما كان أهم دليل على ما نزعم أننا إذا حاولنا أن نتبين خطوط
أقاصيص حبه الذى عاناه ، والذى ذهب يعبر عنها فى شعره الغنائى لم
نكد نتبين منها شيئاً واضحاً سوى قصة واحدة هى قصة حبه للثريا بنت
على بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد بن شمس . وكانت
كما مر فى غير هذا الموضع من شريفات قریش ، وهى — على
ما يظهر — إحدى السيدات القلائل اللاتى تقدمن لحماية الفن فى
عصرها ، ولم يكن حينئذ إلا الغناء وهذا الشعر الغنائى عند عمر وأمثاله .
ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم صلتها بالمغنين من جهة وعمر من
جهة أخرى ، فى دارها تخرج الغريض ويحيى قنبل وميمية من المغنين ،

كما مر بنا ، وفي دارها كانت تستقبل عمر ، وتستمع إلى أحاديثه ، وتسمر معه ، وكان لها ذوق أدبي ، فكانت تصطنع الشعر^(١) . ولم تلبث أن تحولت الصداقة بينها وبين عمر ، وهو الآخر من أشرف قریش ومن أبناء عمها ، إلى ضرب من الحب والرضا والمودة ، فكانت تنكث من لقائه واستقباله والسمير معه في مكة حين تكون في مكة وفي الطائف حين تصيف فيها^(٢) ، وكانت لا تجد في ذلك حرجا . يقول عمر^(٣) :

لَمْ تَرِ الْعَيْنُ لِلثَّرِيَّا شَبِيهَا بِمَسِيلِ التَّلَاعِ يَوْمَ التَّقِيْنَا
أَعْمَلْتُ ظَرْفَهَا إِلَى وَقَالَتْ حَبَّ بِالسَّائِرِينَ زَوْرًا إِلَيْنَا
نَمْ قَالَتْ لِأَخْتِهَا قَدْ ظَلَمْنَا إِنْ رَجَعْنَاهُ خَائِبًا وَاعْتَدِينَا
فِي خِلَاءٍ مِنَ الْأُنَيْسِ وَأَمْنٍ فَشَفِينَا غَلِيْلَهُ وَاشْتَفِينَا
وَضَرَبْنَا الْحَدِيثَ ظَهْرًا لِبَطْنٍ وَأَتَيْنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا اشْتَهَيْنَا
فَسَكَّمْنَا كَذَاكَ عَشْرًا تَبَاعَا فَقَضَيْنَا دِيُونَنَا وَاقْتَضَيْنَا
كَانَ ذَا فِي مَسِيرِنَا وَرَجَعْنَا عِلْمَ اللَّهِ مِنْهُ مَا قَدْ نَوَيْنَا

وكانت الثريا جميلة^(٤) ، فنعلق بها عمر ، وله معها حوادث كثيرة يروى أبو الفرج أطرافاً منها ، فتارة ترضي عنه فتزوره^(٥) ، وتارة تغضب عليه^(٦) ، وهي في الحالين تمثل الإدلال والإعجاب بنفسها

(١) أغاني ١/ ٢٣٦ . (٢) أغاني ١/ ٢١٢ .

(٣) أغاني ١/ ٢٢٨ وانظر الديوان ص ١٠٦ .

(٤) أغاني ١/ ٢١٢ . (٥) أغاني ١/ ٢٣٢ .

(٦) أغاني ١/ ٢٣٠ .

وبجملها . وغضبت عليه ذات مرة ، وامتنعت أن تلقاه ، فتولاه عمر ،
إذ رأى الفتاة الأولى في مكة التي تعجب بفنه ، والتي تشتهر بذوقها
قد انصرفت عنه ، وإنه ليفكر في حبه من جهة وفي فنه من جهة
أخرى ، فنراه يقول ^(١) :

مَنْ رَسُولِي إِلَى الثَّرِيَّا فَإِنِّي ضَعْتُ ذَرْعًا بِهِجْرَهَا وَالْكِتَابِ
مُصَلِّبَتِي بِمَجَاجَةٍ ^(٢) الْمَسْكِ عَقْلِي فَسَلُّوْهَا مَاذَا أَحَلَّ اغْتِصَابِي
وَهِيَ مَكْنُونَةٌ تَحْيَّرَ مِنْهَا فِي أَدِيمِ الْخَدَيْنِ مَاءُ الشَّبَابِ
أَبْرَزُوْهَا مِثْلَ الْمَاءِ تَهَادَى بَيْنَ خَمْسِ كَوَاعِبِ أَتْرَابِ
ثُمَّ قَالُوا تَحْبُّهَا قُلْتُ بَهْرًا عَدَدَ الْقَطْرِ وَالْحَصَى وَالتَّرَابِ
وبروي أبو الفرج أن ابن أبي عمير « سمع هذه الأبيات في المدينة ،
فقال : إياي أراد وبني نوءه ! لا جرم والله لا أذوق أكلا حتى أشخص ،
فأصلح بينهما . ونهض ، ونهض معه مولاة بلال ، فجاء إلى قوم من بني
الدُّثَلِّ بن بكر لم تكن تفارقهم نجائب لهم يُكْرَوْنَهَا ، فاكترى منهم
راحتين وأغلى لهم . . . ثم ركب إحداها وركب بلال الأخرى ، فسار
سيرا شديدا ، فقال له مولاة : ابق على نفسك ، فإن ما تريد ليس
يقوتك ، فقال له : ويلك (أبادر حَبْلَ الْوَدِّ أَنْ يَتَقَضَّبَا) وما حلاوة الدنيا
إن تمَّ الصَّدْعُ بَيْنَ عَمْرِو وَالثَّرِيَّا . وقدم مكة غير محرم ، فدق على عمر بابه

(١) أغاني ١/ ٢٢٢ . (٢) مجاجة المسك : يريد طيب ريقها .

فخرج إليه ، وسلم عليه ولم ينزل عن راحلته ، فقال له : اركب أصلح
بينك وبين الثريا ، فأنا رسولك الذي سألت عنه ، فركب معه وقدم
الطائف . وكان عمر أرضى أم نوفل ، فكانت تطلب له الحيل
لإصلاحها فلا يمكنها . فقال ابن أبي عتيق للثريا : هذا عمر قد جَسَمَنِي
السفر من المدينة إليك ، فجئتُك به معترفا لك بذنب لم يحنه ، معترداً
لك من إساءته إليك ، فدعيني من التعداد والترداد ، فإنه من الشعراء
الذين يقولون ما لا يفعلون . فصالحته أحسن صلح وأتمه وأجمله ^(١) .
ورجع ابن أبي عتيق مع صاحبه إلى مكة ، ثم تركه إلى المدينة .

وأظن في هذا الخبر ما يدل على حياة هذه الطبقة المترفة من أبناء
قريش وبناتها ، أو من رجالها ونسائها ، فقد تحضر القوم وأصبح هناك
الجوارى اللائى يدخلن بين الرجال والنساء من أمثال أم نوفل ،
وأصبحت المرأة القرشية ذات شخصية في المجتمع الجديد . ولسنا ندري
فيم غضبت الثريا ؟ هل غضبت لأن عمر تغزل في قرشيات غيرها ،
أو غضبت لأنه ذكر في غزله ما يشينها ؟ . أما الرواة فيقولون إنها
غضبت عليه لأنه تغزل في رملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية
حين حجت ^(٢) . وأكبر الظن أنه لم يذهب عن الثريا أن مثل
هذا الغزل غزل عابر ، ولذلك كنا نميل إلى أنها غضبت عليه
لإحدى اثنتين : إما لأنه لا يحتشم في غزله معها ، وإما لأنه بدأ يتركها

(١) أغاني ٢٢٢/١ وما بعدها . (٢) أغاني ٢١٤/١ وما بعدها .

إلى فتاة أخرى في مكة لعلها كلتم الخزومية التي اقترن بها ، ففي غزله
أن الثريا كانت تود لو يكون لها بَعْلًا^(١) :

قد تمنيت أنى لك بَعْلٌ قلت بل ليقنى بخدك خلا
ولسنا ندرى لماذا لم يحقق ابن أبى ربيعة للثريا أمنيتها ، فحياة عمر
وحياة الثريا ليست مكشوفة لنا تمامًا في ديوانه . يقول^(٢) :

خبروها بأننى قد تزوّجتُ فظلتُ تكاتم الغيظ سِرًّا
ثم قالت لأختها ولأخرى جزعاً ليقه تزوّج عسرا
وأشارت إلى نساء لديها لا ترى دونهن للسّر سترًا
ما لقلبي كأنه ليس منى وعظامي إخال فيهن فترًا
من حديث نى إلى فظيع خلت في القلب من تلّظيه جمرًا

فإذا صح أن هذه الأبيات قالها في الثريا بعد زواجه من كلتم ، فإن
عمر يكون حينئذ غير وفي لحبه . وفي أخباره أنه كان ملولاً طرِفًا .
على أنه ربما كانت الثريا هي التي امتنعت عليه ، فإن الرواة يحدّثوننا
أنها تزوّجت من سهيل^(٣) بن عبد العزيز بن مهروان ، وأكبر الظن
أنها اختارته على عمر ، ولعله من أجل ذلك تولى أسيفاً يقول^(٤) :

(٢) الديوان ص ٢٣٤ .

(١) الديوان ص ١٤٠ .

(٣) أغاني ١/٢٣٣ .

(٤) أغاني ١/٢٣٤ .

أيها المنكحُ الثريَّ مُهَيَّلًا عَمَّرَكَ اللهُ كيف يلتقيان
هي شاميةٌ إذا ما استقبلتُ ومُهَيَّلٌ إذا استقبل يمانى
ويستمر الرواة ، فيقصون علينا لوعة عمر بعد زواج الثريا من سهيل
وتدلهه ، وحرقة قلبه وفؤاده . ويروون له فيها هذه الأبيات الطريفة التي
كتب بها إليها ، ينفث فيها حبه وشوقه ^(١) :

كَبَيْتُ إِلَيْكَ مِنْ بِلْدِي كِتَابَ مَوْلَى كَمِيدٍ
كُتِبَ وَاكْفِ الْعَيْنَيْنِ بِالْحُسْرَاتِ مَنْفَرْدٍ
يُورِقُهُ لَهيبُ الشَّوْقِ فِي بَيْنِ السَّحَرِ وَالْكَبَدِ
فَمِمْسِكَ قَلْبَهُ يَبِيدُ وَيَمْسَحُ عَيْنَهُ يَبِيدُ
وبهذه الأبيات تنتهي قصة عمر مع الثريا في كتاب الأغاني
وفي ديوانه . وهي القصة التي تفضح خطوطها بين قصصه . أما بعد ذلك
فلا نكاد نجد له على السنة الرواة قصة تتكامل .

على أن من يرجع إلى أخبار عمر في الأغاني يجد اسم سيدة أخرى
أكثر من الشعر فيها والتعلق بها ، وهي زينب ^(٢) بنت موسى الجهمية .
وتدل أخبارها في الأغاني على أنها من أهل المدينة ، فابن أبي عتيق هو
الذي عرفه بها وأثنى على حسنها وجمالها ^(٣) . وتتردد في شعره بها أسماء

(١) أغاني ١/ ٢٣٥ . (٢) أغاني ١/ ٩٣ .

(٣) أغاني ١/ ٩٥ وأنظر الديوان ص ٤٧ — ٤٨ .

لمواضع بالمدينة مثل الصَّورين^(١) وهو بالبقيع في المدينة . ويظهر أن أول لقاء بينهما كان في مكة ، فإنها خرجت مع أخيها إلى الحج ، فعرّض لها عمر وكفّه أخوها قدامة أول الأمر^(٢) ، ولكن أخيه لم تلبث أن تعرضت له ، مدلةً بحالها وما وهبته من إغراء وفطنة ، يقول عمر^(٣) :

ما زال طَرْفِي يَحَارُ إِذْ بَرَزْتَ حتى رأيت النقصان في بَصَرِي
أَبْصَرْتُهَا لَيْلَةً وَنَسَوْتُهَا يَمْشِينَ بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْحَجَرِ
قَالَتْ لَتَرْبٍ لَهَا تُحَدِّثُهَا لِنَفْسِدَنَّ الطَّوْفَ فِي عُمْرِ
قَوْمِي تَصَدَّقِي لَهُ لِيَعْرِفُنَا ثُمَّ أَعْزِيهِ يَا أُخْتُ فِي خَفَرِ
قَالَتْ لَهَا قَدْ غَمَزْتَهُ فَأَبَى ثُمَّ اسْبَطَرْتُ^(٤) تَسْعَى عَلَى أُرَى
مَنْ يُسْقَى بَعْدَ الْمَنَامِ رِيْقَتَهَا يُسْقَى بِمَسْكِ وَبَارِدٍ خَصِرِ^(٥)

وانعقدت أواصر المودة بينهما فيما يظهر أثناء الموسم . فهي من شريفات قریش ونبيلاتهم اللاتي يبرزن للرجال ويتحدثن معهم . وهي جميلة ، يغري جمالها كل من رآها بالنظم فيها . وقد أعجبت بعمر ، كما أعجبت به من قبل فتاة مكة الثريا ، فالتقت به وأكثرت من اللقاء ،

(١) أغاني ١٠٥/١ وكذلك النصف ، انظر أغاني ١٨١/١ وهو موضع

بالقرب من المدينة .

(٢) أغاني ٩٨/١ .

(٤) اسبطر : أسرع .

(٣) أغاني ١٠٣/١ .

(٥) خسر : بارد .

وكان المجتمع وما أصابه من تحضر يبيح ذلك ، ولا يجد فيه ما يشين
الفقاة . وأخذ عمر يستخدم أفاعيه أو بعبارة أخرى جواريه اللاتي كان
يرسل بهن إلى من يهواهن ، يقول في بعض غزله بها^(١) :

لقد أرسلتُ جاريتي وقلت لها خذي حذرًا
وقولي في ملاطفةٍ لزَيْنَبَ نَوّلي عمرا
فهزّت رأسها عجبًا وقالت مَنْ يذا أمرًا
أهذا سحرَكَ النسوا نَ قد خبّرني الخبرا

وفي أخبار الأغاني ما يدل بوضوح على أن أهل زينب لم يعجبوا
بغزل عمر في فئاتهم ، فطلبوا إليه منذ أول الأمر أن لا يتغزل بها . ولعل
ذلك ما جعله يكتفي عن اسمها كُنًى مختلفة ، فقد كنى عن اسمها بهند ، وتنبه
أبو الفرج أو تنبه الرواة لذلك ، فأضافوا إلى أصواته في زينب أصواتًا
نوّه فيها بمن تسمى هنداً^(٢) . ومعنى ذلك أنهم لاحظوا أنه يريد بهند
في غزله زينب الجمحية . ومن يتتبع الأخبار التي تقرن بزَيْنَبَ يحدها
تقرن بهند ، فعمري ذكر أنه أظل زينب في يوم ماطر معه بثوب
مورد :

وما نلت منها حَرَمًا غير أنفا كلانا من الثوب المورّد لابسُ
ونراه يكرر ذكر هذه الحادثة في غزله بهند^(٣) . وإذن فهذه هي

(٢) أغاني ١/ ٩٩ .

(١) أغاني ١/ ٩٣ .

(٣) أغاني ١/ ١٨٣ .

نفسها زينب الجحمية . وقدأكثر من الحديث عنها في ديوانه ، وتردد اسمها في أصوات المغنين بمكة والمدينة . وربما كان مما يدل أيضا على أن هندأهى نفسها زينب أنفا نجد جارية تسمى « أسماء » تقترن في الغزل بهما جميعا ، وكانت جارية لزينب ^(١) ، وهى غير أسماء جارية ^(٢) عمر . ومن الرسل أيضا بينهما بشرة ^(٣) وأروى ^(٤) وسليمى ^(٥) . وفى هذا ما يدل على أن الرواة لم يوقفوا حين زعموا أن عمر تغزل فيمن تسمى هندأ ^(٦) بنت الحارث المرية ، فهو اسم لفقوه حين وجدوا اسم هند يشيع فى شعره ، ولم يجدوا أخباراً تكشفه لهم . ولسنا نشك فى أنها هى نفسها التى أرادها عمر بقوله ^(٧) :

قال الخليلُ غداً تصدُّعُنا أو بعده أفلا تُشيعُنا
لتشوقنا هندٌ وقد علمتُ علماً بأنَّ البينَ يُفزعُنا
عجباً لموقفنا وموقفها وبسمع تزييها تراجعنا
ومقالها مرّ ليلةً معنا نعهدُ فإنَّ البينَ فاجعنا
قلت العيون كثيرةٌ معكم وأظن أن السيرَ مانعنا

(١) الديوان ص ١٥٣ . (٢) أغاني ١/١٦٥ .

(٣) الديوان ص ٨٩ . (٤) الديوان ص ١٣٠ .

(٥) الديوان ص ٥٥ ومن الرسل أيضاً بينهما قريب أوقريبة . انظر الديوان

ص ١١ ، ص ١٠٦ ، ص ١٣٢ .

(٦) أغاني ١/١٥٤ وانظر ١/١٧٥ .

(٧) أغاني ١/٩٠ .

لا بل نزوركُم بأرضكم فيطاع قائلكم وشافعنا
وهذه القطعة في رأينا قالها حين همت زينب بالمسير من مكة ،
أما ما يزعمه الرواة من أنه قالها في فتاة لمحمد بن الأشعث فهو غير صحيح .
وأكبر الظن أنه يريد بالعيون التي معها أخاها قدامة الذي مر ذكره .
وتبعته بنفسه إلى المدينة ، والتقى في الصّورين ، ونعم بلقائها كما في
شعره وأخباره مراراً^(١) .

وليس اسم هند هو الاسم الوحيد الذي اصطنعه لزينب ، وكنّاها
به ، فقد كنّاها على ما يظهر كُنّى مختلفة . ولعل أهم كنية كنّاها بها بعد
هند كنية نَع . واسم نعم هو الاسم الثاني بعد هند الذي يدور في ديوانه
وشعره . وتنبيه أبو الفرج إلى أن نَمَا هذه جمحية^(٢) ، ولكنه لم يربط
بينها وبين زينب ، وكان ينبغي أن يلتفت إلى ذلك ، فحديثه إلى نعم
فيه نفس الصبابة التي نجدّها في حديثه إلى هند أو قل إلى زينب .
وأيضاً فإن بعض القصص الذي يروى عنه مع هند يروى له مع نعم^(٣) .
وتنبيه أبو الفرج نفسه في موضع آخر من الأغاني إلى أن اسم نعم
اسم رمزي^(٤) ، وأن عمر قد يسمى صاحبة هذا الاسم باسم ذات
الخال^(٥) ، وأظننا لم ننس صلة ابن أبي عتيق بحب عمر لزينب ، فهو الذي

(١) أغاني ١/١٥٤ ، ١/١٧٥ وانظر ١/١٠٥ .

(٢) أغاني ٤/٢١٣ . (٣) انظر أغاني ٤/٢١٣ .

(٤) أغاني ٩/٢٣٩ وما بعدها . (٥) أغاني ٩/٢٣٩ .

وصفها له . ومن هنا كان ابن أبي عتيق^(١) يتردد في غزل عمر بالثلاث ،
أو بالفتاة ذات الأسماء الثلاث زينب وهنسد ونعم ، بل ذات الأسماء
والسكنى الكثيرة ، فهي تكنى هنداً ونعماً وذات الخال وتكنى أيضاً
أو تسمى جُملاً^(٢) ، فهو يذكّر مع جمل هذه البلاط وهو من نواحي
المدينة ، وتكنى أيضاً أو تسمى رامة^(٣) ، وجاء في بعض الأصوات :

حُجَم يا آل نُعْم قاتلي ظهر الحبِّ بحسبي وبَطَنُ
واستبدل الشطر الأول في بعض الروايات هكذا (إن حبي آل
ليلى قاتلي^(٤)) . ولعل في هذا ما يكشف عن العلاقة بين نعم وليلى في
الديوان ، فليلى اسم آخر سميت به نعم أو سميت به زينب . وإذن فلسنا
في حاجة إلى هذا القصص الذي يروي عنه وعن تسمى ليلى بنت
الحارث البكرية ، فهي مثل صاحبها هند بنت الحارث المريّة ، إنما
اجتلبت ليُفسر هذا الاسم ليلى الذي يدور في شعر عمر .

وإن من يقف على مدى ما صنعه الرواة في أخبار عمر من تلفيق
لأسماء فتيات ونساء تغزل فيهن يعرف إلى أي حد تصاب الرواية الأدبية

(١) انظر أغاني ٩٥/١ وما بعدها وكذلك ٢٤٢/٩ وهو يذكره تارة
باسم بكر وتارة باسم عتيق . انظر أغاني ٢٤٢/٩ والكمال للمبرد طبع وايت
ص ٣٧٣ وانظر الديوان ص ١٩ .

(٢) الديوان ص ١٠٧ . (٣) انظر أغاني ٢١٩/٨ . وقد كنّى
عمر عن الزيا كثيرأ باسم الرباب . انظر الديوان ص ١٨٠ إذ تذكر مع الزيا في
مقطوعة واحدة .

(٤) انظر أغاني ١٥٧/١ وانظر هنا الهامش .

في كتياب الأغاني بالاضطراب . ولعل هذا الاضطراب لا يظهر في أخبار ظهوره في أخبار عمر، فقد كثرت الأصوات التي غنيت من شعره، وبالغ هو في الرمز عن صاحبه زينب فاضطرب الرواة ، وأرادوا أن يثبتوا له فتيات ونساء تغزل فيهن ، ولم يجدوا أمامهم سوى التلفيق ، وأن يصطنعوا مثل هذه الأفاصيص .

وكانت زينب كالثرثرا مترفة غاية الترف ، فبيتها يكتظ بالجوارى ، ويكاد عمر لا يذكر لقاء بينه وبينها دون أن يذكر من كان معها من جوارىها الحسان ، وما تغرق فيه من زينة الحلى وما يلون حياتها من نعيم ، حتى ليقول^(١) :

لو دبَّ ذرٌّ فوق ضاحي جلدِها لأبانَ من آثارهنَّ حُدُورُ
فهي منعمة مترفة مبالغة في النعيم والترف ، حتى إن الذر لو علق بحسمها لبانت فيها من آثاره كلوم وحدور وجروح . وأظن في هذا التصوير منتهى النعيم والترف .

ويظهر أن زينب تعلقت بعمر كما تعلقت به الثريا من قبل . وتعلق بها عمر تعلقاً شديداً لم يكده يُبقي فيه لأحد دونها بقية من ود أو حب ، حتى ليقول^(٢) :

ما أرى ما بقيتُ أن أذكر المو قفَ منها بالخيْفِ^(٣) إلا شجاني

(١) الديوان ص ١٥ وانظر في حليتها أغاني ٩٥/١ .

(٢) أغاني ٩٤/١ . (٣) الخيف : موضع "عند منى" .

لم تدع للنساء عندي حظاً غير ما قلتُ مازحاً بلساني
 هي أهلُ الصفاء والود مني وإليها الهوى فلا تغذلاني
 حين قالت لأختها ولأخرى من قطينٍ مولدٍ : حدّثاني
 كيف لي اليوم أن أرى عمر المُرّ سِلَّ سرّاً في القول أن يلقاني ؟
 قالتا نبغى رسـولا إليه ونُميت الحديث بالكتمان
 إن قلبي بعد الذي نلتُ منها كالعمى عن سائر النسوان
 وهذه اللفتة على زينب وأوقاتها ومجلسها نجدها دائماً في غزله ،
 وقد جذبه خيوط جماها إلى موطنها المدينة ، فذهب إليها واستطاع
 لقرايته منها ، إذ يخاطبها دائماً بابتة العم ، أن يصل إليها وأن يظفر منها
 بمجالس مع صواحبتها ، واسمعه يقول ^(١) :

أيها الكاشحُ المعيرُ بالصرِّ م ترحزح فما لها الهجرانُ
 لا مطاعٌ في آل زينبَ فارجعُ أو تكلمُ حتى يملّ اللسان
 نجعل الليل موعداً حين نُمسى ثم يُخفى حديثنا الكتمان
 كيف صبري عن بعض نفسي وهل يصبر عن بعض نفسه الإنسانُ
 فعمر لا يخشى الكاشح في آل زينب ، فإنهم لا يأبون على ابن
 عمهم لقاء فياتهم ، إذ كانت من شريفات المدينة اللاتي من حقهن أن

(١) أغاني ١/ ١٠٢ .

يلقن الرجال وأن يبرزن لهم . وصرّ أن مجتمع مكة ومجتمع المدينة حظيا بضروب من الحضارة أتاح للمرأة حظوظا من الحرية ، وأعطاهما حقوقا في الحياة . ومهما يكن فقد أغرم عمر بصاحبته وتدلّه بها وذهب يروى قصة حبه لها والموضع الذي رآها فيه لأول مرة وهو الخيف ، فاستمر يردد ذكره في شعره^(١) :

دينَ هذا القلبُ من نُعمٍ بسقامٍ ليس كالشقمِ
إنَّ نُعمًا أقصدتُ رجلا آمنا بالخيفِ إذ ترى

وليس من ريب في أن السهم تعمق فؤاده حتى الشفاف ، فإن عمر تبع صاحبته طويلا في شعره وتبعه المغنون يغنون هذا الشعر الذي يُحَدِّثه عمر في زينب تارة باسمها الحقيقي ، وتارة أخرى باسمها المستعار هند أو نُعم .

ومهما يكن فنجن نستطيع الآن أن نفهم شعر عمر الغنائي في صورة مقاربة ، فقد دار هذا الشعر حول فتاتين قرشيتين ، أو قل دار معظمه ، وهما الثريا وزينب . وكان حبه للثانية أشد عنفاً فإنها استغرقت ، استغرقت قلبه وفؤاده ، وكادت تنسيه من عداها من بنات ونساء جنسها وقومها من القرشيات .

وراء هاتين الفتاتين في شعر عمر تأني صور أخرى لقرشيات وغير

(١) أغاني ٤/٢١٥ وانظر ٩/٢٤٣ .

قرشيات ، ولكنها صور عابرة التقطتها مخيلة عمر أثناء الحج . وفي ذلك يقول في بعض شعره ^(١) :

ولم أرَ كالتَّجْمِيرِ مَنْظَرَ نَاطِرٍ ولا كإليالي الحج أَفْلَتَنَ ذَا هَوَى
فكم من قتيلٍ ما يُبَاءُ ^(٢) به دَمٌ ومن غَلِقٍ ^(٣) رهناً إذا لَقَّه مِنَى
ومن مالى عَيْنِيهِ من شَيْءٍ غَيْرِهِ إذا راح نحو الجمرَةِ البَيْضِ كالذَّمَى

ويظهر من شعر عمر ونظرائه أنهم كانوا يرصدون الحجاج ، وكانوا يفردون للجميلات منهن صفحات في دواوينهن . وقد أخذ الشاعر المكي في هذه العصور يشبه تمام الشبه صحفي عصرنا الحديث ، فبما أن هؤلاء يعنون بأن يمثلوا في صحفهم صور المجتمع وأخباره بنسائه وفتياته ، فكذلك كان شعراء مكة في العصر الأموي وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة ، فقد كانوا يعنون بأن يذيعوا صور نبيلات قريش اللاتي يفتدن على مكة وكذلك نبيلات العرب ؛ وأصبح عمر يرى في الحج فرصة هائلة للاستعراض : استعراض الفتيات والنساء ممن اشتهرن بالجمال في بلدانهن أو في أنحاء العالم الإسلامي ، وكان يجد في تتبعهن واستعراضهن لذة لا تقدر ، ولعل ذلك ما جعله يقول ^(٤) :

ليت ذا الدهرَ كان حَتَمًا عَلِيًّا كلَّ يومين حِجَّةً واعتامًا

(١) أغاني ٦٢/٩ . (٢) بياء به : يقتل به .

(٣) غلق الرهن : لم يستطع الراهن اقتساكه .

(٤) أغاني ٦٣/٩ .

وعُتِبَ عليه عبد الله بن عمر حين أنشده هذا البيت ، وقال له :
 أما تبقى الله ؟ فقال له عمر : بأبي أنت وأمي ، إني وضعت لبيتاً حيث
 لا تغنى . فعبد الله بن عمر يَعَجَبُ منه إذ يدعو أن تكون الأيام كلها
 حجا وعمره ، وهو لا يريد الحج والعمره من حيث هما ، وإنما يريد
 ما يحملان إليه من النسوة الجميلات . وصر في غير هذا الموضع أنه
 كان يخرج في طريق ذات عِرْقٍ يتلقى العراقيات ، وفي طريق الكديد
 يتلقى الشاميات وفي مَرَّ يتلقى المدينيات ، ويعود معهن فيشترك في رعى
 الجمار والطواف ليطلع عليهن . يقول في بعض شعره ^(١) :

يقصد الناس للطواف احتساباً وذنوبى مجموعةً في الطوافِ
 ويخيل إلى الإنسان أن عمر لم يترك قرشية جميلة تخرج إلى مكة
 دون أن يتغنى بها ، ويصف محاسنها وفتونها .

وهذا كله إنما كان يأتي في شعره عرضاً ، وإن كان عمر
 على ما يظهر ، قد بالغ في الوقوف عند الحواج وفي استعراضهن بنفس
 الشكل الذي قد نجده عند بعض الصحفيين حين يعلن عن بعض النساء
 اللاتي لا يُحِبُّن الإعلان عن أنفسهن .

وراء فتاى عمر وحواج قريش وبعض شريفات العرب ، نجد
 في شعره الغنائى غزلاً في جاريتيه بغوم وأسماء ^(٢) . وأكثر من ذكر

(١) عيون الأخبار ١٠٧/٤ . (٢) أغاني ١٦٥/١ .

الثانية والتشبيب بها واختلطت صورتها على الرواة ، فظنوا أنها سيدة حرة أحياناً^(١) .

وعلى كل حال الصورة الأساسية في شعر عمر هي الغزل بالثريا وزينب ، وقد عبّر عما كانا فيه من ترف ونعيم ، وما تميز به المجتمع حينئذ من حرية تحت تأثير الحضارة الجديدة التي دخلت مكة والمدينة وما صاحبها من الجوارى الأجنبية .

وليس من ريب في أن شعر عمر طريف من هذه الناحية إذ يصور تصويراً دقيقاً مبلغ ما أصاب المرأة القرشية في عصره من تحضر ، وما طوى في هذا التحضر من ترف ونعيم . وكان ذوق عمر نفسه ذوقاً مترقفاً غاية الترف ، فيه دقة ، وفيه حساسية شديدة ، وفيه أدب وظرف ، واستمع إليه يقول^(٢) :

ليت حظي كطرفة العين منها وكثير منها القليل المهنأ
أو حديث على خلاء يسلى ما يُجنُّ الفؤاد منها ومناً
كبرت ربّ نعمة منك يوماً أن أراها قبل المات ومناً
فهو يرق في أمانيه رقة شديدة هي رقة الرجل المتحضر الذي نشأ
في الترف والزينة ، بل الذي غرق فيهما ، غرقت عينه وغرقت نفسه .
وارجع إلى هذا الشعر الذي أشدناه كله لعمر ، فإنك ترى فيه

(١) انظر أغاني ١/١٣٤ . (٢) أغاني ١/١٤٩ .

آثار هذا التحضر وهذا النعيم سواء في أحاديث المرأة التي يقصُّ عمر
أحاديثها ، أو في تصوير نفسيتهما ووصف خواطرهما . ونفس عمر يتراعى
شباباً مترفاً غاية الترف ؛ فيه إِدلال المترفين وفيه تيههم وعُجبهم . ولعل
لنشأته أثراً في ذلك ، فقد كان وحيداً أمه ، وكانت غريسة عن مكة ،
فكان كلَّ شيء في حياتها . وورثاً معاً ثراء عظيم ، فدلّيته ، ونشأته
على الإِدلال والإعجاب بالنفس ، وتصادف أنه كان جميلاً . وليس بين
أيدينا من الوثائق ما نعرف به إلى أي حد كانت أمه تعنى بملابسه
وعطوره ، ولكن تقدم أنه كان يعنى ، وهو كبير ، بحلله وزينته وطيبه .
وأكبر الظن أنه بدأ ذلك في حدائمه واستقر معه في بقية حياته . وماذا
نريد إلى أم مات زوجها ، ولم يبق لها من دنياها إلا هذا الطفل الصغير ؟
إنها لابد تبالغ في زينه ، وخاصة إذا كانت مثل أمِّ عمر قد ورثت
كثيراً من الذهب والفضة .

وهذه الذشاة المترفة عند عمر ، أو قل هذا الذوق المترف هو الذي
طبع شعره بطابع الإِدلال والإعجاب بالنفس مما جعله في كثير من جوانبه
لا يصور فقط حبه للمرأة وما يلاقى فيه من عذاب وحرمان وما يتعطش
إليه من وصل ولقاء ، وإنما يصور أيضاً حبها هي له وعذابها في الحب
ورغبتها الشديدة في رؤيته ولقائه . ولا حظ القدماء ذلك ، فقالوا إنه
يقعزل بنفسه لحسنه وجهه^(١) . وفي أخباره أنه أنشد ابن أبي عتيق :

بينما يَنْعَتِدْنِي أَبْصَرَ نَفْسِي دون قِيدِ المِيلِ يَعدُو بِي الأَغْرُ
قالت الكبرى أتعرفن الفتى قالت الوسطى نعم هذا عُمَرُ
قالت الصغرى وقد تَيَمَّمْتُهَا قد عرفناه وهل يَخْفَى القَمَرُ

فقال له ابن أبي عتيق : أنت لم تَنْسُبْ بها وإنما نَسَبْتَ بنفسك ،
كان ينبغي أن تقول : قلت لها فقالت لي ، فوضعت خدي ، فوطئت
عليه ^(١) . والمسألة في الواقع لم تكن مسألة جمال عمر فحسب ، وإنما
كانت مسألة ذوق مترف أفسد الشعور الطبيعي عند عمر ، فجعله يشعر
بجماله أمام المرأة ، أو قل بشخصيته ، فإذا هو يجعل نفسه شغل الفتيات
الشاغل ، فهن يفتننه ويصفنه وكأنه ليس في أذهانهن سواه ، وما يلوح
لهن على فرسه من بعيد حتى تسأل كبراهن عنه ، فتجيب الوسطى هذا
عمر ، وتكتفي بذلك ، فهو العلم الذي لا تجهله فتاة في مكة . وأما الصغرى
فقد تيمها ونفذ حبه إلى قلبها ، فأجابت : قد عرفناه وهل يخفى القمر ،
كأنها تلوم أختها على التساؤل ، فهو الفتى الذي شغل فتيات مكة والذي
يقول عنهن ^(٢) :

وَكُنْ إِذَا أَبْصَرَ نَفْسِي أَوْ سَمِعَنِي سَعَيْنَ فَرَقَعَنَ الكُوى بِالْحَاجِرِ
وهن لا يكتفين بالنظر إليه من الكوى أو من وراء الحجاب ،
بل يسمعن إليه ، ويحاولن أن يشعرنه بوجودهن وأن يستملنه . وهن

يستعملن في ذلك ضروب الإغراء المختلفة من ابتسامة بالشفة أو إشارة بالعين ، يقول في بعض غزله ^(١) :

أليست بالتي قالت لمولاة لها ظهراً
أشيري بالسلام له إذا هو نحونا خطراً

فهنّ اللأئي يلحقنه ، وهن اللأئي يتبعنه ، وهن اللأئي يسلن عليه من بعيد ، وهن اللأئي يشرن إليه ، أو يغمزنه أثناء سيره . فعمري كثير من غزله هو المتبوع لا التابع والمعشوق لا العاشق ، قد تيمّ النساء وملاهن صباية به وحبا ، حتى الثريا وزينب فإنه يصف دائماً إعجابهما به وطلبهما له وأخذها الموعد منه ^(٢) . ومن الطريف في هذا الصدد أن نجد كثيراً يذكر الوشاة والواشين على عادة المحبين ولكن لا يشكو منهم ، وإنما ليث شكوى صواحيبه ، فهن اللأئي يتحدثن بالشكوى منهم . يقول في بعض غزله بزینب ^(٣) :

ولما التقينا سَلَمْتُ وَتَبَسَّمْتُ وقالت كقول المفرضِ الْمُتَجَنَّبِ
أمن أجل واشٍ كاشحٍ بنميمةٍ مشى بيننا صَدَقْتِه لم تَكْذِبِ
قطعت وصال الحبلى منا ومن يطعم بذى ودّه قول الحرّشِ يُعْتَبِ
فهو لا يطلب الوصل من صواحيبه ، وإنما هن اللأئي يطلبنه ،

(١) أغاني ٩٢/١ .

(٣) الديوان ص ١٧٨ .

(٢) الديوان ص ٨٠ — ٨١ .

ومن ثم هن اللاتي يعلنن الشكوى من الوشاة والواشين ، ويظهرن الألم من سماع محبوبيهن لهم وإيمانهن بما يقولون . وتكرر هذه الصورة كثيراً في شعر الثريا وزينب .

وعلى هذا النحو تطلبه المرأة دائماً في غزله ، فهي عاشقة له تتمنى قرب به ولقائه ، وتفقد في ذلك فنونا من اللهو البريء ، فترسل إليه بالرسل ، يقول في بعض غزله لزينب (١) :

إن هنداً قد أرسلت وأخو الشوق مُرسِلُ
أرسلت تسبيحني وتفدي وتعدُّ وتعدُّ

والرسل في ديوانه بينه وبين محبوباته كثيرة كثيرة مفرطة ، وهو يصور في ثنايا ذلك كله تعلق النساء به وتساقطهن عليه من كل جانب . ولا ريب في أنه يرضى بذلك دلّةً وتيهه وغروره وهذا الذوق المترف الجديد الذي يجعل الرجل يشعر بنفسه أمام المرأة ، ويحس أنه المعشوق لا العاشق ، حتى ليأخذ مواقف المرأة في حبها ، فيطلب أن لا تبوح باسمه (٢) :

ألم تعلمي ما كنت آليت فيكم وأقسمت لا تحسكين ذاكرةً باسمي
فهو لا يريد أن يُعرف اسمه ، ولا أن يذيع سره (٣) . وأثناء ذلك

(٢) الديوان ص ٢٨ .

(١) أغاني ١/ ١٨٣ .

(٣) الديوان ص ٨٥ .

كله يحكى صباية المرأة به وجهدها فى استرضائه^(١). وقد استطاع فى خلال هذا أن يصور كل ما يدور بنفس المرأة من خليجات وترهات وأفكار مضطربة مختلطة حيناً ومتناقضة حيناً آخر. وليس من ريب فى أن هذا الجانب وما يقصده به من وصف عشق المرأة له أهم شئ يميز غزل عمر وشعره من جميع الغزلين فى العربية.

واتخذ عمر لذلك طريقة امتاز بها هى حديث صاحبه مع جوارىها أو صديقاتها ، وأثناء هذا الحديث يكشف لنا عن حب صاحبه له وخليجاتها فى هذا الحب ، كما يكشف لنا عن أفكار المرأة فى مجتمعه وكل ما يميز هذه الأفكار من اختلاط واضطراب. وهذا لا شك يفيض على شعره حيوية ، فقيه قرب من الواقع ، وفيه هذا القصص عن النساء الذى يكشف عن نفسياتهن وما يضطربن فيه من أفكار وما تموج به أحاديثهن من متناقضات.

على أن عمر حين نزع هذا المنزع فى غزله فأكسبه هذا الحوار بين النساء الحجازيات فى عصره أو قل هذا القصص غير التيكامل ، فليست هناك عقدة ، وليست هناك قصة بالمعنى المألوف ، وإنما هناك حوار وضرب من القصص غير التام ، حين نزع هذا المنزع أصبح يشبه القصصيين من بعض الوجوه ، فقل الغموض فى غزله ،

(١) انظر الديوان ص ٣٧ .

لأنه كشف لنا عن كثير من الحقائق ، وحاول أن يستخدم تجربته ومعرفته بمجموعته وبالمرأة في عصره ، وكأنما كان يحاول أن يزيل الحجاب عنها وعن نفسها .

وفي رأينا أن هذه المحاولة لم تكن تامة ، فإنه حاول ذلك من خلال الإعجاب بنفسه وما تميز به من دللّ وتيهه . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية اضطره هذا الاتجاه الجديد في غزله ، اتجاه القصص ، إلى أن يدخل بنا في تخيلات كهادة القصاصين ، فهم يخرجوننا من عالمنا إلى عالم مليء بتخيلاتهم .

ومن هنا يكون من المبالغة أن نسمى بعض شعره غزلا إباحيا ، فلا إباحية فيه ، إنما فيه القصة وخيال القصاص . ولعل هذا قد غاب عن القدماء فقد اضطربوا في عمر : أعفيف هو أم غير أعفيف^(١) ، ونسوا أن ابن عباس كان يحفظ كثيراً من شعره كما قدمنا في غير هذا الموضع ، وكأنه عرف أن عمر إنما يقص ويحاول أن يبرز ، كهادة القصاصين ، العناصر العاطفية في المجتمع .

وهذه الروح القصصية التي أملت هذا الشعر الغنائى لعمر تعاونت مع طبيعة هذا الشعر لا في قربه من النفوس فحسب ، بل في قربه أيضاً من الألسنة ، فمن أهم ما يميز هذا الشعر الذى أنشدنا كثيراً منه أن لغيته مألوفة ، وأكبر الظن أنها كانت من نفس لغة الناس اليومية .

(١) أغاني ٧٤/١ وما بعدها وانظر الحيوان ٨٣/٢ .

نستطيع إذن أن نقول إن الشعر الغنائى الذى كان يُغنى هذا العصر فى المجالس والنوادى ظفر عند عمر بنوعين من التطور يتلاءم والجمهور الذى يستمعه ، أما النوع الأول فهو هذه الروح القصصية التى تعبر عن مشاعرهم فى وسطهم ، وكأن عمر يريد أن يكون وسيطا بينهم وبين أفكارهم وتخیلاتهم ، وأما النوع الثانى فهو اتخاذ لغة هذا الشعر من لغة حياتهم اليومية . وبذلك أصبح الشعر الغنائى عند عمر يعبر عن محيط المكين تعبيراً دقيقاً ، محيط مجتمعه وما فيه من أفكار مضطربة مقنقة ، ومحيط لغتهم فى حياتهم التى تجرى تحت أعينهم .

وأتاح طريقة الرمز التى رأيناها عند عمر فى زینب أن يتوسع فى خياله وفى أقاصيصه . ومن يدرى لعله كان ينسى أحيانا أثناء هذا الرمز صاحبه التى يقول فيها ، فيعمد إلى القصص الخيالى عن نعم وهند ونحوها من الرموز الكثيرة فى ديوانه وشعره .

والذى نريد أن ننفذ إليه من هذا كله أن عمر توسع فى قصصه ، وأن هذا القصص دعاه إلى أن يستخدم اللغة المألوفة ، كما تدعو إلى ذلك طبيعة القصص دائما ، وكان أكثر الغنين فى شعره من الأجانب ، فكان من الطبيعى لهذا كله أن تكون لغته قريبة دانية ، إن لم تكن مماثلة ، لنفس اللغة اليومية .

والشعر الغنائى فى الواقع من هذه الناحية شعر شعبى ، فهو شعر

يراد به إلى مسارح الشعب ، ونقصد المسارح الغنائية التي يختلف إليها . فهو شعر يخاطب الشعب في صهورة واسعة ، ولذلك يختاره أصحابه من لغته ، ولعل ذلك ما جعله يتطور في أقصى الغرب إلى الموشحات والأزجال .

وهذه الملاحظة في لغة الشعر الغنائى عند عمر تضاف إليها ملاحظة ثانية ولكنها لا تتصل بلغته ، وإنما تتصل بأوزانه وقوافيه ، فإن من يقرأ ترجمة عمر في كتاب الأغاني ويستعرض الأصوات التي غنى فيها المغنون يلاحظ أن أكثرها من الأصوات الخفيفة السهلة . وفرق بعيد جداً بين ديوان كديوان الفرزدق في هذا العصر وديوان عمر ، فالأول يميل إلى الأوزان الضخمة غير المألوفة ، كما يميل أيضاً إلى الإغراب في لغته وتراكيبه ، أما عمر فإنه يطلب الخفيف القريب في اللغة وفي الوزن جميعاً ، وقاما نجده يميل إلى الأوزان الطويلة المعقدة .

وكان أهم المغنين الذين يغنون في شعر عمر ابن سريج والغريص وكلاهما كما قدمنا كان يميل إلى الغناء الخفيف ، فطبعي أن يوفر لهما ذلك الجانب الشاعر الذي يغنيان في شعره . ويمكن لتوضيح ذلك أن يقارن القارئ بين عمر وابن سريج والغريص من جهة وبين الأحموص في المدينة ومغنيه معبد من جهة أخرى ، فقد كان معبد يميل إلى الأوزان الطويلة والصوت الضخم المتبلى ، وكذلك كانت جميلة مغنية المدينة

كما يظهر من استعراض الأصوات التي تغنت فيها ، وكان لذلك أثره في الأحوص ، فإن شعره يميل إلى الطول وقلما يعنى بالأوزان الخفيفة أو المجزوءة .

وعلى العكس من ذلك كان عمر يعنى عناية شديدة بالأوزان الخفيفة السهلة القريبة التي تطير عن الشفاه طيراناً ، والتي تسكاد تفحلاً بنفسها غناء خالصاً .

ومهما يكن فإن عمر استطاع أن يوفر لشعره الغنائى ضروباً واسعة من التسلاؤم بينه وبين حاجة المغنين في عصره ، وهى ضروب وقفت عند الوزن ولم تتعدّه إلى القافية ، فإن التعديل في القوافي تحت تأثير الغناء إنما تقوم به فيما بعد الأندلس . أما هنا وفي مكة أثناء العصر الأموى فإن التعديل وقف عند اختيار الأوزان الخفيفة من مثل الهزج والوافر والمتقارب والرمل والسريع والخفيف ، وإيثارها على الأوزان للعقدة الطويلة غالباً إلا أن تُجَزَّأ وتُقَصَّر ، وتقلّ كميّتها على نحو ما هو معروف في مجزوء الكامل ومجزوء الرجز . على أن عمر لم يكتف بمجزوءات البحور الطويلة ، فقد ذهب يجرّئ في البحور الخفيفة نفسها . فكان كثيراً ما ينظم على مجزوء الوافر من مثل قوله ^(١) :

(١) أغاني ٣١٢/١ وانظر ٢٣٥/١ ، ٣٠٣/١ ، ١٨٢/١ .

تبعثهم بطرف العين حتى قيل لي افتضعا
يودّع بعضنا بعضاً وكلّ بالهوى جريحاً
وكذلك المجزوءات الأخرى من مثل مجزوء الخفيف^(١) ومجزوء^(٢)
الرمّل . وعمر يميز في هذا الجانب تميزاً واضحاً . وقد جاءه من هذه
الملاءمة بين شعره وبين الغناء الخفيف عند ابن سريج والغريص .
والحق أن ابن أبي ربيعة نهض بالشعر الغنائي في عصره نهضة
واسعة سواء من حيث ما أشاع فيه من الروح القصصية ، أو من حيث
ملاءمته بين لغته ولفظة جمهور السامعين ، أو من حيث ملاءمته بين
أصواته وألحان المغنين .

ومن أجل ذلك كله يعد عمر زعيم هذا الفن من الشعر الغنائي في
العصر الأموي غير مدافع ، فقد أتاح له ضروباً من التطور وفنونا من
الرقى في المعاني والأفكار ، وفي اللغة والألفاظ ، وفي الأوزان والبحور .

٤

ديوانه

ترك عمر ديواناً كبيراً في الشعر العربي يندمج كله في هذه الصورة
التي وصفناها لشعره الغنائي . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن شعره كله شعر

(١) أغاني ٥٨/١ ، وانظر ١٧٢/١ ، ١٨٣/١ .

(٢) أغاني ١٧٨/١ .

غنائى قصد به إلى الغناء قبل أى شيء آخر . وماذا تريد من سيد شريف من أشرف مكة وثرى من أترائها فى العصر الأموى ينظم الشعر ويحميد نظمه ؟ إنه لا شك إنما يقصد به إلى التعبير فى حرية عن نفسه وعن مجتمعه ، وقد تعلق بقصة الحب التى شغلت حياته فصورها لنا بجميع أطرافها المختلفة .

فعر ، كما رأينا ، كان يعنى بوصف العناصر العاطفية لمجتمعه ، وقد تعلق بطبيعة المرأة يرسمها فى الشخصيات التى تعرف عليها ، عن طريق هذا الحوار الذى امتد به فى شعره والذى احتفظ به ككتاب الأغاني ، كما احتفظ به ديوانه . فلا فارق مطلقا بين هذا وذاك ، إذ الكل ينبع من معين واحد ويريد له الشاعر غاية واحدة ، هى وصف المرأة فى عصره وصفاً يطلعنا على جميع مشاعرها ، بل لعله يطلعنا على القوى الحركية للمجتمع كلها ، ونقصد قوى التحضر والحياة الاقتصادية حينئذ .

ومن هنا تأتى أهمية ديوان عر ، فهو يصور لنا قصة القلب الإنسانى كما كانت تنسج خيوطها فى هذا العصر وأيضا يصور لنا قصة المجتمع بجميع فصولها ورسومها وكل ما يطوى فيها من خصائص وسمات . واستعان عر فى ذلك بمخيلته كما رأينا وهذا الحوار المفتوح الذى لا يُغلق فى ثنايا ديوانه .

وعقلية عر من هذه الناحية تشبه عقلية القصصيين الذين يقصون

علينا فصول الحياة كما تقع في أخيلتهم ، وهم لا يعزلونها عن الحياة الواقعية بل هم يستمدونها منها ، وكذلك كان عمر يستمد حواراه الذي فتحه في ديوانه من تجاربه وخبراته التي شاهدها في حياته .

ولم يستطع عمر أن ينفذ إلى القصة بمعناها الكامل من عقدة أو حبكة روائية ، لأن فكرة القصة على ما يظهر لم تكتمل في نفسه ، لسبب بسيط ، وهو أنه كان يريد بهذا الشعر ، الذي يصنعه ، الغناء ، وأن يدور على ألسنة المغنيات والمغنين .

فشعر عمر كله الذي يحتويه ديوانه شعر أَلْفَ للغناء ، وحقا لم يُغَنَّ كله ، فهناك مقطوعات كثيرة منه لا نجد لها في كتاب الأغاني . على أنه ينبغي أن نحذر هذا الحكم ، لأن كتاب الأغاني إنما يسجل القطع التي لحنت تلحيناً ممتازاً لابن سريج والغريص وابن محرز وغيرهم من مغني مكة ، ومعبد ومالك بن أبي السمع وجميلة من مغني المدينة . أما بعد ذلك فلا بد أن قطعاً كثيرة من شعر عمر غنيت ولم يصلنا غناؤها بين هذه القطع الممتازة التي سجلها الرواة . ونفس الرواة يقولون : إن عمر كانت عنده جاريقان تغنيانه في شعره على نحو ما تقدم في غير هذا الموضع ، وكان ابن سريج والغريص يلزمانه لزوماً ، ولا يكادان يفارقانه إلا لماماً .

ولهذا كله نظن أن المقطوعات الأخرى في ديوان عمر التي لم يصلنا

غناء فيها، غُنِّيَ كثيرٌ منها، ولُحِّنَ، وخاصة أن عمر كما قدمنا كان ثريا ثراء مفردا ولم يكن له شغل إلا هذا الشعر. ومصرّ بفا كيف كان يعطى المغنين في تلحين بعض مقطوعات من شعره ألوف الدراهم.

وما أظن أن مثل عمر في ثرائه وغنائه يترك قطعة من شعره دون أن تُغَنَّى وتلحن وترتفع بها أصوات المغنين والمغنيات في داره وفي دور اللهو بمكة والمدينة.

وأكبر الظن أننا إذا قلنا بعد هذا كله : إن كل ما في ديوان عمر شعر غنائى بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، أى أنه غُنِّيَ ، أو على الأقل ألفَ لكي يغنى فيه المغنون ، لم نكن مباغين ولا متجاوزين للواقع في شيء ؛ فقد كان صاحبه يعيش للشعر والغناء جميعا ، وكانت حياته تقوم على العناية بالفنين ، أما عنايته بفن الشعر فعناية مباشرة ، وأما عنايته بفن الغناء ، فهي عناية مسببة أو معللة بالفن الأول الذى وهبه حياته وأصفاه نفسه .

وديوان عمر من هذه الناحية طريف في حياة الشعر العربى ، فهو أول شاعر يرصد شعره كله للغناء ، كما يرصد حياته كلها للعيشة في أوساط المغنين ، والاتئلاف معهم أثلافا تنقطر نتائجه في فنه . ومن هنا لا يكون غريبا إذا قلنا : إنه الشاعر الغنائى الأول بالمعنى الكامل لهذه الكلمة في تاريخ لغتنا العربية .

ولعل أهم ظاهرة سقطت في شعره وتجلت فيه تحت تأثير الغناء أنه ليس قاصداً بالمعنى المألوف القديم الذي كنا نفهمه للقصيدة ، فليس فيه مقدمات أطلال ، وليس فيه شيء خارج عن غايته ، إنما هو شعر يؤلف في الحب ، وهو يؤلف في مقطوعات قصيرة ، لأنه يراد به إلى الغناء لا إلى الإنشاء . وإذا استثنينا القصيدة الأولى في الديوان ، لم نجد بعدها قصيدة طويلة لعمر . وما لعمر وللطول ، وهو لا يريد أن ينشد المنشدون شعره في المحافل والجامع ، وإنما يريد أن يغنيه المغنون ، وهؤلاء لا يمتد نفْسهم إلى أكثر من خمسة أو ستة أبيات إلا في القليل النادر ، وقد كان ابن محرز يأبى أن يغنى في أكثر من بيتين .

وإذن فعمر لا يستطيع الطول في شعره ، لأن المغنين لا يعطونه الفرصة ، ولأن هذا الشعر نفسه الذي يقدمه إليهم بطبيعته شعر محدود ، يصف خواطر الحب عند الرجل أو عند المرأة أو عندهما جميعاً وهي في أصلها محدودة .

ومع ذلك فقد أتاح عمر لهذه المعاني أن تتسع وأن تطول قليلاً بفضل هذه الروح القصصية التي عمها في ديوانه والتي ذهب بصور فيها عواطف المرأة المتحضرة حين تحب ، وما يكون بينها وبين جواريتها من أحاديث عن صاحبها تارة ، وعن صواحب أخرى يحسدها عليه تارة أخرى ، وكذلك ما يكون بينها وبين صديقاتها من فنون قول .

وعمر طريف في هذه الفاحية طرافة بالغة في ديوانه ، فكل

من يقرؤه يحس أنه كان على علم دقيق بطبيعة المرأة وما يعتمدها من ضعف في الحب . ومن هنا يُعْجَبُ بعمر كل من يقرأ ديوانه ، إذ يحس كأنه يقرأ شاعراً حديث من ذوقه ، فقد استطاع أن ينفذ من شعره إلى رسم صورة حية للمرأة في عصره ، وهي صورة تتطابق معها في كل عصر وكل زمن .

وعمر في الواقع تَرْفَعُ الحواجز بينه وبيننا لهذا كله ، فقد استطاع أن يضع تحت أعين الناس صورة تتجدد لهم في كل زمان ومكان ، ونقص صورة المرأة وحبها ، أو قل بعبارة أدق صورة الطبيعة البشرية وكل ما فيها من نقص وضعف .

على أنه ينبغي أن نشير دائماً إلى وجوب الحذر من أقاصيص الرواة ، فقد شوّهوا لنا عمر وشوّهوا معه المرأة المسكينة والمرأة الحجازية بصفة عامة فيما قصوه عنه وغنها قصصاً يتجاوز الواقع في أغلب صورته . وهو قصص أريد به كما قلنا غير صرة إلى السمر في المجتمعات والنوادي الأدبية . وأتاحت طبيعة شعر عمر وأنه شعر غنائى يُغْنَى في دور اللهو والسمر لحياة عمر وحياة المرأة في عصره كلّ هذا الخلط والتشويش اللذين نقرؤهما في كتاب الأغاني عن عمر ووقائعه مع المرأة في زمنه .

ومهما يكن فعمر في ديوانه كما في الأصوات التي غنيت من شعره متكامل الشخصية ، أو قل متكامل الأسلوب . ولسنا نعرف شاعراً

تتضح جميع خصائصه في مقطوعاته الماثورة عنه كما يتضح في عمر ، فداًئماً
تقابلنا نفس السمات ونفس الصفات ، وداًئماً يقابلنا نفس الشخصية
ونفس الأسلوب .

وعمر من هذه الناحية يصور لنا نظوراً حقيقياً أصاب الشعر
العربي في عصره تحت تأثير الحضارة الجديدة ، إذ ليس من شك في أن
شعره لا يماثل الشعر القديم ، شعر القصيد . وهذا شيء طبيعي لأن مكة
قد تحضرت وسيطر أبناؤها على العالم ، أو قل على أطراف كثيرة من
العالم ، وكان كل قرشي يشعر بشيء من الزهو بإزاء هذه السيطرة ،
وأخذت نفسه تتغير تحت تأثير الحضارات الأجنبية التي صبت في بلده ،
وأصبح يتصور الحياة في صورة تغاير صورتها القديمة في عقل أجداده
وذهن آبائه . ومن أجل ذلك كله أصبح من الحتم أن يتطور هذا القرشي
لا في حياته ، فقد تطورت ، وإنما في فنه وشعره .

ولا ريب في أن عمر ، أو قل ديوان عمر ، يصور هذا التطور
تصويراً طريفاً ، فهو يقصّ علينا حبه ، ولكن لا نقرأ هذا القصص
حتى نحس أننا بإزاء مجتمع متحضر ، تكاد تقطع الصلة بينه وبين
مجتمعات البدو القديمة ، ففيه للمرأة من الحرية ما لم تكن تتمتع به المرأة
القديمة ، كما أن لها من الترف ومن الجوارى اللاتي يخدمنها ما لم تكن
تتمتع به المرأة القديمة . وفيه بجانب ذلك دلال للمرأة المترفة وغزلها

ونفسيتهما بكل ما فيها من اضطراب وتناقض . وفيه أيضاً بجانب ذلك ما يصور حياة الشاب المترف ، حياة عمر نفسه ، وما انطبع في قلبه لجمال وثرائه من زهو ودلٍّ ، وما انطبع به من طابع دقة الحس ورهافة الشعور .

فديوان عمر إذن أهم ما يميزه أنه ثمرة حياة متحضرة ، استقطاع أن يعبر عن جميع جوانبها في نفسه ، كشاب متحضر ، وفي نفس المواءمة المعاصرة له التي أترف ذوقها وأترف شعورها .

ويحسن قارئ عمر إحساساً تاماً بأن الأسلوب القديم للشعر قد هُجِرَ ، أو أصبح مهجوراً لسبب بسيط ، وهو أن الحياة القديمة قد هجرت ، فأصبح لا بد أن ينشأ أسلوب جديد يتلاءم والحياة الجديدة ، أو قل الحضارة الجديدة .

وفرق بين شعر يقال في بيوت مكة القديمة وشعر يقال في قصورها الإسلامية الحديثة وما تكتنظ به من جوار وإماء وما تملأ به من ألوان حضارات فارسية أو رومية . ومن هنا كنا لا نقرن ديوان عمر إلى ديوان شاعر جاهلي قديم إلا نجد الفرق واضحاً جداً ، وهو فرق الحياة وما أصابها من تبدل وما تم لها من تطور . وهل كان من الممكن أن نجد في الشعر القديم مثل الثريا وزينب صاحبتى عمر ، وكل ما لهما من دلال ، وكل ما لهما من ثراء ؟ ونفس عمر هل كان من الممكن

أن نجده في الشعر القديم بهذه الشخصية المميزة التي تفرده عن أسلافه ؟ لقد كانت الحياة القديمة راكدة ، ولذلك كانت الصور الفنية راكدة أيضاً ، فكان فيها هذا التكرار الذي يشعر به كل من يقرأ الشعر الجاهلي ، وكان فيها هذا الجود الذي يجعل أساليب الشعراء متشابهة .

وقد تبدل العرب في مكة وتبدلت حياتهم القديمة ، وعاشوا معيشة جديدة ، ونجم بينهم عمر ليعبر تعبيراً كاملاً عن هذا التبدل وهذه المعيشة ، ومن هنا كان أسلوبه يخالف أساليب الشعر القديم ، فهو أسلوب تكامل له تحت تأثير حياة متحضرة جديدة ، فيها ترف بالغ ، وفيها هذا الغناء الذي حوَّله المغنون إلى نظرية كاملة .

لم يعد عمر ينظم شعره بالأسلوب القديم ، ولذلك نفرّ من القصيدة وهجرها في نماذجها ، واختار مكانها هذه المقطوعات القصيرة التي تقال لا لتُشَدَّ كما كان الشأن في الحياة القديمة ، وإنما تقال لَتَفْنَى ، ولتسمعها الطبقة المترفة التي نشأت في مكة وفي أختها المدينة .

وهذا هو معنى ما نقوله من أن الشعر العربي عند عمر تطور ، فقد أصبح شعراً غنائياً بالمعنى الكامل ، وأصبح مقطوعات بعد أن كان قصائد ، وأصبح يتخذ من لغة قريية ، لغة مألوفة للناس ، ليس فيها هذا الإغراب الذي نجده عند الشعراء القدماء ، وليس هذا فيها التعقيد في

التراكيب الذى نجده عندهم أيضا . وإن من يبحثون عن اللغة القديمة والتراكيب القديمة أو قل الأساليب القديمة ينبغي ألا يبحثوا عنها في مكة أو الحجاز ، بل يبحثوا عنها في البصرة والعراق حيث كان جرير والفرزدق والناس من حولها يجتثرون حياتهم القديمة . أما في الحجاز وفي مكة ، فقد انصرف الناس عن حياة آبائهم القديمة وغرقوا في ألوان من الترف والنعيم ، ولذلك أصبحت أساليب الشعر القديم لا تلائمهم ، فإما أن يهجروا هذا الشعر كله ، وإما أن يظهر لهم شاعر يعبر لهم عن حياتهم بأسلوب جديد . وكانت الحياة العربية من القوة بحيث لا يمكن أن يُهَجَرَ الشعر ، وكانت من القوة بحيث لا بد أن يظهر الشاعر الذى يعبر للناس عن حياتهم الجديدة بأسلوب جديد .

وكان عمر بن أبى ربيعة هو الشاعر الذى استطاع أن يهجر أساليب الشعر القديمة ، ويسوى للناس مكانها أساليب جديدة تقوم على القرب والدنو منهم ومن لغتهم اليومية ، كما تقوم من طرف آخر على تصوير العناصر العاطفية التى يزخر بها مجتمعهم عن طريق تصوير حبه وحب المرأة المعاصرة له ، وما بث في هذا التصوير من حوار ، كأنه استمده من قلب كل امرأة يتحدث عن فتاها . وهذا جانب في شعر عمر أعطاه قربا من النفوس في كل عصر ، وهو من هذه الناحية لا يكاد قارئه يعلم به حتى يحس كأن عمر قريب منه ، فهو يدنو من جميع العصور ومن جميع النفوس . ويظهر أن ديوانه لم يصلنا كله ،

فطبعة ليسك ، وهى أهم طبعاته ، نجدها تُفرد ملحقا لمقطوعات بلغت نحو المائة لم تكن فى الديوان ، وإنما كانت متقاربة فى كتب الأدب وعلى رأسها كتاب الأغاني . ومعنى ذلك أن طرّقا من الأصوات أو الأدوار التى غنيت من شعره لم يسجل فى ديوانه ، ولاحظ الذين وقفوا على طبع الجزء الأول من كتاب الأغاني — وهو الذى يحتوى ترجمة عمر — فى أكثر الأصوات التى غنيت من شعره اختلافا كثيرا بين رواية الصوت ورواية الديوان ^(١) ، كما لاحظوا أن ترتيب الأبيات فى الصوت أو فى الدور قد يختلف مع ترتيبها فى مقطوعتها من الديوان ^(٢) . ولاحظوا أيضا أن أبيات الصوت قد تلتق من مقطوعتين ^(٣) ، وأن الصوت قد يكون فيه بيت ليس لعمر ^(٤) ، ومن قبل لاحظ أبو الفرج هذه الملاحظة ^(٥) . ولعل فى هذا الجانب ما يدل على عمل المغنين فى شعر عمر ، وكيف أنهم كانوا يستبدلون أحيانا بعض ألفاظه ، وقد يضيفون إلى أبياته بيتا جديدا ، يتراءى لهم أنه يكمل المعنى أو يحدث فيه طرافة . ومهما يكن فإن ديوان عمر بن أبى ربيعة يشف عن

(١) انظر مثلا أغاني ٩٤/١ ، ١٠٤/١ ، ١٢٥/١ ، ١٥١/١ ، ٢٠١/١ .

(٢) انظر أغاني ١٨٠/١ وكذلك ١٨٣/١ ، ٢٣٧/١ .

(٣) انظر أغاني ١٨٧/١ .

(٤) أغاني ٩٥/١ وكذلك أغاني ١٧٠/١ ، ٢٤٢/١ .

(٥) أغاني ٢١٣/٤ .

شخصية صاحبه ، وعن عصره ومجتمعه وكل ما فيه . واستطاع عمر حقاً أن يتميز من شعراء عصره والعصور التالية بهذه الروح القصصية النادرة التي قلما نصادفها في شعراء العربية . ومن الطريف أنه نفذ إليها من خلال هذه المقطوعات الغنائية القصيرة التي كان يتناولها منه ابن سريج والغريز وأمثالهما من المغنين ، أو قل إن قصّر هذه المقطوعات لم يحل بينه وبين ما أراد من تصوير عصره عن طريق هذا الحوار الذي عقده تارة بينه وبين من أحبهم ، وتارة بين أنفسهم وبين أخواتهن أو صديقاتهن أو صيفاتهن وجواريهن .

وما نعرف في العربية شاعراً استطاع أن يعيش حياته في تصوير قصة الحب على هذا النحو الذي نجده عند عمر . قد يوجد بعض الشعراء الذين قصروا أنفسهم أو كادوا على تصوير حبهم مثل العباس بن الأحنف ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يتحول بحبه إلى هذه الروح القصصية وما يُطوى فيها من حوار عند عمر .

ونحن نعيد ما قلناه من أن الرواة — كما يمثلهم كقبا الأغاني — أفسدوا هذه الروح عند عمر بما أضافوا إليها من أقاصيص ماجنة ، وكأنهم لم يفهموا عمر ولا فهموا روح عصره . والمسألة لم تكن أكثر من شاعر مجدد استجاب لتزعة الحضارة الجديدة في عصره ، ونهض بتمثيل أمواجه بل بتمثيل ذرات هذه الأمواج أحياناً ، ونقصد أمواج العواطف والوجدانات . ومثل عمر ذلك من خلال إحساساته

وإحساس المرأة المسكية أو المدنية في عصره .

وكان عمر لذلك كله موضع إعجاب الناس من حوله حتى الفقهاء
من مثل ابن عباس كانوا يروون شعره ويتناقلونه ، لأنهم لم يجدوا فيه
ما حمّله القصاصون بعدُ من عبث ومجون ، وإنما وجدوا فيه صورة حية
لعصرهم ومجتمعهم ، قد يكون فيها ظرف ، وقد يكون فيها مبالغة بحكم
أن الشاعر ينقلنا إلى عالم يعتمد على القصص والخيال ، ولكن ليس
فيها على كل حال ما ينافي العفة الثابتة^(١) .

(١) أغاني ١١٩/١ وكذلك ٢٣٧/١ وزهر الآداب ٢٩٢/١ .

الفصل الخامس

ابن قيس الرقيات

١

اسمه ولقبه وعشيرته

اختلف الرواة في اسم ابن قيس وهل هو عبد الله أو عبيد الله .
وقد ذكره الجاحظ^(١) والمبرد^(٢) باسم عبد الله ، وكذلك ذهب مذهبهما
المسعودي^(٣) والمرزباني^(٤) والجوهرى والصحيح والفيروزبadi ، في
القاموس « مادة رقي » . وفي الخزانة عن خط الشاطبي أن الأصمعي
وافق ابن قتيبة على أن اسمه عبد الله^(٥) .

وذكره ابن سلام في كتابه طبقات^(٦) الشعراء — وهو أقدم نص
ورد اسمه فيه — باسم عبيد الله ، وترجم له أبو الفرج في الأغاني بهذا

(١) انظر الحيوان ١٥٤/٧ .

(٢) مروج الذهب ٢٥٠/٥ .

(٣) الموشح ص ١٥٠ ، ١٨٦ ، ٢٢١ .

(٤) خزانة الأدب للبغدادي طبع بولاق ٢٦٦/٣ .

(٥) طبقات الشعراء ص ١٣٧ .

الاسم^(١). وفي الخزانة أنه عبيد الله ، ومن الرواة من يقول الشاعر
عبد الله وهو خطأ^(٢). وأجمعت نسخ الديوان المطبوعة والمخطوطة
بدار الكتب المصرية على أن اسمه عبد الله .

وكما اختلف الرواة في اسم الشاعر اختلفوا في علة تلقيبه بالرقيات ،
أما ابن سلام فقال : إنه سُمِّيَ بذلك لأن جدات له توالين يُسمين رقية^(٣).
وقال ابن قتيبة : إنه لُقِّبَ بذلك لأنه كان يُشَبَّب بثلاث نسوة يقال لهن
كلهن رقية^(٤). وقال أبو عبيدة : في كتاب النسب سمى بذلك لأنه كان
يشبب بامرأتين كل منهما تسمى رقية^(٥). وفي الخزانة قيل إن قيساً
تزوج نسوة كل منهن اسمها رقية^(٦). وفي الصحاح والقاموس إنما
أضيف قيس إلى الرقيات لأنه تزوج عدة نسوة وافق أسماءهن
كلهن رقية .

ومن يرجع إلى أخبار الشاعر وشعره يؤمن بأنه أضيف إلى الرقيات
لأن أكثر تشبيهه فيمن سمين رقية . ولعل فكرة أن أباه تزوج عدة
نسوة يسمين رقية ، وكذلك أن جدات له تتابعن يسمين رقية ؛ لعل

(١) انظر الأغاني ٧٣/٥ .

(٢) الخزانة ٢٦٧/٣ وانظر الولاة والقضاة للسكندى ص ٥٢ .

(٣) طبقات الشعراء ص ١٣٧ .

(٤) الشعر والشعراء طبع دى جويه ص ٣٤٤ وانظر الأغاني ٣٧/٥ .

(٥) الخزانة ٢٦٦/٣ .

(٦) الخزانة ٢٦٥/٣ .

ذلك جاء من أن كلمة الرقيات أضيفت إلى قيس ، فهو يشتهر بين الرواة باسم ابن قيس الرقيات .

وينسب الرواة الشاعر على هذا النحو عبيد الله بن قيس بن شريح ابن مالك بن ربيعة (وهو النويعم) بن أهيب^(١) بن ضباب بن حُجَيْر بن عَبد بن مَعِيص بن عامر بن لؤى بن غالب^(٢) ، فهو قرشي إلا أنه ليس من قریش البطاح ، إنما هو من قریش الظواهر . وإذن فعشيرته ليست من العشائر الثرية التي كان لها شأن عظيم في أمور مكة أثناء العصر الجاهلي على نحو ما كان لقریش البطاح . ومع ذلك يظهر أنها كانت تشتهر بالبأس والشجاعة . فأبو الفرج يقول : كان يقال لبني مَعِيص بن عامر بن لؤى وبني محارب بن فهر الأجران ، وكانا متحالفين ، وإنما قيل لهما الأجران من شدة بأسهما ، وعَرَّها من ناوأها كما يُعَرُّ الجَرَب^(٣) .

وتسمى عشيرة عبيد الله باسم جده الثامن ، فيقال بنو مَعِيص ، وقد تنسب إلى جده السابع فيقال بنو عَبد^(٤) ، وإلى جده الثالث ربيعة

(١) في الديوان (طبع ثينا) ص ٦٧ : وهيب .

(٢) أغاني ٧٣/٥ وانظر الديوان ص ٦٧ .

(٣) أغاني ٧٣/٥ .

(٤) الديوان ص ١٨٧ ، ١٩٣ .

الملقب بالثَوْنِمْ ، فيقال بنو النويم^(١) . ويفتخر عبيد الله بعشيرته في ديوانه كما يفخر بقرشيته ، فيقول^(٢) :

نحن الصريح إذا قرَّيشٌ قام منها النَّاسِبُ
من مِرَّها وأرومها إذ للأروم مراتبُ

وكما يذكر عشيرته الأقربين يذكر أبناء عمهم مالك^(٣) بن حسيل ابن عامر ، وأيضاً فإنه يذكر بني جابر بن وهب بن ضباب وبني شبل ابن عبيد بن منقذ بن عمرو بن معيص^(٤) ، وهو شديد الاعتزاز بهم جميعاً .

وأم عبيد الله قتيلة بنت وهب بن عبد الله بن ربيعة من بني ليث ابن بكر بن عبد مفاة ، وقد افتخر بأخواله في ديوانه^(٥) كما افتخر بأهله . وكان له أخ يسمى عبد الله^(٦) ، ولعل ذلك ما جعل الرواة يخلطون في اسمه ، وأعقب عبيد الله أبناء مختلفين ، منهم سعد وأسامة وقد قتلا في موقعة الحرة مع طائفة من عشيرتهما ، ورثي القتلى جميعاً عبيد الله رثاء حاراً^(٧) . وفي أخباره أن أئيلة بنت مسافع زوجة أسامة كان لها

(٢) الديوان ص ١٢٥ .

(١) الديوان ص ١٩١ .

(٣) الديوان ص ١٨٧ ، ٢١٣ .

(٥) الديوان ص ٢٤٤ .

(٤) الديوان ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

(٦) تاريخ دمشق لابن عساكر (المخطوطة التيمورية بدار الكتب المصرية)

(٧) الديوان ص ١٨٤ وما بعدها .

مجلد ٢٥ الورقة ٢٠٨ .

منه قيس وعقبة ومحمد ، وقد لجأت بهم بعد موقعة الحرة إلى عبيد الله^(١) .
ولعل في هذا ما يدل على أن عبد الله كان قد فارق الحياة وإلا لجأت
إليه زوج أسامة ولم تلجأ إلى عبيد الله .

ولست لدينا أخبار واضحة عن أزواج عبيد الله ، وهو يذكرك في
ديوانه زوجة كنفانية^(٢) ، ولكننا لا نعرف شيئاً عن هذه الكنفانية .
وزعم صاحب الخزنة أنه لم يكن له عقب^(٣) ، ولكن من يرجع إلى
ديوانه يجد وصيته موجهة إلى شخصين يسميان مُرِيحاً ومُحَصَّناً ، وهي
أشبه بأن تكون وصية أب لابنيه ، إذ يقول^(٤) :

أَوْصَى مُرِيحاً إِنْ هَلَكْتُ وَمُحَصَّناً بَعُونَ عَلَى الْجُلَى وَتَرَكَ الْحَارِمَ
وَذَبَّ عَنْ الْجَارِ الْمَلْبَسِ حَبْلَهُ بِحَبْلَيْهِمَا وَبِالْحَلِيفِ الْمَقَاسِمَ
وَأِنْ حَارَبَ الْمَوْلَى فَحَارِبْ بِحَرْبِهِ وَإِنْ سَأَلَ الْمَوْلَى عَلَيْكَ فَسَالِمَ

وفي الأغاني أنه كان له بنون ثلاثة وبنات ثلاث وأنه زوج البنين
الثلاثة ببنات أخ له ثلاث ، كما زوج البنات الثلاث من بنى أخ
له^(٥) .

(١) الديوان من ١٩٢ .

(٢) الديوان من ٢٠١ — ٢٠٢ . (٣) الخزنة ٣/٢٦٥ .

(٤) الديوان من ٢٤٧ . (٥) أغاني ٩٣/٥ — ٩٤ .

حياته وأهم وصفاته

نشأ ابن قيس الرقيات في مكة ، ولكن يظهر أنه تركها في مقبيل عمره إلى المدينة ، ومع ذلك فقد ظل يتردد عليها وعلى منزله^(١) فيها . وليس بين أيدينا معلومات واضحة عن هذه الفترة الأولى من حياته إلا ما يرويه فنْدُ المغنى وهو من مغنى المدينة في الصدر الأول^(٢) قال : « حَجَّتْ رُقَيْةٌ . . . فكَفَّتْ آتِيَهَا وَأَحْدَثَهَا فَتَسْطَرْفُ حَدِيثِي وَتَضْحَكُ مِنِّي ، فَطَافَتْ لَيْلَةً بِالْبَيْتِ ، ثُمَّ أَهَوَتْ لَتَسْتَلِمَ الرُّكْنَ الْأَسْوَدَ وَقَبْلَتَهُ ، وَقد طَفَّتْ مَعَ عَمِيدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسِ الرِّقَايَاتِ ، فَصَادَفَ فَرَاغَنَا فَرَاغَهَا ، وَلَمْ أَشْعُرْ بِهَا ، فَأَهْوَى ابْنُ قَيْسٍ يَسْتَلِمُ الرُّكْنَ الْأَسْوَدَ وَيَقْبِلُهُ ، فَصَادَفَهَا قَدْ سَبَقَتْ إِلَيْهِ ، فَذَمَّ حَقَّهُ بِرُذْنِهَا^(٣) ، فَارْتَدَّعَ ، وَقَالَ لِي : مِنْ هَذِهِ ؟ فَقُلْتُ : أَوَلَا تَعْرِفُهَا ؟ هَذِهِ رُقَيْةُ بِنْتُ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَبِي سَعْدٍ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ : مَنْ عَذِرِي مِمَّنْ يَضُنُّ بِمَبْدُو لِغَيْرِي عَلَى عِنْدِ الطَّوَافِ^(٤) . وَلَا نَجِدُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي أَخْبَارِ ابْنِ قَيْسٍ حَادِثَةٌ تَقْصِلُ بِحَيَاتِهِ فِي مَكَّةَ . وَتَرَكَهَا ، عَلَى مَا يَظْهَرُ ، إِلَى الْمَدِينَةِ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِهِ ، فَإِنَّا نَجِدُ هُنَاكَ أَوْلَادَ أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ وَقد قُتِلَ مِنْهُمْ اثْنَانِ فِي مَوْقِعَةِ الْحَرَّةِ كَمَا أَسْلَفْنَا .

(٢) ابن عبد ربه ٢٤٥/٣ .

(١) أغاني ٧٧/٥ .

(٤) أغاني ٩٦/٥ .

(٣) أغاني ٩٦/٥ .

ولعل أكبر دليل على نزوله المدينة أننا لا نجد له أخباراً مع مغنى مكة من مثل ابن مسجج وابن محرز وابن سريج والغريص ، إنما تساق أخباره دائماً مع مغنى المدينة من مثل فند ، وسائب^(١) خازر ، وبديح^(٢) . وقد أشار في بعض شعره إلى دار له فيها ، إذ يقول^(٣) :

شَبَّ بالعال من كثيرة نارُ شَوْقَتَنَا وأين منسا المزارُ
تلك نارٌ لها أضواء سناها لمحِبٍّ له يثيرب دارُ
فهو يشير إلى دار اتخذها لنفسه في المدينة . وفي الأغاني ما يدل على أنه كان ينزل بها أثناء حكم مروان بن الحكم وسعيد بن العاص لها في خلافة معاوية ، فقد كان معاوية يُعَقِّب بينهما يُوَلِّي هذا سنة وهذا سنة^(٤) ، وكانت في مروان شدة وغلظة ، فلما ولى المدينة ولى مصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزُّهْرِي شُرْطَتَهُ ، وأعانه بمائتي رجل من أهل أيلة (العقبة) فضبطها ضبطاً شديداً ، فقال ابن قيس^(٥) :

عَلَّ القوم يَشْرَبُوا كى يَلْدُوا ويطربوا
إنما ضلَّ الفؤادَ غزالٌ مُرَبَّبٌ
فَرَشَتْهُ على النما رِقِ سَعْدَى وزينب
حَالَ دون الهوى ودو نَ سُرَى الليل مُصْعَبٌ

(٢) أغاني ٦/٢٢٠ .

(٤) ابن عبد ربه ٣/٢٤٥ .

(١) أغاني ٥/٨١ .

(٣) الديوان ص ٩٤ .

(٥) أغاني ٥/٧٢ — ٧٤ .

وسياطٌ على أكف رجالٍ تقلَّبُ

فديوان ابن قيس يرتبط بحوادث المدينة أثناء خلافة معاوية ، وقد يكون في هذه القطعة ما يدل على أن ابن قيس كان يُحَيِّي من بعض الوجوه حياة لاهية ، فهو يتبع المغنين ، وهو يضحج من صعوبة مصعب وسيده مروان ، وهو يدعو إلى الطرب والشراب .

على أن اتصاله بسائب خاثر وُبَدَيْح ، وكنا موليين لعبد الله بن جعفر سيد بني هاشم ، يدل على أنه اتصل بسيدهما . وليست المسألة مسألة استنتاج ، فديوانه مليءٌ بأشعار في مدح عبد الله ، وسنراه يلجأ إليه ويلزم حِمَاه فيما بعد . ونلاحظ هنا أن طبيعة حياة ابن قيس وشعره ، إذ كان يمدح به سادة قومه ، تدل دلالة قاطعة على أنه اتصل بعبد الله ابن جعفر ، جواد الحجاز ، منذ هذا التاريخ . وقد زعم بعض الرواة أنه شُبِّه برقية ابنته ^(١) .

غير أن الرواة على عاداتهم شَوَّشوا لنا في أخباره وجعلوه لا يتصل بعبد الله في هذه الفترة من حياته ، إنما يتصل به فيما بعد على ما سنرى . ويقول أبو الفرج : كان ابن قيس الرقيات منقطعاً إلى عبد الله بن جعفر وكان يصله ويقضى عنه دينه ^(٢) .

وما نغضى بعد خلافة معاوية إلى خلافة يزيد ابنه حتى نجد ابن قيس

(١) انظر الورقة الأولى في ديوان ابن قيس (مخطوطة بدار الكتب)

(٢) أغاني ٨٢/٥ .

رقم ٨٨ ش .

يترك المدينة إلى الجزيرة وإلى الرقة خاصة . يقول السكري جامع ديوانه :
 « خرج الوليد بن عقبة بن أبي معيط سنة سبع وثلاثين حتى نزل الرقة ،
 فكان بها وكان معه العلاء بن عبد بن أهبان بن جابر بن ضباب بن
 حُجَير بن عبد بن معيص . وكانت تحته هند بنت عقبة أخت الوليد في
 ناس من قومهم ، فيهم عبيد الواحد بن أبي سعد بن قيس بن وهب
 فأقاموا معه . وأقبل عبيد الله بن قيس الرقيات ... فأقام فيهم حتى كانت
 وقعة الحرّة ، فقتل فيها ناس من أهل بيته ، وكان الذي كتب إليه
 بنعيم ابن عم له يقال له يزيد بن علي بن عبيد الله بن رَحْضَة بن عامر
 ابن رواحة بن منقذ بن عمرو بن معيص ، فنعى إليه أسامة وسعداً ابني
 عبد الله بن قيس الرقيات ^(١) . ويمضي السكري فيقول : « إن أثيلة
 بنت مسافع بن فضالة الخزاعية امرأة أسامة حملت أولادها قيساً وعقبة
 ومحمداً إلى الجزيرة حين قتل أبوم وعمهم ، فبقيت بها ، فأقام عبيد الله
 ابن قيس كذلك . ثم أغار عُثَير بن الحُبَاب ، على بني عامر بن لؤي ،
 وكانوا يحبون بني أمية ، وإنما سمي واديهم « وادي الأحرار » بيزيد بن
 معاوية ، وكان نزل بهم في خلافته ، وذلك لأن حرب بن عبد الواحد
 ابن أبي سعد أصاب رجلاً من بني ذَكْوَان (من سُليم) فقتله ، فألى
 عمير بن الحباب ألا يدع بوادي الأحرار رجلاً إلا قتله به . وأغار عمير

فأخذ عبيد الله بن قيس أسيراً ، فلما قدمه ليقمّله وثب عليه رجل من بني قُنْفُذ من رِعل ، فمعه ^(١) ، وقد ذكر ذلك ابن قيس في شعره ^(٢) . ونحن نعرف أن عمير بن الحباب كان من زعماء القيسية في الموصل وأنه بايع مروان بن الحكم بعد وقعة مرج راهط ، ثم خرج عليه بعد قتل إبراهيم ابن الأشتر لابن زياد وهزيمة جيشه الذي وجهه عبد الملك لحرب الخنثار الثقفي والي ابن الزبير على الكوفة ، وكان ذلك أواخر سنة ٦٦ هـ .

ولجأ عمير إلى زُفَر بقرقيسيا وأخذ يكيد لتغلب واليمينية وأنصار الأمويين ^(٣) ، فكانت من ذلك غارته على عشيرة ابن الرقيات ، ونظن أن ذلك إما كان في أواخر سنة ٦٦ للهجرة أو أوائل سنة ٦٧ . ويقول السكري : إن ابن قيس ارتحل بعد ذلك سائراً إلى فلسطين ^(٤) ويظهر أنه لم تكن وجهته فلسطين ، وإنما كانت وجهته الحجاز ، فنحن لا نجد في أخباره ما يدل على أنه اتصل حينئذ بعبد الملك ، وقد صارت إليه الخلافة بعد أبيه مروان منذ سنة ٦٥ للهجرة . وإن كنا نلاحظ من طرف آخر أن ابن قيس حتى هذا التاريخ لم يكن زبيرياً ، فقد كان بين عشيرته في الموصل ، وكانوا يحطّبون في حبل بني أمية رغم من قُتِل منهم في موقعة الحرة .

(١) الديوان ص ١٩٢ .

(٢) الديوان ص ١٩٤ وكذلك ص ١٩٧ .

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير طبع أوروبا ٢٥٣/٤ وما بعدها .

(٤) الديوان ص ١٩٩ .

وَوَلَّى ابن قيس وجهه نحو الحجاز ، ونزل بالمدينة ، ولقي سعيد
ابن المسيّب ، فهِشَّ وقال : مرحباً بظُفْرٍ من أظفار العشيرة ، وكان
سعيد مخاصماً للأمويين ^(١) ، ولعله هو الذي أملى على ابن قيس اتجاهه
 الجديد إلى الزبيريين . ويقول من حدّثوا بهذا اللقاء إنه أنشد سعيداً :
 أتلبث في تَكَرُّيتٍ لا في عشيرةٍ شهودٍ ولا السلطان منك قريبٌ
 وأنت امرؤٌ للهِزَمِ عندك منزلٌ وللدِّين والإسلام منك نصيبٌ
 فقال سعيد : لا مقام على ذلك ، فأخرج منها ، قال : قد فعلت ،
 قال : قد أصبت ، أصاب الله بك ^(٢) . وصمم ابن قيس ألا يعود إلى تَكَرُّيت
 في الموصل ، وآزر ذلك ووَكَّده في نفس ابن قيس ما كان من قتل
 الأمويين وجنودهم لابني أخيه في موقعة الحرّة ، فأنصرف عنهم إلى
 آل الزبير .

ويظهر أنه لم يذهب إلى مكة ، بل ذهب مباشرة إلى العراق حيث
 وُلِّي مصعب بن الزبير هناك على البصرة ، وكان بحراً فياضاً من بحور
 قريش ، فلزمه منذ ولايته هذه ، ورأى حربه مع المختار الثقفي وإلى
 الكوفة وما كان من قتله . وذكر ذلك في شعره ^(٣) .

(٢) أغاني ٩١/٥ .

(١) طبري ١١٦٩/٢ .

(٣) الديوان ص ١٧٥ ، ص ٢٧٣ .

وعلى هذا النحو لا نصل إلى سنة ٦٧ للهجرة حتى يصبح ابن قيس زبيرى^(١) الهوى ، وعزلَ عبدُ الله بن الزبير أخاه عن العراق سنة ٦٧ بعد أن قتل المختار ، ثم أعاده ثانية^(٢) سنة ٦٨ ، واستمر معه ابن قيس هناك بل أصبح شاعر الزبيريين الأوّل ، وهو في الواقع كان شاعراً لمصعب نفسه قبل أن يكون شاعراً لأخيه ، وقد ذهب يتغنى غناء خالداً بأعماله وحروبه مع المختار ، والخوارج ، والجيوش التي أرسلها عبد الملك ، فبانت بالخيمية والفشيل . وما زال مع مصعب يغنيه أعماله حتى تحرك عبد الملك إلى حربه . ونحن ننقل ما ذكره بنفسه عما كان من شأنه معه : « قال : خرجت مع مصعب بن الزبير حين بلغه شغوص عبد الملك بن مروان إليه ، فلما نزل مصعب بن الزبير بمسكن^(٣) ، ورأى معالم القدر ممن معه دعاني ودعا ببال ومناطق ، فلأ المناطق من ذلك المال ، وألبسني منها ، وقال لي انطلق حيث شئت فإني مقتول ، فقلت : لا والله لا أريم^(٤) حتى أرى سبيلك ، فأقمت معه حتى قُتِلَ ، ثم مضيت إلى الكوفة ، فأول بيت صرت إليه دخلته ، فإذا فيه امرأة لها ابنتان كأنهما ظببتان ، فرقيت في درّجة لها إلى مشربة^(٥) ، فقعدت فيها ، فأمرت لي المرأة بما أحتاج إليه من الطعام والشراب والفرش

(١) أغاني ٧٦/٥ (٢) ابن الأثير ٤/٢١٩ — ٢٣٨ .

(٣) مسكن : موضع قريب من دير الجائلق على نهر دجيل .

(٤) لا أريم : لا أبرح . (٥) مشربة : غرفة .

والماء للوضوء . فأثقت عندها أكثر من حَوْل ، تقيم لى ما يصلحنى ،
وتغدو علىّ فى كل صباح . . . وأنا فى ذلك أسمع الصياح فىّ والجُعل .
فلما طال بى المقام ، وفقدت الصياح فىّ وغرَضْتُ^(١) بمكانى غَدْتُ علىّ ،
ففرقتها أنى قد غرَضْتُ ، وأحييت الشخوص إلى أهلى ، فقالت لى :
فأتيتك بما تحتاج إليه إن شاء الله تعالى ، فلما أمسيت وضرب الليل
بأرواقه رَفِيتْ إلىّ ، وقالت إذا شئت ! . فزلت وقد أعدتُ راحلتين
عليهما ما أحتاج إليه ومعهما عبد ، وأعطت العبد نفقة الطريق ، وقالت :
العبد والراحتان لك ، فركبت ، وركب العبد معى حتى طرقت أهلى
بمكة ، فدققت منزلى ، فقالوا لى : مَنْ هذا ؟ فقلت عبيد الله بن قيس
الرقيات ، فوكلوا وبكوا ، وقالوا ما فارقنا طلبك إلا فى هذا الوقت ،
فأثقت عندهم حتى أسحرت ، ثم نهضت ومعى العبد ، حتى قدمت
المدينة ، فجنّت عبد الله بن جعفر بن أبى طالب عند المساء ، وهو يُعَشِّي
أصحابه ، فجلست معهم وجعلت أتعاجم ، وأقول : ياريار ابن طيار ، فلما
خرج أصحابه كشفت له عن وجهى ، فقال : ابن قيس ؟ فقلت : ابن
قيس ، جئتك عانداً بك ، قال : ويحك ما أجدهم فى طلبك وأحرصهم
على الظفر بك ! ولكنى سأكتب إلى أم البنين بنت عبد العزيز بن
سروان ، فهى زوجة الوليد بن عبد الملك ، وعبد الملك أرقُ شئ عليها ،
فكتب إليها يسألها أن تشفع له إلى عمها ، وكتب إلى أبيها يسأله أن

(١) غرض : ضجر .

يكتب إليها كتاباً يسألها الشفاعة ، فدخل عليها عبد الملك كما كان يفعل وسألها : هل من حاجة ؟ فقالت : نعم لي حاجة ، فقال : قد قضيت كل حاجة لك إلا ابن قيس الرقيات ، فقالت : لا تستثن علي شيئاً ، فنفتح ^(١) بيدها ، فأصاب خدها ، فوضعت يدها على خدها ، فقال لها : يا ابنتي ارفعى يدك ، فقد قضيت كل حاجة لك ، وإن كانت ابن قيس الرقيات ، فقالت : إن حاجتي ابن قيس الرقيات تؤمنه ، فقد كتب إليّ أبي يسألني أن أسألك ذلك ، قال : فهو آمن فمريه يحضر مجلس العشية ، فحضر ابن قيس ، وحضر الناس حين بلغهم مجلس عبد الملك ، فأخر الإذن ، ثم أذن للناس ، وأخر إذن ابن قيس الرقيات ، حتى أخذوا بمجالسهم ، ثم أذن له ، فلما دخل عليه قال عبد الملك يا أهل الشام أتعرفون هذا ؟ قالوا لا ، فقال : هذا عبيد الله بن قيس الرقيات الذي يقول :

كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شقواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي عن خدام ^(٢) العقيلة المذراء
فقالوا يا أمير المؤمنين : استقنا دم هذا المنافق ! قال آلآن وقد أمنته
وصار في منزلي وعلى بساطي ؟ لقد أخرت الإذن له ليمقتلوه ، فلم تفعلوا .

(١) فتح : ضرب ضربة خفيفة .

(٢) خدام : على نية المضاف إليه أى خدامها وهو الخلل .

فأستأذنه ابن قيس أن ينشدته مديحه ، فأذن له ، فأشده قصيدته التي يقول فيها :

عاد له من كثيرة الطَّربُ فعيَّنه بالدموع تنسكبُ
حتى قال فيها :

إن الأغرَّ الذي أبوه أبو العاصي عليه الوقارُ والحجُبُ
يَعْبُدُ التاجُ فوق مَفْرِقِهِ على جبينٍ كأنه الذهبُ
فقال له عبد الملك يا ابن قيس : تمدحني بالتاج كأنى من العجم
وتقول في مصعب :

إنما مصعبٌ شهابٌ من الله تجلَّتْ عن وجهه الظلماءُ
مُلْكُهُ ملكٌ عِزَّةٌ ليس فيه جبروتٌ منه ولا كبرياءُ
أما الأمان فقد سبق لك ، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين
عطاءً أبداً . . وقال ابن قيس الرقيات لعبد الله بن جعفر : ما نفعتني
أمانى ، تركتُ حَيًّا كميَّت لا آخذ مع الناس عطاءً أبداً ، فقال له عبد الله
ابن جعفر كم بلغت من السن ؟ قال ستين سنة ، قال فعمّر نفسك ؟ قال
عشرين سنة من ذى قَبَل^(١) ، فذلك ثمانون سنة . قال : كم عطاؤك ؟ قال
ألفا درهم ، فأمر له بأربعمائة ألف درهم ، وقال : ذلك لك على أن
تموت على تعميرك نفسك^(٢) . «

(١) من ذى قبل : يريد في المستقبل .

(٢) أغاني ٧٦/٥ .

وإنما نقلنا ذلك الخبر على طوله مع أنه يشبه أن يكون قصة ، لأنه يتضمن في ثناياه الحقيقة ، فإن ابن قيس اسقمر ملازماً لمصعب حتى قُتِلَ ، فلما قتل فرّ ، وأهدر عبد الملك دمه ، فكان لا بد له من الاختفاء . وهنا تلعب القصة دورها ، فقد زعم الرواة أن المرأة التي اختفى عندها هي كثيرة^(١) التي شبب بها كثيراً في شعره .

ويبالغ الرواة ويعطون القصة لوناً الذي رأيناه ، فقد أمضى عند كثيرة هذه سنة تتبعه شرطة عبد الملك ويتعقبه الصياح به وأن من وجده أو دل عليه فله ألف دينار^(٢) ، ثم تخف الحملة عليه ، ويفقد الصياح فيطلب من المرأة أو من كثيرة الخروج من دارها ، فتأتيه تحت الليل براحتين وعبد معها ، وتعطيه نفقة الطريق .

وربما كانت كثيرة هي المفتاح الذي نعرف عن طريقه حقيقة كل هذه القصة ، فابن خلكان يذكر أن كثيرة هذه تزوجت على^(٣) بن عبد الله بن العباس . وفي الطبري أنه لما دخل عبد الملك الكوفة بعد مقتل مصعب سأل عن بعض أنصاره ممن أوغلوا الشام عليه وأفسدوا العراق ، فقيّل قد أجارهم رؤساء عشائهم ، قال وهل يجير على أحد ؟ وكان عبد الله بن يزيد بن أسد لجأ إلى علي بن عبد الله بن العباس ولجأ

(١) أغاني ٨٤/٥ .

(٢) تاريخ دمشق المجلد ٢٥ الورقة ٢٠٩ .

(٣) وفيات الأعيان طبع أوروبا ص ٤١٢ .

إليه أيضاً يحيى بن معيوف الحمداني ، فأمّتهما عبد الملك وظهر^(١) .
ونستطيع أن نصل الآن بين كثيرة زوجها الذي كان يلجأ إليه
من يطلبهم عبد الملك بعد مقتل مصعب ، وأن نظن أن ابن قيس إنما
لجأ إلى علي بن عبد الله لا إلى كثيرة نفسها كما ظن الرواة ، ولم يستطع
علي فيما يبدو أن يستصدر له أمراً بالغفو من عبد الملك ، لأنه سبق إلى
إعلان إهدار دمه ، ولأن ذنب ابن قيس كان عظيماً ، فقد كان يدعو
إلى حربه ، وكان يؤلب عليه ، مع مصعب ، بشعره . وأخفاه علي بن عبد الله
عنده حتى إذا ضعف طلبه أعانه على الفرار إلى ابن عمه عبد الله بن
جعفر ، فقد كان قريباً من نفس الأمويين وكان محبباً إليهم ، وأصهر
إليه عبد الملك . على أن نفس ابن جعفر لم يستطع أن يطلب له الأمان
من عبد الملك مباشرة ، بل أرسل إلى عبد العزيز بمصر ، واتخذ له
وسيطاً بانيته عنده أم البنين ، فشفعت فيه على ما جاء في القصة .
ولجوء ابن قيس إلى عبد الله بن جعفر تضافرت به الروايات^(٢) ،
وفي شعره ما يؤكد كده ، بل ما يثبت به من نحو قوله^(٣) :

تداركني عبدُ الإله وقد بدت . لذي الحقد والشنآن متى مقاتلي
فأنقذني من غمرة الموت بعد ما رأيتُ حياضَ الموت جَمَّ الناهلِ

(١) الطبري ٨١٦/٢ وانظر اليعقوبي ٣٢٧/٢ .

(٢) انظر الشعر والشعراء ص ٣٤٤ والكمال للبهر ص ٣٩٨ والخزاعة

(٣) أغاني ٨٢/٥ .

ومعنى ذلك أن استجارة ابن قيس بابن جعفر ثابتة ، ولكن بقيت في القصة بقية ، فهل شفع له ابن جعفر عند عبد الملك مباشرة ، أو شفع له بواسطة أم البنين ؟ أما القصة السابقة فتزعم ذلك ، ولكن هناك قصصاً أخرى نجد ابن جعفر فيها يشفع له مباشرة . فأبو الفرج نفسه يروى أن ابن قيس استجار بعبد الله بن جعفر ، وأنه أعطاه في أول لقائه ثمانمائة دينار ، فلما قبضها قال له : اسأل أمير المؤمنين في أمري . قال : نعم ، فإذا دخلت إليه معي ودعا بالطعام ، فكل أكلاً فاحشاً . فركب ابن جعفر ، فدخل معه إلى عبد الملك ، فلما قدم الطعام جعل يُسِيء الأكل ، فقال عبد الملك لابن جعفر من هذا ؟ فقال هذا إنسان لا يجوز إلا أن يكون صادقاً إن استبقي ، وإن قتل كان أكذب الناس ، قال : وكيف ذلك ؟ قال لأنه يقول :

ما نَقَمُوا من بنى أمية إلا أنهم يَحْلُمُونَ إن غضبوا
فإن قتله لغضبك عليه أ كذبه فيما مدحك به ، قال : فهو آمن ،
ولكن لا أعطيه عطاء من بيت المال ، قال ابن جعفر ولم وقد وهبته
لي ؟ فأحب أن تهب لي عطائه أيضاً ، كما وهبت لي دمه ، وعفوت لي
عن ذنبه ، قال : قد فعلت ، قال : وتعطيه ما فاته من العطاء ، قال :
قد فعلت وأمرت له بذلك ^(١) .

وهذا الخبر وإن انتهى بطلب العفو عند ابن جعفر ، فإن أثر الانتحال فيه بَيِّن ، لأن عبد الملك كان قبل طلب أبيه للخلافة يعيش في المدينة ، وأسلفنا أن ابن قيس كان هناك أيضاً أثناء خلافة معاوية وحكم أبيه مروان للمدينة ، فيبعد أن لا يكون على معرفة به ، وخاصة أنه شاعر ، وكان شعره يروى في المدينة حينئذ ، بل كان مروان أبوه نفسه يرويه ^(١) .

ولا يبعد أن يكون ابن جعفر قد طلب الأمان له ، وطلبه أيضاً عبد العزيز بن مروان عن طريق ابنته أم البنين ، ولكن على كل حال إنما يعترف ابن قيس في شعره بأن ابن جعفر هو الذي أمّنه على نفسه .
ولسنا ندرى هل عاد ابن قيس مع ابن جعفر إلى المدينة ، أو أنه ولّى وجهه نحو وجهة أخرى ، ففي شعره ما يدل على أنه كان في العراق سنة ٧٣ للهجرة ، إذ نراه يهجو من يسمى عبد العزيز بن عبد الله بن خالد ، وكان قد هزم أمام الخوارج ^(٢) ، وفي الوقت نفسه نراه يمدح بشر ^(٣) بن مروان ، ويقال إنه أنشده يوماً قصيدة يقول فيها :

يا بشرُ يا ابنَ الجَعْفَرِيَّةِ ما خَلَقَ الإلهُ يدِيكَ للبخلِ

فقال له بشر : احْتِسِمْ ، قال : اعطى عشرين ألف درهم ، فقال

(٢) طبرى ٢/٨٢٨ .

(١) ابن عبد ربه ٣/٢٤٥ .

(٣) الديوان ص ٢٤٥ .

بشر: قبحك الله، لك عشرون وعشرون وعشرون وعشرون وعشرون ، فأعطاه مائة ألف درهم^(١). ونحن نعرف أن بشراً وافته المنية مريعاً فسرعان ماتوفى وخلفه الحجاج سفة ٧٥ للهجرة . وليس في ديوان ابن قيس ولا في أخباره ما يدل على أنه وفد على العراق بعد وفاة بشر ، ولعله لم يذهب مخافة الحجاج على نفسه ، أو لعله لم يذهب لأنه اتصل بعبد العزيز بن مروان وإلى مصر . ومرّ بنا ما يقال من أنه كان أحد شفعائه عند عبد الملك ، ولا نعرف لماذا لم يذهب إليه مباشرة وذهب إلى العراق ، ولعله إنما ذهب إلى العراق لأنه ترك هناك بعض أهله ، وكان كثير من عشيرته في الموصل .

ونحن نظن أن ابن قيس لم يستمر في العراق حتى وفاة بشر وأنه عاد قبل ذلك ، فقد اتخذ على ما يظهر مكة مقاماً^(٢) له ، وكان يرحل منها إلى المدينة لمديح ابن جعفر وأخذ نواله ، كما كان يرحل منها إلى مصر لمديح عبد العزيز وحمل جوائزه وعظاياه . وفي ديوانه قصائد كثيرة في مديح عبد العزيز وابن جعفر . ويروى أبو الفرج أن صلة جاءت ابن جعفر من لدن عبد الملك وابن قيس غائب ، فأمر عبد الله خازنه ، فخبأ له صلته ، فلما قدم دفعها إليه ، وأعطاه جارية حسناء ، فقال ابن قيس :

(١) أنساب الأشراف للبلاذرى (طبع بيت المقدس) . ١٧٥/٥ .

(٢) انظر أغاني ٩٣/٥ .

إذا زرت عبد الله ، نفسى فداؤه رجعت بفضلٍ من نَدَاهِ ونائلِ
حَبَانِي لما جئته بَعْطِيَّةٍ وجاريةٍ حَسَنَاءَ ذَاتِ خِلَافٍ^(١)
وما زال يأخذ صلوات ابن جعفر حتى توفى سنة ٨٠ للهجرة ، وقيل
بل سنة أربع وثمانين أو خمس وثمانين^(٢) . وأكبر الظن أن صلوات
عبد العزيز بن مروان لم تنقطع حتى توفى هو الآخر سنة ٨٥ للهجرة^(٣) ،
فقد لزمه وكاد أن يكون شاعره .

ولا نجد ذكرًا لابن قيس الرقيات بعد هذا التاريخ إلا ما يذكره
الرواة من أن أم المؤمنين حجت في خلافة زوجها الوليد بن عبد الملك
(٨٦ — ٩٦ هـ) فنظم الشعراء فيها وفي جواريتها . وروى أبو الفرج
لابن قيس شعراً قاله حينئذ في أم البنين^(٤) . ومعنى ذلك أن ابن قيس
عاش إلى ما بعد وفاة ابن جعفر وابن مروان : عبد العزيز وعبد الملك ،
ولكن ليس في ديوانه ما يدل على أنه مدح الوليد . وأكبر الظن أنه لم
يعش حتى آخر عهده بل لم يستمر في خلافته طويلاً ، فإن عمر بن
عبد العزيز بن مروان ولي المدينة سنة ٨٧ للهجرة ، وليس في ديوان
ابن قيس مدح له . ولو لحقه ابن قيس لمدحه كما مدح أباه ولي نعمته ،

(١) أغاني ٨٢/٥ . (٢) أسد الغابة ١٣٥/٣ .

(٣) طبرى ١١٦٥/٢ وابن الأثير ٤٠٩/٤ .

(٤) أغاني ٢٢٠/٦ .

وقد كان يقبض لبديته على بيت عبد الملك تعصباً شديداً . ويُروى أن ابن جعفر قال له سنة ٧٣ للهجرة حين طلب له العفو من عبد الملك : عَمَّرَ نفسك ، فعمَّرها ستين ، وإذن فعبد العزيز بن مروان توفي وعمره اثنتان وسبعون سنة ، ويغلب على الظن أنه لم يعيش طويلاً بعد ذلك .

ونرى مما قدمنا أن ابن قيس عاش حياة طويلة ، وقد لُوِّتَ في أوائلها وأثناء مقامه في مكة والمدينة بألوان من اللهو ^(١) ، إذ كان يجري في أثر المغنيين والمغنيات ، وكان يقبضهم ، ويعقد الصداقة بينه وبينهم . على أنه سرعان ما اصطدم بالحوادث بعد ذلك ، فانتقل إلى الرقة ، وأسره عمير بن الحباب ، ثم افتك أسره ، وقد أخذ يكثر من بكاء شيا به ^(٢) منذ أن جاءت أخبار وقعة الحرة وموت ابني أخيه : أسامة وسعد فيها ، وتعلو شعره من حين إلى آخر مسحة من الحزن والتفكير في الحياة والموت كقوله ^(٣) :

هل ترى من مُخَلِّدٍ غير أن الله يَبْقَى وتذهب الأشياء
يأمل الناس في غدٍ رَغَبَ الدَّهْرِ ألا في غدٍ يكون القضاء

وطبيعي أن ترتفع هذه النغمة الحزينة في شعر ابن قيس من وقت إلى آخر ، فقد أملت به حوادث كثيرة ، وأوشك عبد الملك أن يطير به

(١) أغاني طبع بولاق ٥٩/١٦ .

(٢) الديوان ص ٦٨ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ٢٠١ .

(٣) الديوان ص ١٧٣ .

طيرة بطيئاً سقوطها ، ومن قبله أوشك عمير بن الحباب أن يقضى عليه .
ومن هنا لا يكون غريباً أن تَغْمَرَ شعره ظلال حزينه أحياناً .

وقد يكون لهذه النزعة في طوايا نفسه أثر في إقباله على الشراب ،
وسرت بنا قطعة قالها في أيامه الأولى بالمدينة حين وليها مروان بن
الحكم وضبطها مصعب بن عبد الرحمن بن عوف برجال من أئمة تمحرك
السياط في أيديهم ويخاف الناس من مغنين وغير مغنين بطشهم . ونراه
في هذه القطعة يدعو إلى الشراب . ويظهر أنه عُنِيَ بعد مفارقتة المدينة
به ، فمن يونس أنه شغل نفسه بالشراب بتكرير^(١) ، وربما كان
يونس مبالغاً . وفي ديوانه^(٢) :

وسلافٍ مما يَعْتَقُ حِلِّ زاد في طيبها ابنُ عبدِ كلالٍ
وأكبر الظن أنه يقصد نبيذ التمر الذي كانوا يحلونه في المدينة^(٣) ،
ولذلك نعتته بأنه حل . ولكن على كل حال هذا بيت عابر في الديوان ،
ومثله بيت القطعة التي أشرنا إليها :

عَلَّ القومِ يَشْرَبُوا كي يَلْدُوا وَيَطْرَبُوا
أما بعد ذلك ، فليس هناك ما يدل على ما زعمه يونس من أنه
شغل نفسه بالشراب ، فأكبر الظن أنه إنما صنع ذلك في فترات متقطعة ،

(١) أغاني ٨٨/٥ . (٢) الديوان ص ٢٠٦ .

(٣) أغاني ١٥/١٥ . وانظر أغاني طبع دار الكتب ٢٥١/٢ وما بعدها .

وقد تكون حياة اللهو والبهجة في المدينة هي التي دفعته أولاً إلى شراب الخمر ، ثم أخذ يشربها بعد وقعة الحرة في تكريت وغيرها لينفّس عن نفسه وما أصابها من حزن وحسرة ، غير أن ذلك كان عارضاً في حياته كما عرض البيهقي السابقان في ديوانه .

وأهمُّ صفة تميزا بن قيس هي صفة الوفاء ، فقد كان وفياً لآله وأصدقائه ، أما وفاءه لآله فيتضح في تأثره الشديد بقتلهم في وقعة الحرة ، وما صاغه من شعر عقب ذلك . وأما وفاءه لأصدقائه فيتضح في رثائه لمصعب وقد بكاه طويلاً في ديوانه . وفي الأغاني أنه « كان عند عبد الملك ، فأقبل غلمان له معهم عَسَاسٌ ^(١) خَلَنَجٍ ، فيها ابن البُخْتِ ^(٢) ، فقال عبد الملك يا بن قيس أين هذا من عساس مصعب التي تقول فيها :

ملكٌ يُطعم الطعامَ وَيَسْقِي لَبَنَ البُخْتِ فِي عَسَاسِ الخَلَنَجِ
فقال : لا أين يا أمير المؤمنين لو طرحت عساسك هذه في عَسٍ من عساس مصعب لوسعها وتغلغلت في جوفه . فضحك عبد الملك ثم قال قاتلك الله يا بن قيس ! فإنك تأتي إلا كرماً ووفاءً ^(٣) . وهذه شهادة عظيمة ، من خصم مصعب ، بوفائه وحرصه البالغ على الوفاء .

(١) العساس : جمع عس وهو القدح ، والخلنج .

(٢) البخت : جمع بختية وهي الناقة الحراسانية .

(٣) أغاني ١٦٧/٧ .

شعره الغنائى

احتفظ لنا كتاب الأغاني بطائفة من شعر ابن قيس الغنائى ،
وأكثرها يدور حول الحب الذى شغلت أفاضل الناس فى هذا
العصر ، فقد كان العصرُ عصرَ فراغ وتعطّل . لم تعد هناك هذه الحروب
المدوية فى أطراف العالم الإسلامى ، وعاد الناس أو عاد كثير منهم إلى
مسقط رأسه فى مكة والمدينة ، وامتلأت حجورهم بالمال الذى
جلبوه من الخارج ، وأخذوا يعيشون على نمط جديد ، فيه فراغ من
جهة ، وفيه ترف ودعة من جهة أخرى ، فظهر الغناء ، ولم يلبث أن
ارتفع به المغنون إلى الأوج أو إلى القمة ، وكاد أن يكون فى كل بيت
من بيوت أشراف قريش مغن أو مغنية أو مغنون ومغنيات ، كَبِيتَ
الثريا فى مكة ، وقد تحدثنا عنه مراراً ، وكَبِيتَ عبد الله بن جعفر فى
المدينة ، وكان فيه سائب خاثر وبُدَيْح وشَيْط ، وعلى أيديهم تخرّج
أكثر المغنين والمغنيات فى المدينة .

وكانت الحياة فى مكة والمدينة هذا العصر تدفع كل شاعر هناك
للاتصال بالمغنين حتى يروج اسمه ، وتشيع شهرته بين النبلاء والأشراف ،
الذين لم يكن لهم من عمل سوى الاستماع إلى الغناء وآخر ما أحدثه
أصحابه من أغنيات .

ولم تقف المسألة عند الرجال فإن المرأة القرشية الشريفة أخذت
تغنى بهذا الجانب وما يتصل به من الشعر على نحو ما كانت السيدة
ثرثيا تصنع في مكة ، وفيها يقول ابن قيس الرقيات ^(١) :

يَا سَلِيمَانُ إِن تُلَاقِ الثَّرِيَا تَلَقَّ عَيْشَ الْخُلُودِ قَبْلَ الْمَلَالِ
حَبَّذَا الْحَيَجَ وَالثَّرِيَا وَمَنْ بَالُ الْخَيْفِ مِنْ أَجْلِهَا وَمُلَقَى الرَّحَالِ
دُرَّةً مِنْ عَقَائِلِ الْبَحْرِ بِكُرٍّ لَمْ تَنْلَهَا مِثَاقِبُ اللَّالِ

وهل هناك من شاعر يعيش في مكة ، ويستمر له العيش فيها
أو يفارقها ، إلا وهو يذكّر الثريا صاحبة الغريز ويحيي قيئل ومُتمية ،
وكانت تستقبل في منزلها الشعراء وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة
الذي فتنته وشغفت قلبه حبا . إنها سيدة مكة ، سيدة شريفاتها اللائي
أظهرن ذوقا بديعا في العناية بفن الغناء الجديد وأصحابه من المعنين ومن
يصنع لهم الأغاني من الشعراء . لهذا كله يكون من الطبيعي أن يذكرها
ابن قيس ، فهي الزهرة الغضة الناضرة بمكة ، وهي صاحبة الذوق الفني
السليم في تقدير الشعر والشعراء والغناء والمغنين .

ونحن لا بد أن نلاحظ الحياة القاسية التي مرت على الناس وعلى
المرأة خاصة في مكة أثناء عصر الخلفاء الراشدين ، عصر الفتوح والحروب
والغزو والجهاد في سبيل الله . ومن غير شك كانت مكة حينئذ مقفرة

(١) الديوان ص ٢٠٦ وانظر أغاني ٢١٣/١ .

أو تكاد من الشباب إذ كان في شغلٍ عنها ، وكانت المرأة تحس بجفاف الحياة ، وتنتظر رجوع الشباب ، ولم تلبث الحروب أن انتهت ورأت المرأة القرشية نفسها تخرج من حياتها القديمة الخشنة إلى حياة جديدة مترفة زاخرة بألوان من الحضارات الأجنبية وبصنوف من الجوارى الأجنبية ، فكان من الطبيعي أن تندفع في هذه الحياة وأن تأخذ منها بحظ بل بحظوظ ، فتساهم في المتاع بفن الغناء الجديد ، وتهيئ بما لها من مكانة رفيعة في مجتمعهما لهذا الفن جواً من استجسانه والعناية البالغة به .

وأعد ذلك لنهضة حقيقية في الغناء وفي الشعر الذي يتخذ هذا الغناء ، وكان ابن قيس ثانياً اثنين ينهضان بهذا الشعر : هو ومن طرف ، وابن أبي ربيعة من طرف آخر ، غير أن ابن قيس لم تهدأ له الحياة هدوءها لعمر . ومعنى ذلك أن الأسباب لم تُكفَل له ، حتى يخص نفسه لهذا الشعر الذي كانت تطلبه مجالس الأشراف والشرىفات في مكة والمدينة ونواحي الغناء فيهما ، ونقص شعر الحب ، أو كما يسمى شعر التشبيب والغزل ، فقد ألهمته أحداث الدنيا عن هذا التخصص ، ولم يكن ثرياً ثراء عمر ، فانقسمت نفسه بين المدح والحب . ومع ذلك ف شعر ابن قيس في الحب أو في الغزل والتشبيب يحمل في أجواء الفن العليا من حيث الصفاء وشفافية التعبير ، ومن حيث القيم الغنائية الخالصة ، فقد توفرت له المعيشة في مكة ، هذه البيئة المترفة حيث

الثريا ومغنوها ومغنياتها ، وحيث ابن سريج وابن مسجح وابن محرز .
ثم انتقل ابن قيس إلى المدينة ، وانعقدت أثناء مقامه بها الصداقة بينه
وبين فند ثم بينه وبين سائب خاثر وبديح على ما مر في غير هذا
الموضع . وكما صحب هناك المغنين صحب المغنيات وعلى رأسهن سلامة
القس التي فتنت قسّ مكة المشهور عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي ،
وفيها وفي أختها ربيّا يقول^(١) :

لقد فتنت ربيّا وسلامه القسّا فلم تتركاً للقسّ عقلاً ولا نفساً
فيتانان أما منهما فشيبة ١١ هلال وأخرى منها تشبه الشمسا

وفي الأغاني أنه كان يجلس إليهما يستمع إلى غنائهما في شعره
وشعر غيره^(٢) . وحياتة ابن قيس من هذه الناحية حياة شاعر غنائى
بالمعنى الكامل ، فهو يلزم المغنين والمغنيات ويستمع إلى ألحانهم
وأناغمهم ، ويقف على ما يريدون من تجديد في الشعر تحت تأثير هذه
الأنغام والألحان . وأثناء ذلك كان يقدم لهم ما يحدث من طرائف
الشعر الغنائى ، فيذيعونه على قيثاراتهم .

وكل من يطلع على الأغاني التي كان يلحنها المغنون والمغنيات في
شعره يعجب بمقدرته على النظم في هذا الشعر الذي يقطر فيه ابن قيس
عواطف الناس من حوله ، وهي عواطف كان يعبق بها جو مكة

(١) أغاني ٨/٣٣٥ . (٢) أغاني ٨/٣٣٧ .

والمدينة ، وكان ابن قيس يجمع لنفسه منها كل ما يستطيع من قطرات
نفسية وحبّات وجدانية ، ويرسلها في الناس عن طريق المغنين
والمغنيات ، فيضجون بالإعجاب والاستحسان الشديد^(١) .

وتنوعت الأسماء التي احتواها شعر ابن قيس ، والتي تغنى بها في
ديوانه ، فنحن نجد هذه الأسماء عنده : أمة الغفار وتُكْتَم وأم مساحق
وأثلة وقسيمة ولبلى وأسماء (أم بشر) وريا وسلامة وسعدّة وسعدى
وسلمى وسُلَيْمَى ومريم بنت الحواريّ وعاتكة وسلمة ورقية (نعماء ،
أم عمرو) وأم الوليد وأم البنين وكثيرة والثريا وعائشة بنت طلحة
وسكينة بنت الحسين .

وأكثر هذه الأسماء جاء في شعره عابرا ولم يُغنَ به الرواة ، وهي
كما نرى أسماء تختلط فيها الجوارى من مثل ريا وسلامة بالشريفات من
مثل الثريا وأم الوليد بن عبد الملك وأم البنين زوجته وعاتكة بنت يزيد
ابن معاوية زوجة عبد الملك و بنت الحواري ولعلها أخت مصعب بن
الزبير فهو يسميه كثيرا ابن الحواري^(٢) ، كما تختلط فيها أسماء قريباته من
مثل لبلى وأسماء^(٣) (أم بشر) وأثلة^(٤) بغيرهن من غير قريباته .

(١) أغاني ٩٩/٥ .

(٢) الديوان ص ٢٨٧ وأغاني طبع بولاق ١٦٥/١٧ .

(٣) الديوان ص ١٨٨ وانظر ص ٢٣٧ وص ٢٥٣ وانظر ص ٢١٣ .

(٤) الديوان ص ٢٦٣ وانظر ص ١٩٢ .

والنساء اللاتي تعلق بهن واللاتي قال فيهن ما يمكن أن نسميه غزلا هن رقية بنت عبد الواحد ابن عمه وأختها سعدة ، وكثيرة ، ثم نساء بنى أمية وعائشة وسكينة زوجتي مصعب بن الزبير .

ولا بد أن نميز بين غزل ابن قيس في رقية وأختها وغزله في نساء مصعب وبني أمية ، فهو في غزله الأول يحكى عاطفة حقيقية ، أما في غزله الثاني فيحاول أن يرضى السياسة أحيانا وأن يرضى عواطف الناس وعواطف هؤلاء اللاتي تغزل بهن أحيانا أخرى .

وتتقدم النساء اللاتي تغزل بهن جميعا رقية ابنة عمه عبد الواحد ، وكان لتسميته معاصريه له بابن قيس الرقيات أثر بعيد في اختلاط الأمر على الرواة كما تقدم في حديثنا عن تلقيبه ، فقالوا إنهن ثلاث : رقية ابنة عمه ، ورقية ابنة عم لها ، ورقية ثالثة اختلفوا فيها ، فقال قوم : هي أموية ، وقال آخرون : هي ابنة عبد الله بن جعفر ، ورأى أبو عبيدة أنهن اثنتان لا ثلاث .

وكل هذا يدل على اضطراب الرواة ، وفي رأينا أنها لم تكن إلا رقية واحدة هي ابنة عمه عبد الواحد . ويقول السكري جامع ديوانه إن الوليد بن عقبة خرج سنة سبع وثلاثين للهجرة حتى نزل الرقة في جماعة من بني عامر بن لؤى ، فيهم عبد الواحد بن أبي سعد ابن عم صاحبنا ، وأقبل عبيد الله فأقام فيهم ، وإنما لجّ عليه « الرقيات » لأنه كان يشب

برقية وسلمة ابنتي عبد الواحد^(١) ، ومعنى ذلك أن معرفته برقية جاءت بعد نزوله في أهلها بالركة . وفي الأغاني أنه رآها أثناء حجها مع أهلها كما قدمنا . وربما كان هذا الرأي أوجه من الرأي الأول ، فإننا نجد لابن قيس قطعة في رقية تجرى على الألسنة في المدينة ، ويرويها مروان ابن الحكم أثناء عزله عن المدينة زمن معاوية^(٢) ، فعرفة ابن قيس برقية قديمة .

ومن يطلع على ديوان ابن قيس يجده يكثر من حادث رؤيته لصاحبه في الحج ، ولذلك كنا نظن بل نقطع بأنها صحبت أباها أثناء حج له . وهناك رآها ابن عمها فشغفت قلبه حُبًّا ، وحاول أن يسلو عنها بانتقاله إلى المدينة ، ولكن مرضه بها كان يعاوده ، وكان أقوى في نفسه من أن ينصرف عنه ، فذهب يتقنى بها منذ فارق ركبها مكة^(٣) إلى أن لقيها في الرقة .

رقية إذن هي المرأة الأولى في حياة ابن قيس ، وقد ذهب يملأ باسمها جميع أركان مكة والمدينة ونواحيها ، يحاول أن يجد في ذلك ما يخفف من لواعج الحب في نفسه ، بل لعله كان يريد أن يذكى بها ، وأن يشعل بها جنبات نفسه وجنابات المدينتين الكبيرتين من حوله . إنها ابنة عمه ، وهي أولى من غيرها بشعره ، إنها لا تقصر عن هؤلاء النبيلات اللاتي

(١) الديوان ص ١٨٥ . (٢) ابن عبد ربه ٢٤٥/٣ .

(٣) الديوان ص ٢٦١ و ص ٢٨٩ وهنا يذكر سلمة أخت رقية .

يتغنى بهن ابن أبي ربيعة . ويظهر أن ابن عمه عبد الواحد كان يعجب بذلك منه وكان يرضى عنه ، ففتيات بنى معيص بن عامر بن لؤى ليسوا أقل جمالا ولا تأثيراً في نفوس الشعراء من فتيات الأمويين وغيرهم من نبلاء قریش ، فلما تبع ابن قيس هواه في الرقة وجد هناك قلباً تنتظره وأفئدة تصبو إليه ، فطاب له المقام هناك ترعاه عين رقية من بعيد وعين أختها سلمة وعيون قومه وعشيرته .

وتمتاز مقطوعات ابن قيس في رقية بصدق العاطفة وحرارة الوجدان ودقة المشاعر والإحساسات ورهافتها رهافة بالغة ، هي رهافة الحب الذي يترجم عما في قلبه ويعبر عما في جوانحه على نحو ما نرى في مثل قوله^(١) :

رُقِّيْ بَعِيشِكُمْ لَا تَهْجُرِينَا وَمَنْيْنَا الْمُنَى ثُمَّ امْطَلِينَا
عِدِينَا فِي غَدٍ مَا شِئْتُ إِنَّا نَحْبُ وَإِنْ مَطَلَتِ الْوَاعِدِينَا
فَإِمَّا تُنْجِزِي عِدَّتِي وَإِمَّا نَعِيشُ بِمَا نُوْمَلُ مِنْكَ حِينَا
أَغْرَكَ أُنْفَى لَا صَبْرَ عِنْدِي عَلَى هَجْرٍ وَأَنْكَ تَصْبِرِينَا

وهو هنا يعلن أنه تبعها إلى الرقة وترك أهله في المدينة أو في مكة ، وأظننا الآن أدركنا حلاوة صوت ابن قيس في مقطوعاته الغنائية التي ينظمها في رقية ، ونراه يعبر عن ذوق حضري في تدليل محبوبته

والتذلل لها والضراعة والتوسل ، فهو يطلب منها نائلا قليلا : أن تعده ،
فهذا حسبه ، وسواء بعد ذلك أوفت بوعدها أو لم توف ، فإن ذلك يكفيه
منها هناة ومسرة ، واستمع إليه يقول فيها ^(١) .

حَبَّ ذَاكَ الدَّلَّ ^(٢) والغُنْجُ والقي في عينها دَعَجُ
والتي إن حَدَّثَتْ كَذَبَتْ والتي في وعدها خَلَجُ ^(٣)
وترى في البيت صورتها مثلما في البيعة ^(٤) الشَّرْجُ
خَبَّرُونِي هل على رجلٍ عاشقٍ في قبلةٍ حَرَجُ

فإليك تحس في هذا الشعر أن قلب صاحبه يختلج بالفرح ، فهو
يصبر في سرور وخفة روح عن حبه ، وليس من ريب في أن هذه
الآيات تمثل ذوقاً جديداً هو ذوق الشباب الحجازي في عصر ابن قيس
الذين رقّ شعورهم ، وصفا إحساسهم ، وأصبحوا روحاً خالصة .
وما أظننا نبعد إذا قلنا إننا هنا أمام ذوق جديد وشعور جديد بالمرأة ،
فرجل البادية لم يكن يدق شعوره كل هذه البقة ، ولم يكن له هذه
الخفة في غزله ، ولم يكن ينفذ به إلى قلوبنا كل هذا النفوذ الذي نجده
عند ابن قيس ، واستمع إليه يقول ^(٥) :

(١) أغاني ٩٧/٥ . (٢) الدل : التدليل . الغنج : حسن الدل .

(٣) الخلج : الاضطراب وعدم الثبات .

(٤) البيعة : متعبّد النصارى .

(٥) أغاني ٩٥/٥ والديوان ص ١٤٠ — ١٤١ .

رُقِيَّةٌ تَيَمَّتْ قَلْبِي فَوَاكِدِي مِنَ الْحَبِّ
وَقَالُوا دَاوَهُ طَبُّ أَلَا بَلْ حَبُّهَا طَبِّي
نَهَانِي إِخْوَتِي عَنْهَا وَمَا لِلْقَلْبِ مِنْ ذَنْبِ
وَمَا أَقْبَلَ نُصْحَ النَّاسِ صَحِيٍّ مِنْ شِدَّةِ الْكَرْبِ

فإنك تجد في هذه الأبيات شفافية عن القلب والفؤاد ، فليس هناك شيء يحجب بيننا وبين الشاعر فقد صهره الحب ، وأشعل قلبه ، فعبّر عنه هذه التعبيرات الرقيقة .

واستمر ابن قيس متعلقا برقية يقول الشعر فيها ينفث فيه ما يختلج في قلبه من عواطف وإحساسات حتى اضطرت له الحوادث إلى مفارقة الرقة على نحو ما قدمنا . وفي ديوانه قطعة في رثاء عبدالواحد^(١) ، ولسنا ندري أتوفى قبل مفارقتها الرقة أو بعد ذلك . إلا أننا نلاحظ أنه انقطع عن ذكر رقية بعد هجرته من ديارها هناك ، أما القطعة التي جاء اسمها فيها وظن السكري أنه وجهها في مديح عبد الله بن الزبير لقوله أثناءها^(٢) :

وابن أسماء خير من مَسَحَ الرُّكُ بِنَ فَعَالَا وخيرم بنيانا
فأظنه وهما منه ، إذ ابن جعفر ممدوحه ابن أسماء أيضا ، وقد دعاه بأمه في قطعة أخرى بالديوان^(٣) . وليس من شك في أن صلته بابن

(١) الديوان ص ١٥٩ .

(٢) الديوان ص ٢٦٣ .

(٣) الديوان ص ٢٤٩ .

جعفر كانت أقدم من صلاته بعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب ، وشعره
 في رقية إنما كان قبل اتصاله بهما ، وقد فارقها وهو يردد في نفسه ^(١) :
 أُمَسْتُ رُقِيَّةً دُونَهَا الْبَشَرُ ^(٢) فَارْقَةُ السَّوْدَاءِ فَالْفَمْرُ
 وانطلق ابن قيس كما قدمنا إلى فلسطين فالحجاز فالعراق حيث
 مصعب ، وهناك رأيناه يتغزل أو يشبب بزوجه مصعب : عائشة وسكينة
 غزلا أو تشبيها لا يراد به إلى إعلان حبه لها حقا ، وإنما يراد به إلى إعلان
 جمالها ، وما يملك مصعب من دنيا المرأة ، وإنه لأولى بدنيا الرجال أن
 تزحف وراءه زحفا . ومن قوله في عائشة ^(٣) :

جَنِيَّةٌ بَرَزَتْ لِقَتْلَانِي مَطْلِيَّةُ الْأَصْدَاغِ بِالْمُسْكِ
 عَجَبًا لِمُثْلِكَ لَا يَكُونُ لَهُ خَرَجُ الْعِرَاقِ وَمَنْبَرُ الْمُلْكِ

فهو يخلط غزلا بالسياسة ، أو هو غزل أريد به إلى السياسة وبيان
 حق عائشة وزوجها مصعب في الملك والحكومة .

وعلى هذا النحو كان ابن قيس الرقيات يشبب بعائشة أو بسكينة ،
 ليشهرهما من جهة ، وليثبت حقهما في الملك والحكومة ، وإن لم يصرح
 بذلك كما صرح في البيتين السابقين ^(٤) ، ففرضه على كل حال الدعابة

(١) أغاني ٩٤/٥ والديوان ص ٢٨٥ .

(٢) البشر : جبل يمتد من الشام إلى الفرات .

(٣) أغاني طبع بولاق ٥٤/١٠ .

(٤) الديوان ص ١٣٠ .

لمصعب ولأهل بيته ، عن طريق الغزل . ولا نسميه غزلا بل نسميه مديحا
لزوجته : عائشة وسكينة ، فالغزل حينما يصبح الغرض منه التعبير عن جمال
المرأة والدعاية لها دعاية سياسية أو غير سياسية يخرج من بابه إلى باب المديح ،
وفطن القدماء لذلك ، فعبروا كثيرا بقولهم : قال يمدح فلانة ، وهو إنما
يشبب بها ، وماذا نريد في مديح المرأة ؟ أنريد وصفها بالفروسية
والشجاعة ؟ إن هذا إن حدث يعتبر هجاء ، فالمرأة في كل عصر هي نفسها ،
نروتها كلها جمالها ، ولذلك كانت تعجب دائما بمن يصور هذا الجمال
للناس من الشعراء ويريههم أو يسمعونهم ما امتازت به من حسن وفطنة .
وهذا الغزل الذي يمكن أن نسميه مديحا في عهده الجديد ، عهد
ملازمته لمصعب ، اقترن به غزل آخر يمكن أن نسميه هجاء ، واختص
به ابن قيس عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك وأم البنين
بنت عبد العزيز بن مروان زوجة الوليد بن عبد الملك ، فنراه يغزل
بالأولى في إحدى قصائده لمصعب غزلا فيه حرية ، فهو يخاطبها ، وهي
تخاطبه ، وإنها لتأسى على ما صارت إليه قریش من أضغان ، تجعلها
لا تستطيع لقاءه ، يقول على لسانها^(١) :

وقالت لو أنا نستطيع لزاركم طبيبان منا عالمان بدائكما
ولكن قومي أحدثوا بعد عهدنا وعهدك أضغانا كلفن بشانكما
فابن قيس يشبب بعاتكة هنا كما نرى ليؤذيها ، ويؤذى وقارها

ووقار زوجها ، فهو غزل لا يراد به إلى مديح المرأة ، وإنما يراد به إلى
هجائها إن صح هذا التعبير . فهو غزل لا تجد فيه المرأة ما يرضيها ،
وإنما تجد ما يؤلمها ، فهو إلى الهجاء أقرب منه إلى أى شىء آخر ، وحاول
أن يبلغ من هذا الهجاء كل ما يريد من إقذاع ولكن لا مع عاتكة ،
وإنما مع أم البنين إذ يتغزل بها في إحدى قصائده لمصعب على هذه
الشكلة ^(١) :

أَلَا هَزَلْتُ بِنَا قُرَشِيَّةً يَهْتَرُ مَوْكِبُهَا	رَأَيْتُ بِنَا شَيْبَةً فِي الرَّأْسِ مَنَى مَا أُغْيِبُهَا
فَقَالَتْ أَبْنُ قَيْسٍ ذَا	وغيرُ الشَّيْبِ يُعْجِبُهَا
رَأَيْتَنِي قَدْ مَضَى مَنَى	وَفَضَّاتُ صَوَاحِبِهَا
وَمِثْلُكَ قَدْ لَهَوْتُ بِهَا	تَمَامُ الْحَسَنِ أُغْيِبُهَا
لَهَا بَعْلٌ غَيُورٌ قَا	عَدُوُّ الْبَابِ يَخْجِبُهَا
يَرَانِي هَكَذَا أَمْشِي	فِيوَعِدُهَا وَيُضْرِبُهَا
ظَلَلْتُ عَلَى نَمَارِقِهَا	أَفْدِيَهَا وَأَخْلِبُهَا
أَحَدُهَا فَتَوْمَنُ لِي	فَأُصَدِّقُهَا وَأُكْذِبُهَا
فَدَعُ هَذَا وَلَكِنْ حَا	جَةً قَدْ كُنْتُ أَطْلُبُهَا
إِلَى أُمِّ الْبَنِينِ مَنَى	يَقْرَبُهَا مَقْرَبُهَا

أَتْنَى فِي الْمَنَامِ فَقُلْتُ هَذَا حِينَ أُعْقِبُهَا
 فَلَمَّا أَنْ فَرَحْتُ بِهَا وَمَالَ عَلَى أَغْذَبُهَا
 شَرِبْتُ بِرِيقِهَا حَتَّى نَهَيْتُ وَبْتُ أَشْرَبُهَا
 وَبْتُ ضَجِيمِهَا جَذَلًا نَ تَعْجِبُنِي وَأَعْجِبُهَا
 وَأُضْحِكُهَا وَأُبْكِيهَا وَالْتَبَسُهَا وَأَسْلُبُهَا
 أَعَالَجُهَا فَتَصْرَعُنِي فَأَرْضِيهَا وَأُغْضِبُهَا
 فَكَانَتْ لَيْلَةً فِي النَّوْمِ نَسَمَرُهَا وَنَلْعَبُهَا
 فَأَيُّقُظُنَا مَنَادٍ فِي صَلَاةِ الصَّبْحِ يَرُفُّبُهَا

وواضح في هذه المقدمة الغزلية أن ابن قيس أراد السخيرية من أم البنين ، حتى يخفض من تيهها ويطأطيء من كبريائها ، وإنه ليبتذلها في غزله ، ويحيلها وكأنها مثل هؤلاء الجوارى اللاتي يُيَمِّعْنَ ، واللاتي تَقْرُبُ منهن كل الأيدي وإنه ليبتذل معها زوجها فيرميه بالغيرة والغفلة . ثم ما يلبث أن يرسم هذه الصورة المفرطة في الابتذال ، فيتصور أنها جاءت في الحلم ، وأنها لم تمتنع منه شيئاً . كل ذلك يريد به ابن قيس إلى الإذلال والامتهان وإيذاء نفس أم البنين وزوجها الوليد وعما عبد الملك . وما نظن إلا أن عبد الملك كان يضطغن على ابن قيس هذه المقدمة الغزلية بأكثر مما يضطغن عليه هجاءه له مباشرة ، فتلك صورة ليس فيها هيئك للحرمت ، أما صورة أم البنين

فصورة بشعة تؤذى النفس العربية الحرة . وهذا ما كان يريد به ابن قيس بغزله في الأمويات حين كان يعيش في ظل مصعب ، وحين كانت تزين له نفسه أن مصعباً سينتصر وسيحول الأمر إليه وإلى أخيه عبد الله لا في الحجاز والعراق فحسب ، بل أيضاً في الشام ومصر . ولم تلبث آمال ابن قيس أن تحطمت فقتل مصعب وعبد الله وأصبح الأمر كله لعبد الملك ، ولجأ صاحبنا إلى ابن جعفر يشفع له ، فقد كان ذنبه عظيماً ، وقيل إن عبد العزيز بن مروان وابنته أم البنين شفعا له مع ابن جعفر ، فتحول ابن قيس إلى مديح الرجلين وأراد أن يمدح أم البنين فلجأ إلى الغزل والتشبيب بها ، ولكن في صورة جديدة تقف عند تصوير حسننها وما يميزها من فطنة وإغراء ، ويظهر أنها أوتيت من الجمال حظاً بعيداً ، وقد ذهب يغنيها ويملاً باسمها جميع الأرجاء من الحجاز والشام إلى العراق ومصر ، ومن قوله فيها^(١) :

أُمُّ الْبَنِينِ سَلَبْتَنِي حِلْمِي وَقَتَلْتَنِي فَتَحَمَلِي إِيَّامِي
وَتَرَكْتَنِي أَدْعُو الطَّيِّبَ وَمَا لَطِيبُكُمْ بِالْدَاءِ مِنْ عِلْمِي
بِاللهِ يَا أُمَّ الْبَنِينِ أَلَمْ تَخْشَى عَلَيْكَ عَوَاقِبَ الظُّلَمِ
خَافِي إِلْهَكِ فِي ابْنِ عَمِّكَ قَدْ زَوَّدْتَهُ سَقَمًا عَلَى سَقَمِ
وَتَرَكْتَهُ يَمْشِي وَلَيْسَ لَهُ عَقْلٌ يَعِيشُ بِهِ مَعَ الْحَزَمِ

وابن قيس لا يريد حقا أن يعلن عن تولده بأمر البنين ، أو أم الوليد زوجة عبد الملك كما جاء في بعض الروايات ^(١) ؛ وإنما يريد أن يعلن عن جمال المرأة ، أو قل بعبارة أدق إنه يريد أن يمدحها ، والمرأة إنما تمدح بجمالها وبفتنة الناس بها ، وكأن ابن قيس يريد أن يبلغ من ذلك كل ما تريده أم البنين . ولعل من الطريف أن نجده يقدم إحدى قصائده لعبد الملك بتشبيبه فيها ، فيقول ^(٢) :

أصحوّت عن أمّ البند	ينَ وذكرها وعنائها
وهَجَرَتْهَا هَجَرَ امْرئٍ	لم يَقُلْ صفو صفائها
قرشيّة كالشمس أشدّ	رقَ نورُها بيهاها
زادت على البيض الحسا	ن بحسنا ونقائها
لما اسبكرت للشبا	ب وقنعت بردائها
لم تلتفت للداتها	ومضت على غلوائها
اسمع أمير المؤمنين	ين لدحتي وثنائها
أنت ابن عائشة التي	فضلت أرومَ نساءها
ولدت أغرّ مباركا	كالبدر وسط سماءها

وعائشة : أم عبد الملك وهي بنت معاوية بن النخعة بن العاص بن

(١) انظر الأغاني ٦/٢٦٠ . (٢) أغاني طبع بولاق ١١/٤٩ .

أمية^(١) ، فهو يجمع في القصيدة بين مديح أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك وعائشة أم عبد الملك . ولعل في هذا ما يريفا كيف أن الخلفاء في هذا العصر لم يكونوا يكرهون أن يشبب الشعراء بنسائهم ، لأن الشعراء لم يكونوا يشببون في الواقع ، وإنما كانوا يمدحون ، وهل يمكن أن يقبل عبد الملك غزلاً أو تشبيها خالصاً من ابن قيس في زوجة ابنه إلا أن يفهمه على أنه مديح ، وأن الشاعر قسم القصيدة بين زوجة ابنه وأمه وبينه ، وكان ابن قيس متصلاً أيضاً بعبد العزيز بن مروان بل كان شاعره إن أمكن أن نجعل له شاعراً ، فلا يعقل أن يشبب بابنته وهو يريد التشبيب من حيث هو ، وإنما كان يريد أن يمدحها ، وقد عرف عبد العزيز بأنه كان يطلب من الشعراء أن يشيدوا باسم أمه لبلى في مدائحهم له ، وذكرها ابن قيس في قصائده التي قدمها إليه مراراً^(٢) .

ولعله شَبَّبَ بكثرة اعترافا منه بفضلها وفضل زوجها ، وقد أسلفنا أنها تزوجت على بن عبد الله بن العباس وأنه أجاز على عبد الملك بعض الخارجين عليه مع مصعب . فإذا كان ابن قيس قد عاذ بكثرة فعله عاذ في الواقع بزوجها ، فاختفى عنده ولم يستطع أن يستصدر له عفوا من لدن عبد الملك ، وأكرمه كثيرة أثناء ذلك ،

(١) انظر الطبري ١١٧٣/٢ والعقد ٣١٦/٢ والديوان ص ٢١٤ حيث أخطأ السكري في نسبة القصيدة إلى عبد الله بن الزبير وهي في عبد الملك .

(٢) الديوان ص ٨٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٦ .

فذهب يتغزل بها ، وإن كنا نلاحظ أنه ليس في شعره ما يشير إلى أنه
اختفى عندها أو لجأ إليها ، بل كل ما فيه أنها مترفة وزراه يلقيها
بالأميرة^(١) ويطنب في وصف عطرها وملابسها^(٢) ، ويقول إنها
خزرجية^(٣) ، وقد شُبب بها في القصيدة الأولى التي لقي بها عبد الملك
سنة ٧٣ للهجرة إذ يقول^(٤) :

عَادَ لَهُ مِنْ كَثِيرَةِ الطَّرَبُ فَعَيْنُهُ بِالْدمُوعِ تَنْسَكِبُ
كُوفِيَّةٌ نَازِحٌ مَحَلَّتُهَا لَا أَمَمٌ دَارُهَا وَلَا صَقَبٌ^(٥)
وَاللَّهِ مَا إِنْ صَبَتْ إِلَيَّ وَلَا يَعْلَمُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا نَسَبُ
إِلَّا الَّذِي أَوْرَثَتْ كَثِيرَةً فِيهِ قَلْبٌ وَلِلْحَبِّ سَوْرَةٌ عَجَبُ

وهو هنا يؤكد أنه ليس بينه وبينها صلة إلا الذي أورثه قلبه من
هذا الحب الذي لا تخمد نيرانه ، وهو حب من طرف واحد . ويحس
كل من يقرأ مقطوعاته الغنائية فيها أنه بثَّ في غزله بها حنينه إلى العراق
وإلى ما فاتته هناك من نعيم الحياة ، وكأنه يقخذها رمز دنياه ونعيمها
الذي طرد عنه ، ولذلك كان شعره فيها يُطْبَعُ بطابع من الحنين والأسف
على دنياه زائلة .

(١) الديوان ص ١٨٩ وما بعدها .

(٢) الديوان ص ١١٥ وانظر ص ٩٤ .

(٣) أغاني ٩١/٥ .

(٤) الديوان ص ٦٧ وأغاني ٧٩/٥ .

(٥) أمم : قريب . صقب : ملاصق .

وهذا الجانب في ابن قيس يلفتنا إلى مقدرة رمزية كامنة فيه ، فهو يتخذ من كثيرة رمزاً لأيامه في العراق ولذلك يكثر من بكائه ودموعه في غزله بها . وفي ديوانه ما يدل على أن هذا الاتجاه انطوى في نفسه مبكراً ، فنحن نجد يرمز لرقية باسم نعم ^(١) تارة واسم أم عمرو ^(٢) تارة أخرى ، وقد رمز لأم البنين باسم سلمي ^(٣) ، ولا ندري لماذا رمز لها ولا لماذا رمز لرقية إلا أن يكون هذا جانباً في نفسه ، كان كامناً ، وكان يظهر بين الحين والحين .

ولعل من الطريف في هذا العسدد أنه حين رضى عنه عبد الملك وقابل إسماعيل بن وهب بن مهران ، حين أصابته كل هذه السعادة وجدناه يمدح بشراً فيقدم لمدحه بغزل لمن تسمى سَعْدَى ، وهو يتخذ من اسمها رمزاً لكل ما في نفسه ، ولكل ما أصاب من تحقيق آماله ، يقول ^(٤) :

قد أتاناً من آل سَعْدَى رسولٌ حبذا ما يقول لى وأقولُ
من فتاةٍ كأنها قرْنُ شمسٍ ضاق عنها دمالجٌ ^(٥) وحُجُولُ
حبذا ليلى بمزّةٍ كَلْبٍ غال عني بها الكوانين غولُ

(١) الديوان ص ١٠٨ . (٢) الديوان ص ١٠٨ ، ٢٣٦ .

(٣) الديوان ص ١٤٨ وأغاني طبع بولاق ٥٠/١١ .

(٤) الديوان ص ٢٤٥ وأغاني طبع دار الكتب ٩٩/٥ .

(٥) الدمالج : جمع دملج وهو خلية تلبس في العصد . والحجول : جمع حجل وهو الخلل .

ومزة كلب: قرية كبيرة في وسط بساتين دمشق، وواضح أنه يعان بذلك سروره، فقد عفا عنه عبد الملك، وطابت بذلك أيامه ولياليه، فالدنيا من حوله كلها بشر وسلام، بل فرح ومسرة وهو يبت كل ما في نفسه من ذلك في اسم سعدى صاحبة التي أرسلت إليه رسولها، فقد دنت منه السعادة، بل قد مست قلبه وفؤاده. وهذه هي أول قطعة غنى فيها باسم سعدى، وخليق به أن يغنى بهذا الاسم وقد ابتسمت له الدنيا من حوله. وعاد إلى ذكره مرة ثانية، ولكن بعد أن توفي بشر ولزم عبد العزيز بن مروان وأصبح شاعره الذي يتكلم باسمه. وحدث أن فكر عبد الملك في تحويل عهد أبيه بالخلافة من بعده إلى أخيه عبد العزيز، وجعلها لابنه الوليد، فغضب عبد العزيز وغضب شاعره ابن قيس، وقال في ذلك شعراً أغضب عبد الملك مما جعله يتهدده. حينئذ نظم ابن قيس قصيدة رمزية يذم فيها الذين يغتابونه عند الناس ويأكلون لحمه، وبدأها بذكر سعدى ولكنه أضاف إليها ما يعبر تعبيراً رمزياً بديعاً عن كل ما في نفسه إذ يقول^(١):

بشّر الظنبي والغراب بسعدى مرحباً بالذي يقول الغراب
قال لي إن خير سعدى قريب قد أنى أن يكون منه اقتراب
قلت أنى تكون سعدى قريباً وعليها الحصون والأبواب

(١) الديوان ص ١٦٥ وأغانى طبع بولاق ١٦/٥٧.

حبذا الرثم ذو الوشاحين والقصر الذى لا يناله الأتراب
 إن فى القصر لو دخلت غزالاً موصداً مصفقا عليه الحجاب
 أرسلت أن قد نك نفسى فاحذر شرطه هاهنا ، عليك غضاب
 أقسموا إن رأوك لا تطعم الما . وهم حين يقدرون ذئاب
 قلت قد يغفل الرقيب وتغنى شرطه أو يحين منها انقلاب
 أو عسى الله أن يؤتتى أمراً ليس فيه على الحب ارتقاب
 ارجى فأقرئى السلام عليها ثم ردى جوابنا يا رباب
 حديثها بما لقيت وقولى حق للعاشق الكريم ثواب
 رجل أنت همهم حين يمسى خامرته من أجلك الأوصاب
 لا أستم الرياحن إلا بعينى كرمًا إنما تشم الكلاب
 ثم استطرد ابن قيس يحقر المغتاب والمنافق ويذمهما ذما بليغاً ،
 وهو فى ذلك كله يريد أن ينفس عن نفسه . وأظن أن المقدمة
 الغزلية اتضحت لنا الآن ، فقد حملها ابن قيس كل ما يريد من
 خوف عبد الملك على نفسه ، ومن بيان أن أبوابه أوصدت دونه ثانية ،
 فقد عاد ابن قيس يرسف فى أغلال الوجيل التى خلعتها من يديه ابن
 جعفر وأم البنين . وهو هذه المرة مضطرب اضطراباً شديداً فهو لا يدرى
 من ينفذه من عبد الملك ، وربما كان ابن جعفر قد مات ، وهذا عبد العزيز
 لا يستطيع الآن أن يدافع عنه . إن الحياة قد أظلمت فى وجهه ، وإن

الغالب ليبشر بسعدى وأنها سترضى عنه ، ولكن الشؤم يتبعه ويلزمه . ولا نشك في أن ابن قيس وفق في هذه المقدمة التي تصف حركات نفسه الباطنة توفيقا بعيداً ، وقد ذهب يرمز في البيت الأخير إلى عفته ، وأنه مهما تغزل برقية أو كثيرة أو أم البنين إنما يعبر عما رأت عيناه ، وعما يقوله عن طريقها من دهشة وحيرة . أما بعد ذلك فنفسه طاهرة وروحه طاهرة وجميع أفكاره طاهرة ، وكأنه يريد أن يعبر عن طهر عام في أخلاقه ، فهو لا تدنسه لعبد الملك ولا غيره أمنية سيئة ولا نية شريفة .

وإن هذه المقدمة الرمزية لتدل دلالة واضحة على تقدم الحياة وتقدم الذوق الفني عند العرب ، فقد كان الشاعر القديم لا يرمز ولا ينطوى على نفسه ، فالحياة صريحة وليس فيها تعقيد ، أما في هذا العصر الأموي فقد تغيرت الحياة تحت تأثير الحضارات التي عرفها العرب ، وأصبحت صلة الفرد برئيسه معقدة ، لم تعد كالصلة القديمة بين شيخ القبيلة وأفرادها ، بل أصبحت على هيئة جديدة ، هيئة معقدة ، فيها شرطة وفيها عقاب قاس حين يريد رئيس الدولة العقاب .

والحق أن ديوان ابن قيس يعبر عن ذوق جديد لا في هذه الناحية فحسب ، بل كما قدمنا في ناحية التشبيب والغزل أيضاً ، فالأفكار التي يؤلف ابن قيس منها غزلياته أفكار رجل متحضر ، فيها خفة ، وفيها دقة متناهية في الحس ، ودقة بالغة في الشعور .

وأظن الفرق وانحأ جداً بين غزليات ابن قيس السابقة ومطالع القصائد في الجاهلية ، تلك المطالع التي كانوا يقفون فيها عند الأطلال والديار يتحدثون عن النوى والأثافي والأوتاد والآرام والظباء وبقر الوحش وهذه الحيوانات التي تجوس خلال الديار ، حتى إذا فرغوا من ذلك انتقلوا إلى وصف إبلهم ورحلاتهم في الصحراء ، ولما نجد أثناء ذلك وصفاً معنوياً للمرأة . وقد يذكر ابن قيس الديار ولكن في بيت أو بيتين أو أبيات قليلة ، ثم يتركها إلى وصف خواطره نحو المرأة والتعبير عما لحببته في نفسه ، في تذلل وتوسل وضراعة ، وهو في أكثر حالاته يعتمد إلى ذلك دون مقدمة الأطلال والديار ، فهي لا تأتي إلا قليلاً جداً ، وحينما يكون قد سافر حقاً إلى ممدوحه من الحجاز إلى مصر مثلاً ، ومع ذلك فإنه يتركها تَوْلاً ليسرد لنا أفسكاره وخواطره ، ويصف لنا عشقه وحبه .

وهذا هو معنى أن الحياة تغيرت في الحجاز ، فقد أخذ الشعراء يعتمدون إلى أساليب جديدة في تعبيرهم ولم يعودوا يتمسكون بالأساليب القديمة ، فالحياة تغيرت تحت أعينهم ، ولم تعد الأساليب القديمة تصلح لهم كل الصلاحية إلا ما يمكن الاحتفاظ به من عناصرها كفكرة رحيل الأحبة وبكاء ديارهم ومنازلهم التي نزلوها كرحيل رقية وأهلها عن مكة . فالفكرة تستمر ويستمر معها بعض الأساليب القديمة التي كانت تعبر عنها ، ولكن بعد أن تُعَدَّل ، وبعد أن لا يكون وصف الأطلال

والديار غاية للشاعر ، وإنما تكون غايته التعبير عن دخائل نفسه .
وقد يكون في هذا ضربا من شعور الفرد بنفسه أكثر مما كان
الشان في القديم ، فقد أصبح العربي ، والعربي القرشي بصفة خاصة ،
يرى نفسه يملك من بقاع الأرض ما يريد ، ويستخدم من سادة
الشعوب المجاورة من يريد ، ويكتظ بيته بالرقيق وبضروب من الحضارة
وحظوظ مختلفة من المتعة بالحياة ، فطبيعي أن يسود في هذا العصر التعبير
عن النفس وخاصة في الحجاز وفي مكة وبين القرشيين . ولعل هذا أحد
الأسباب المهمة في شيوع شعر الحب ، فالشاعر يغنى نفسه ، ويعبر عنها ،
ومن هنا لا تجوز عليه الأساليب الفنية القديمة إلا بمقدار العنصر الصالح
منها الذي يمكن أن يستمر وأن يتلاءم والتعبير عن النفس .
وهذا التغيير الطارئ في أساليب الفن والشعر في الحجاز عند ابن
قيس وأمثاله لا نلاحظه فقط في حجر بعض الأساليب القديمة ، وحجر بعض
المعاني التي كانت تعالجها ، وإنما نلاحظه أيضا في اللغة نفسها ، ف لغة ابن
قيس ليست هي اللغة القديمة الزاخرة بالغريب التي نعرفها عند ليبيد مثلا ،
بل ليست هي اللغة التي نعرفها عند شعراء العراق المعاصرين له من أمثال
جرير و الفرزدق ، فإن تيار الشعر كان يستمد هناك من الصورة القديمة
بشكل أعنف وأقوى مما كان الشأن في الحجاز . و فرق بعيد جدا بين ديوان
الفرزدق مثلا وديوان ابن قيس ، فعند الأول نجد الألفاظ الغريبة تنصب
علينا انصبابا كما تنصب علينا العبارات الملتوية المعقدة ، بينما عند الثاني

لا نجد نموذجا في التعبير ولا لفظا مهجورا ، فالأساليب الفنية قد أصبحت سهلة مستساغة تحت تأثير ما أصاب النفوس في الحجاز من تغير أساليب الحياة وتعمق ألوان الحضارات التي غرقوا فيها إلى آذانهم .

وليس من ريب في أن للغة أثرا بعيدا في هذا التطور الذي أصاب لغة الشعر في الحجاز ، فإن المعنين كانوا من الأجانب غالبا ، وكان ذوقهم متحضرا بأبى الأسلوب المعقد المكتظ بالغريب ، نجارهم الشعراء في المقطوعات التي أفوها لهم ، ولا بد أن الشعراء كانوا يسعون إلى أن يكون شعرهم شعبيا يشيع في الناس ويدور على ألسنتهم ، ولذلك التمسوا له الأساليب الخفيفة السهلة ، ولم يقفوا بهذه الأساليب عند الغزل بل أشاعوها في كل ما نظموا من موضوعات . وهل من ريب في أن مدائح ابن قيس لمصعب وعبد الملك وعبد العزيز وابن جعفر هي من ذوق جديد في اللغة غير ذوق الفرزدق ومن لف لفة ممن كانوا يأتئون قليلا أو كثيرا بالشعراء القدماء . واستمع إلى ابن قيس يقول في عبد الملك^(١) :

ما نَقَمُوا من بنى أمية إلا أنهم يَحْمُونَ إن غَضِبُوا
وأنهم مَقْدِنُ الملوكِ فلا تَصْلُحُ إلا عليهمُ العَرَبُ
إن الأغر الذي أبوه أبوال ماضى عليه الوقارُ والحجُبُ
خليفة الله فوق منبره جَعَتْ بذاك الأقلامُ والكُتُبُ

يعتدل التاج فوق مفارقة على جبين كأنه الذهب
فهذا مديح بلغة سهلة خفيفة وبذوق حضري جديد ، وليس من
ريب في أن الرواة أخطأوا حين زعموا أن عبد الملك لم يعجبه هذا الشعر
وأنه قال لابن قيس : تمدحني بالتاج كأني من العجم ، ونسوا أن الحياة
العربية تغيرت ، وأنها استعجمت في بعض جوانبها ، فلا بأس أن يمدح
الشاعر الخليفة بالتاج .

وهذا التغير الذي نلاحظه عند ابن قيس في لغة المديح وأساليبه
نلاحظه أيضاً في رثائه ، فهو ليس رثاء ضخماً مطولاً على نحو ما نعرف
في الرثاء القديم ، وإنما هو مقطوعات قصيرة تسيل فيها النفس ويسيل
فيها الحزن سيلاناً . واستمع إليه يرثي مصعباً ، فيقول ^(١) :

إن الرزية يوم مسكن والمصيبة والفجعة
يا بن الحواري الذي لم يعدّه يوم الواقعة
غدرت به مضر العرا ق وأمسكت منه ربيع
فأصبت وترك يا ربيع وكنت سامعة مطيع
يا لهف لو كانت له بالدير يوم الدير شيع

وواضح أن هذا الرثاء مكتوب بلغة دانية قريبة من مألوف الناس ،
وكأنه نظم ليغني ، ك شعر الحب الذي ينظمه ابن قيس ، فيغني فيه المغنون

والمغنيات . وغنيت هذه القطعة فعلا فإنها ألقت في الواقع لا لتنشد وإنما ليغنى فيها المغنون ، وليصنعوا فيها الألحان والأنتقام . فشعر ابن قيس كله شعر يراد به إلى الغناء لا إلى الإنشاد ، ومن هنا تأتى جملة الخلافات التى بينه وبين أصحاب الشعر التقليدى ، فهو يؤلف أغاني في الحب وفى المديح وفى الرثاء ، وقد اشتهرت له هذه الأغنية التى قالها فى رثاء أهله بعد موقعة الحرة وهى تجرى على هذا النمط ^(١) :

ذهب الصَّبَا وتركت غَيْتِيَهْ	ورأى الغوانى شيب لِمَتِيَهْ
وهَجَرَنِي وهَجَرْتَنِي	وَقَدْ غَنَيْتْ كَرَامَهَا يَطْفُنْ بِيَهْ
إِذْ لَمَتْنِي سَوْدَاءَ لَيْسَ بِهَا	وَضَحَّ وَلَمْ أَفْجَعْ بِإِخْوَانِيَهْ
الْحَامِلِينَ لَوَاءَ قَوْمِهِمْ	وَالذَائِدِينَ وَرَاءَ عَوْرَتِيَهْ
إِنَّ الْحَوَادِثَ بِالْمَدِينَةِ قَدْ	أَوْجَعَنِي وَقَرَعَنِي مَرَّوْتِيَهْ ^(٢)
وَجَبَبَنِي جَبَّ السَّكَامِ ^(٣) فَلَمْ	يَتْرَكْ رِيْشًا فِي مَنَاكِيْهِ
وَأَتَى كِتَابٌ مِنْ يَزِيدٍ ^(٤) وَقَدْ	شَدَّ الْحَزَامُ بِسَرْجِ بَغْلَتِيَهْ
يَنْعَى بَنِي عَبْدِ وَإِخْوَتَهُمْ	حَلَّ الْهَلَاكُ عَلَى أَقَارِيْهِ

(١) الديوان ص ١٨٦ . (٢) قرع مروته : أصابه بشر .

(٣) السنام : وحده أسنمة الإبل .

(٤) هو يزيد بن علي بن عبد الله من بني عمرو بن معيص وهو الذى نعى إلى الشاعر قتل ابني أخيه ومن معهم من بني عبد .

ونعى أسامة لى وإخوته فظلات مُسْتَكَا مَسَامِيه
 كيف الرقاد وكلما هَجَعَتْ عِني أَلَمَّ خِيَالُ إِخْوَتِيه
 تبكى لهم أسماء معولةً وتقول ليلي وارزِ بَيْتِيه
 تالله أبرح فى مَقَدَّمَةٍ أَهْدَى الْجِيُوشِ عَلَى شِكَّتِيه
 حتى أَفْجَعَهُمْ بِإِخْوَتِهِمْ وَأَسْوَاقِ نِسْوَتِهِمْ بِنِسْوَتِيه

وليس من ريب فى أن هذه قطعة رائعة وأنها تدل على ذوق
 جديد فى الرثاء ، فقد استطاع الشاعر أن يذيب نفسه وكل ما فيها من
 حسرة وتلف على أقاربه فى هذه الأبيات الطريفة التى هى أقرب إلى
 أن تكون أنشودة حزينة أو نواحا وندبا منها إلى أى شئ آخر ، فهى
 قطعة قيلت لينوح بها بنو عَبدٍ ، أو بنو معيص أو بنو عامر بن لؤى ،
 قتلاهم ، وليرسلوا فيها كل ما يريدون من تنهّدات وزفرات .

وموسيقى القطعة متكاملة لى تتيح لها كل ما يمكن من نواح
 بها وندب ، فقد اختار ابن قيس وزن الكامل الذى تكثر حركاته
 لى يبسط النأخ بالكلمات وحروفها كما يريد ، وخيمها بالهاء الساكنة
 ليقف الصوت عندها ويأخذ النأخ الفرصة لإخراج آهاته ، فيعلو
 بالصوت ثم ينخفض به عند القافية ، وقد انسابت حركة الياء ،
 وخيمت بالهاء ، ليتم له كل ما يريد من انطلاق بالصوت وانخفاض به
 شأن النأخين النادين . ويقول الرواة إنه أنشد هذه القطعة عبد الملك ،

فقال له ^(١) : « أحسنت لولا ما خنثت به شعرك ، أولولا أنك خنثت في قوافيه ، فقال ابن قيس : والله ما عدوت قول الله عز وجل : ما أغنى عنى مَالِيَهُ ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهُ » ونحن نشك أن يصدر ذلك من عبد الملك ، وكان قارئاً للقرآن الكريم محدثاً قبل اعتلائه عرش الخلافة ، وأكبر الظن أن الرواة نسبوا ذلك إليه . وعلى كل فالقطعة تعتبر شذوذاً في الرثاء على ذوق الرواة ، وقد يكون عبد الملك أحسن هذا الإحساس لأنه لم يعود أن يستمع إلى هذه الموسيقى وهذه القافية في الرثاء .

وليس في القطعة تخنث كما زعم الرواة ، وإنما فيها هذا التكامل الموسيقي لتؤدي غرضها ، وأظنها تدلّ أبغ الدلالة على هذا الذوق الحديدي صنع الشعر ، وهل من الممكن أن يصل شاعر إلى هذا التعبير الشفاف عن حزنه دون أن يدعم ذوقه بأسباب حضارية ؟ إن الحياة المتحضرة الجديدة التي أبدلت ذوق الناس في الحجاز ، وجعلتهم أرق شعوراً وأدق إحساساً هي التي هيأت للتبديل والتغيير في ذوق الفنانين وبالتالي في أساليبهم .

وكان للغناء أثر عميق في ذلك كله ، فالشعراء أخذوا يقاترون بالحنان المغنين وأنغامهم ، وأخذوا يحاولون أن يكملوا لأشعارهم كل ما يمكن من قيم صوتية . ومن المعروف أن المغنى يهمس أو يجهر في بعض الحروف وبعض الحركات ، أو بعبارة أخرى يطيل أو يحذف في بعض الحروف وبعض الحركات . وكان الشعراء يلاحظون ذلك ،

(١) الشعر والشعراء ص ١١٣ .

ومن غير شك كان ابن قيس وأمثاله من أصحاب الشعر الغنائى يحاولون أن يقيسوا شعرهم على أسس النظرية الجديدة للغناء التى سبق أن وصفناها وألحانها من ثقیل أول أو ثان وخفيف رمل أو هزج ونحو ذلك ، وكان الشعراء على اتصال دائم بالمغنيين والمغنيات . وقد معنا أن ابن قيس كان صديقاً لفند وسائب خاثر وبديح وسلامة . ومعنى ذلك أنه كان على اتصال دائم بالمغنيين والمغنيات وما يطلبونه من الشعر .

ولست المسألة مسألة إثبات نظرى ، فهذا ديوان ابن قيس أمامنا نستطيع إذا رجعنا إلى ما فيه من أوزان ثم قابلنا بين أوزانه وأوزان أصحاب الشعر التقليدى أن نلاحظ الأوزان الخفيفة فى شعره ، فهو يكثر من المديد والكامل والوافر والمتقارب والرمل والهزج ، وإن استعمل الأوزان المعقدة مثل الطويل أحسننا كأن الوزن يتغير تحت تأثير ذوقه واختياره لألفاظه . وزاه بجانب ذلك يكثر من مجزوات البحور كمجزوء الكامل ومجزوء الوافر ، وكل ذلك إيماءً عنده وعند نظرائه من أصحاب الشعر الغنائى تحت تأثير نظرية الغناء الجديدة وما يطلبه المغنون . ويستطيع القارئ أن يرجع إلى ما أنشدناه من شعره ليرى التجزئة فى الأوزان ، بل ليرجع إلى ما لم يُجزئ فيه ليرى آية ما نقول من أن الشعر عند ابن قيس تأثر الغناء الجديد ، فكثير من القطع يكاد ينحل إلى أصوات خالصة .

والحق أن شعر ابن قيس قيل ليغنى ، ولم يُقَلَّ لينشد ، ومن هنا

يأتى الخلاف الشديد فى موسيقاه وموسيقى الشعر التقليدى ، فالفرزدق وجريرونظراؤهما لم يكونوا يفكرون فى الغناء ، ولذلك كانوا يصنعون مطولات ، أما ابن قيس وأضرابه ، فكانوا يفكرون فى الغناء قبل كل شئ ، ولذلك كانوا يصنعون مقطوعات ، أو كما يسميها أبو الفرج نفسه أغاني ، فهم يصنعون قطعاً ليعنى ، وهم يرتبطون بحياة الغناء الجديدة وذوق المغنين وما يريدون من ألحان وأنغام . وهذا هو معنى أن شعر ابن قيس شعر غنائى بينما شعر جريرونظرون وأمثالهما شعر تقليدى . ولعل هذا هو السر فى أننا لا نجد عند ابن قيس ولا عند ابن أبى ربيعة عناية بالصور الشعرية ، فالأخيلة قليلة والاحتفال لعمل الصور فى الشعر قليل ، وقد تأتى بعض الصور فى شعرهم ولكنها قليلة ونادرة ، فهم مشغولون عنها بالاهتمام بالموسيقى ، فهى كل همهم وكل شغلهم ، وكل عنائهم مقصورة عليها قصراً .

على كل حال الصور نادرة عند ابن قيس ، ولكن الموسيقى والقيم الصوتية متوفرة ، وهو يرتفع فى هذا الجانب ويحلق فيه إلى الغاية التى يمكن أن تنشأ من مثله ، فقد تحقق للشعر عنده كل ما يمكن من صفاء فى موسيقاه ونقاء فى ألفاظه ، وكأما وضعت اللغة بين يديه ليختار منها ما يريد من كلمات داخلية فى الأبيات وقواف خارجية ، يحتم بها هذه الكلمات ، ولعل ذلك ما جعل حمادا الراوية يقول : « إن أردت أن تقول الشعر فارو شعر ابن قيس الرقيات فإنه أرق الناس حواشى

شعر^(١) . فهو شعر يموج بالخفة والركة حتى في الموضوعات الكثيثة الحزنة ، وهو شعر يكتمل له الصوت المقرح حين يكون صاحبه فرحاً مسروراً ، ويكتمل له الصوت الحزن حين يكون مكتئباً محزوناً .

٤

ديوانه

تنطبق الصورة العامة التي صورنا بها شعر ابن قيس الغنائي على ديوانه انطباقاً تاماً ، فهو كله يخضع لفكرة صنع الشعر من أجل الغناء لا من أجل الإنشاد . وأول ما يلاحظ من ذلك أنه مقطوعات ، وقد توجد فيه القصيدة من أجل المديح ولكنها لا تطول ، ولا يحتفل بصاحبها بمقدمات المديح الطويلة . هي في الواقع أنشودة تكتب وأغنية تنظم . وهذه الأغاني التي يتضمنها ديوان ابن قيس ، أو هذا الشعر الغنائي تطبعه كله طوابع أسلوب واحد ، فالرونة والقرب من لغة الناس وقلوبهم والشفافية الشديدة التي تشف عن الحركات النفسية للشاعر كل ذلك يتجلى في صفحات الديوان ، لا فارق بين صفحة وصفحة ولا بين مقطوعة وقصيدة .

ولعل هذا أهم خلاف يفرق بين دواوين أصحاب الشعر الغنائي

(١) شرح شواهد المغني للسيوطي طبعة الحانجي ص ٤٧ وتاريخ دمشق المجلد ٢٥ الورقة ٢٠٨ .

ودواوين أصحاب الشعر التقليدي ، فالأولون فرديون أكثر من الثانين ، يشعرون بذاتهم وشخصياتهم أكثر مما يشعرون زملائهم ، ويعطون في شعرهم من أنفسهم ودخائلهم أكثر مما يعطون . وهذا هو الذي يجعل شعرهم قريبا من نفوسنا ، فهم يخاطبوننا مباشرة دون أساليب ملتوية تحشد من القديم ، فهم الشعراء ليس حشد الأسلوب القديم ، وإنما همه حشد نفسه وحشد وقائع الحياة من حوله ، وهو لذلك لا يتخذ الأسلوب القديم ، فهو لا ينهض بما يعبر عنه ، وإنما يتخذ أسلوبا جديدا أساسه القرب في اللغة من الحياة اليومية ، ومن الوقائع النفسية لمعاصريه ، فهو يؤمن بنفسه وبعصره وبمجتمعه وبالحياة التي تجري تحت عينه . ومن أجل ذلك يتصل بهذا كله ويحاول التعبير عنه ، فيضطر اضطرارا إلى استخدام أسلوب جديد ، ليس هو الأسلوب القديم . قد يستمد منه كما هو الشأن عند ابن قيس ولكنه لا يطغى عليه ، فمثلا قد يذكر الأطلال والديار ، ولكن في بيت أو أبيات قليلة جدا . وليس هذا كل ما يدخله من تعديل فهو يضيف إليه خواطر حبه وتوهمه بمحبوبته ، ثم هو لا يذهب بعيدا في الغريب على عادة القدماء ، فالقديم قد يأتي في شعره ، ولكن بعد أن يحوّر ويعدل ويطنع بطابع جديد .

وأكثر منظومات ابن قيس والجمهور الأكبر من شعره لا يكاد يستمد من القديم . فهو مقطوعات تقال في الحب ، تحكى عواطفه وعواطف الناس من حوله في أبيات قليلة قلما تجاوزت عدد أصابع اليدين . وكل

من يقرأ هذه الأبيات يحس الفرق الواضح جداً بين أسلوبها والأسلوب القديم . ولم لا ؟ لقد تغيرت الحياة العربية تحت تأثير حضارات جديدة جلبتها الفتوح العربية إلى الحجاز ، وأصبح من الضروري أن يحطم الفنان الأسلوب القديم ، أو على الأقل يحطم إطاره في بعض جوانبه ، ليعبر عن الحياة الجديدة .

ومن غير شك نهض ابن قيس نهوضاً حسناً بصنع هذا الأسلوب الذي يتراءى في المقطوعات السابقة التي أنشدناها من شعره ، وكانت لديه مقدرة رائعة في ذلك ، فلم يبدل فقط في أسلوب الغزل والتشبيب ، بل بدل أيضاً في أسلوب المديح ، وظهر التبديل أوضح في أسلوب الرثاء ، إذ جعله على نحو ما قدمنا غناء خالصاً ، فغنى فيه المغنيات والمغنون .

وليس هذا كل ما نجده عند ابن قيس في ديوانه من جديد ، فنحن نجد جديداً آخر ، ولكن هذه المرة لا نلاحظه في صورة الشعر ، وإنما نلاحظه في جوهره ، فمن أهم ما يميز شعره في ديوانه رقة حس بالغة ، وهي رقة تعبر عن كل ما أصاب القوم في شعورهم وأذواقهم تحت تأثير الحضارة الجديدة ، رقة نشاهدها عند الرجال المهذبين في الأمة حين تتحضر فنرى جماعة يدق إحساسهم دقة بالغة ، ولعل من أهم ما يصور هذا الجانب في ديوان ابن قيس أننا لا نجد فيه هجاء إلا قطعة واحدة قيلت في عبد العزيز بن عبد الله بن خالد الذي فشل في حرب الخوارج وفر مهزوما أمامهم وترك لهم زوجته ، وهي قطعة لا تعد هجاء بالمعنى

الكامل ، بل هي أقرب إلى أن تكون عتابا له ، فإنه لم يحارب مع جيشه بل تركه ولا أمير عليه ونسى عرسه فسبها الخوارج ، فقال ابن قيس ^(١) :

عبد العزيز فضحت جيشك كلهم وتركهم صرعى بكل سبيل
من بين ذى عطشٍ يحود بنفسه وملحَّب بين الرجال قتييل
هلا صبرت مع الشهيد مقاتلا إذ رُحْتَ مُنتكث القوى بأصيل
وتركت جيشك لا أمير عليهم فارجع بعاري في الحياة طويل
ونسيت عرسك إذ تقاد سبيّة تُبكي العيون برنةٍ وعويل

فإن قيس لا يهجو حقا ، وإنما يعقب . وفرق بعيد بين هذا العتاب وبين أهاجي جرير والفرزدق المعروفة التي تقوم على القدح والإفداع في الهجاء إقذاعا يؤلم الذوق المتحضر في أكثر الأحيان . ولم تصح نسبة قطع في الهجاء لابن قيس سوى سوى هذه القطعة . وهذا لا شك غريب على ذوق من يقرأون الدواوين العربية إذ يجدون دائما بابا فيها للهجاء ، أما عند ابن قيس فهذا الباب قد أوصد أمام القارئ ، بل قد أوصد أمام نفسية الشاعر بسبب هذه الدقة في الشعور التي وصفناها ، وهي رقة تمنع الرجل للمهذب من أن يخوض في أعراض الناس أو يذكركم أو يصفهم بما يسوءهم .

(١) الديوان ص ٢٩٣ وانظر الطبري ٨٢٨/٢ وابن الأثير ٢٧٩/٤ .

ديوان ابن قيس إذن ديوان شخص متحضر أثرت الحياة الحضارية الجديدة التي عاشها في ذوقه وفي حسه وفي فنه . ومن هنا كان قارؤه يشعر بأنه صاحب أسلوب جديد ، وأنه يعبر عن حياة جديدة صُهرَ فيه صهرا وذاب فيها ذوبانا . وقليل هم الذين يستجيبون للحياة الجديدة على نحو ما يستجيب ابن قيس للحياة في عصره . وكأنما هو قيامة وهبتها الطبيعة للحجاز حين تحضر ، لنسمع فيها كل الفيضات التي أصابته تحت تأثير الحضارة من جهة ، وتحت تأثير الغناء والتعبير عن عواطف الناس من جهة أخرى .

وشعر ابن قيس من هذه الناحية ينسجم انسجاما تاما مع عصره ، ولعل هذا هو أهم سبب يتيح له هذه الرشافة التي تميز أسلوبه والتي تجعلنا نُشعر به كلما قرأنا فيه ، فهو أسلوب تام من جهة الألفاظ وانتخابها ومن جهة العواطف والتعبير عنها تعبيراً حاراً حينما تطلب الحرارة ، وهادئاً حينما يطلب الهدوء . وكل ذلك يعلوه تموج رشيق ، كما تعلوه هذه الجدة في الحس وهذه الرهافة في الشعور التي تميز ابن قيس في كل ما ينظم وكل ما يقول .

ولقد مرت به أوقات كان فيها متحزبا لمصعب وأخيه عبد الله ضد عبد الملك وأسرته ، ومع ذلك فقلما نجد عنده الكلمة النابية ، بل إننا نجد دائما محزوناً أسفا على ما أصاب قريشاً من تفريق كلمة أبنائها

وإنه ليذيع ذلك في قصائده التي يمدح بها مصعبا ، يقول في بعض مدحه (١) :

فَنَطَعَ أَرْحَامٌ وَفُضَّتْ جَمَاعَةٌ وَعَادَتْ رَوَايَا الْحِلْمِ بَعْدُ رَكَائِكَ (٢)
وفي جميع جوانب مدحه لمصعب نجده يأسى على هذا النحو لما صار إليه أمر قريش من تقاطع وتنابد وانقسام كلمة ، واستمع إليه يقول في بعض مدائح له (٣) :

حَبَّذَا الْعِيشُ حِينَ قَوْمِي جَمِيعٌ لَمْ تَفَرَّقْ أُمُورَهَا الْأَهْوَاءُ
قَبْلَ أَنْ تَطْمَعَ الْقِبَائِلُ فِي مُلْكِ قُرَيْشٍ وَتَشْمَتَ الْأَعْدَاءُ
أَيُّهَا الْمُشْتَهَى فَنَاءَ قُرَيْشٍ يَبِيدُ اللَّهُ عُمُرَهَا وَالْفَنَاءُ
إِنْ تَوَدَّعَ مِنَ الْبِلَادِ قُرَيْشٌ لَا يَكُنْ بَعْدَهُمْ لَحْيٌ بَقَا
لَوْ نَعَفَى وَنَتَرَكِ النَّاسَ كَانُوا غَنَمَ الذُّبِّ غَابَ عَنْهَا الرَّعَاءُ (٤)

فإن قيس يؤذيه اختلاف قريش إيذاء الشخص المذهب رقيق الحس . وهذا جانب يتردد في مدائح مصعب مما يدل على أنه يصدر عن شعور صادق . وقد يُظَنُّ أن هذا يدل على بعد نظره وأنه يوطىء لنفسه حين يتحول الأمر إلى الأمويين إن تحول ، ولكن هذا في الواقع تعليل سطحي لا يفيق ونفسية ابن قيس ، إنما التعليل الصحيح هو رقة حسه وبؤسه

(١) الديوان ص ٢٢٨ .

(٢) روايا الحلم : الحلاء . ركائك : جمع ركيك وهو الضعيف .

(٣) الديوان ص ١٧٢ . (٤) الرعاء : الرعاة .

حين رأى قریشا تنقسم هذه الانقسامات ، فيقتل الحسين ، ويقتل عثمان وعلى والزبير وطلحة من قبل ، ويقتل عبد الملك ومصعب أخيراً ، وتذهب أثناء ذلك في ذمة الله ضحايا الحرة . لقد كان ذلك يؤذيه في ضميره كما يؤذى القرشي في عصره رقيق الشعور ، وبلغ من رقة شعوره أن أشاد بعثمان أثناء مدحه لمصعب بعد الأبيات السابقة فقال ^(١) :

الذي أشربت قریش له الحب عليه مما يحب رداء
ولعل هذه الرقة هي التي جعلته يفي لمصعب بعد موته على نحو ما
أسلفنا ، فقد كان من رهاقة الشعور ودقة الحس بحيث لا يستطيع أن
يفكر ماضيه ولا أن يكون كنوداً لمن أحسنوا إليه .

الوفاء إذن عند ابن قيس خيط من الخيوط التي تتصل برهاقة
الشعور ورقة الحس ودقته عند الرجل المتحضر المذهب . وهناك خيط ثان
يقضح في شعره لمصعب وعبد العزيز بن مروان ، فكل من يقرأ الديوان
يلاحظ أن ابن قيس لزم مصعباً دون أخيه عبد الله الخليفة ، كما لزم عبد
العزيز أيضاً دون أخيه عبد الملك . وكان لذلك أثره في شعره ، فعبد
الله بن الزبير لا يكاد يظهر إلا في قصيدتين سبق أن وضحنا كيف القول
بأنهما في مدحه ، فإحداها في مدح عبد الملك والثانية في مدح ابن
جعفر . أما عبد الملك فقد مدحه في الديوان مراراً لأنه عفا عنه ،
وأكرمه ^(٢)

(٢) الديوان ص ٧٦ .

(١) الديوان ص ١٧٩ .

والخيط الذى نشير إليه هو خيط المبالغة فى الشعور فإن عطايا مصعب وعبد العزيز تأسره ، فترى اندفاعا شديداً فى مدحهما ، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه كان يعطى مصعبا صفات الخليفة ، فهو الخليفة الحقيقى فى حسه ، يقول فى بعض مدحه ^(١) :

على بيعة الإسلام بايغن مصعبا كراديس من خيل وجمعا مباركا
وكانه كان يؤمن بأن مصعبا خليفة أخيه عبد الله وأن بيعته بالخلافة
تتضمن بيعة أخيه ، وذهب يبالغ فى مدحه وكأنه يعتبر نفسه داعية
له . وهذا الجانب نجده فى مدائحه لعبد العزيز وكان ولّى عهد فعلا لأخيه
عبد الملك ، فلما فكر عبد الملك فى خلعه وتولية ابنه الوليد مكانه رأيناه
يشور معه وفاء له وعرفانا بحميله ، فيقول ^(٢) :

لتهنئه مصر والعراق وما بالشام من برّه ومن ذهبه
يخلفك البيض من بنيك كما يخلف ^(٣) عود الثضار فى شعبه
نحن على بيعة الرسول وما أعطى من مجمه ومن عربه
وما من ريب فى أن هذا اندفاع وتهور جلبتهما رقة حس ابن
قيس ورهافة شعوره ، فكان إذا أخلص بالغ فى إخلاصه وباع نفسه
لصديقه .

(١) الديوان ص ٢٣٠ وانظر الأغاني طبع بولاق ٥٧/١٦ .

(٢) الديوان ص ٨٢ — ٨٤ وانظر الأغاني ٥٧/١٦ .

(٣) يخلف : يثبت عودا بعد عود .

على كل حال ابن قيس في ديوانه مثال للرجل المتحضر الراقى الذى لا تحدشه العيوب الخلقية ، وهو فى شعره مثال للشاعر الغنائى المتحضر الذى لا تحدش شعره عيوب فنية . وأظن أننا لا نبالغ بعد كل ما قدمناه ، إذا قلنا إن ابن قيس ماهر فى الضرب على قيثارة الشعر الغنائى الجديدة ، وأنه استطاع أن يستخرج منها أصواتاً رائعة تدل على إحسانه فى فنه وإتقانه لفهمه ، أصواتاً نجد فيها صورة عصره وما اضطرب فيه من أحداث ، بل صورة نفسه وما اضطربت فيه من وقائع سياسية وعاطفية ، وقد لا نبالغ أيضاً إذا قلنا إنه شدد إلى القيثارة المعاصرة وتراجيداً ، فكل من يقرؤه يستطيع أن يميز شعره وأن يميز أسلوبه بما يجرى فوق سطحه وفى داخله من أمواج نفسية تشف عنه إشفافاً ، وكأن شعره مرآة صافية لعصره ولنفسه ، ولما تأثرت به هذه النفس من ألوان حضارة وأصباغ حياة .

ابن قيس إذن صاحب أسلوب واضح فى تاريخ الشعر الغنائى عند العرب ، وهو أسلوب يميزه من نظرائه ، وقد استطاع أن يعمم هذا الأسلوب فى موضوعات الشعر التقليدى ، وكأنه خلق ليكون شاعراً ، وكأن روحه كانت تحوى قبساً لا يمس شيئاً إلا تحول إلى غناء . وطبعاً إنما تم هذا كله تحت تأثير حياة جديدة شغفت بنظرية جديدة للغناء كما شغفت بألوان حضارية مختلفة . وانطلق ابن قيس يعبر عن ذلك فى أساليب جديدة ، وهى أساليب حية ، كانت تستمد من مألوف الناس

في لغتهم وعواطفهم ، كما كانت تستمد من التهذيب الهائل الذي حصل لقن الغناء نفسه ، وأيضاً فإنها كانت تستمد من الذوق المتحضر الجديد . وكل ذلك نهض به ابن قيس ، واستطاع أن يوقعه على قيامة الشعر العربي ، بل استطاع أن يشد أوتار هذه القيامة شداً جديداً ، بل كاد أن يضيف إلى أوتارها وتراً ، حتى تصبح أكثر بساطة وأكثر ألفة للناس وقرباً من نفوسهم وأكثر صدقاً وصراحة في التعبير عن عواطفهم .

خاتمة

حاولنا في الفصول السابقة أن نرسم صورة صحيحة صادقة لمجتمع مكة في العصر الأموي وما ازدهر فيه من شعر غنائى تغنت به الأجيال للعاصرة والثالية . وذهبت أبحث أصول الحياة في هذا المجتمع وجذورهما منذ العصر الجاهلى ، حتى تتبين لى هذه الحياة من جميع وجوهها ، وحتى تكون الخطوط والألوان التى أصنع منها الصورة غير ملتبسة ولا مكتسبة بإبهام أو غموض .

ولاحظت أن الترف الذى أصيبت به مكة في العصر الأموي لم يكن شيئاً حادثاً ، فقد كان بها في الجاهلية حياة تجارية خصبة ملأت حجور كثير من القرشيين بالمال والثراء المفرط . على أن الإسلام لم تلبث أضواؤه أن ظهرت في الأفق وأخذت تعم في الجزيرة العربية وسرعان ما حمل المسلمون مشاعلها يريدون أن يضيئوا بها العالم ، فكانت الفتوح الإسلامية ، وكانت مغنم لا تحصى من أموال ورقيق وجوار . وصبَّ ذلك كله في مكة ، وصبَّت معه الحضارات الأجنبية وما لوتها في بيناتها الأصلية من ترف .

وكان من آثار هذا الترف والتحضّر أن نما الغناء ، وأن أخذ بعض

المغنين يحاول أن يخضعه لرسوم وتقاليد ، فكانت النظرية الغنائية المبثوثة في الأغاني ، حين نجد أبا الفرج يعلق على الصوت بقوله مثلاً : خفيف ثقيل أول أو ثقيل ثاني أو خفيف رمل ونحو ذلك مما عرضنا له في موضعه . وما زال المغنون في مكة يصعدون على أدراج هذه السلام الموسيقية ، كل يحاول أن يصل إلى مراقى الغناء العليا ، وحققوا لأنفسهم كثيراً من التفوق والنبوغ .

تغيرت الحياة في مكة ، وكان الفرد يشعر بنفسه شعوراً تاماً ، فقد أصبحت الدنيا ملكاً له ولقريش ، وأصبح البيت القرشي يعج بالرفيق الأجنبي ، ولم تعد في مكة تجارة إلا ما قد يكون أثناء الحج ، أما التجارة القديمة التي عرفناها في الجاهلية ، فقد قضى عليها الإسلام حين استولى على العراق والشام ، فافتتح أمام توابل الهند وصادراتها طريق الموصل ، ولم تعد هناك حاجة إلى الطريق المعقد ، طريق مكة القديم .

ومع ذلك فسكة عرفت في العصر الأموي ثراء لم يعهده أهلها في القديم ، وهو ثراء جاءها من الفتوح الإسلامية ومغانمها وأسلابها ، ثم من هذا العطاء المنظم الذي قُرِضَ لأهلها منذ عمر بن الخطاب . ومن هنا تكونت في مكة طبقة من الشباب العاقل الذي لا يعمل في تجارة ، فقد أغناه آباؤه الذين اشتركوا في الفتوح الإسلامية ، وأغنائه العطاء المنظم الذي يَرِدُ من دمشق .

وعلى هذا النحو تكون في مكة جيلُ الشباب العاطل الفارغ الذي لا بد له من مله أو تسلية يمضى فيها أوقاته . واستطاع الرقيق الأجنبي أن يرضى رغبته عن طريق هذا الغناء الذي وصفناه وما استحدث فيه من ألحان وإيقاعات وأنغام .

واندفع الشباب في إعجابهم بهذا الفن وأحبابه واندفعت معهم المرأة القرشية ، وأخذت تلمع حينئذ أسماء بعض الفتيات والسيدات ككل المجتمعات المتحضرة الراقية ، فأصبح هناك الرجل الذي يأخذ بيد هؤلاء المغنين ، كما أصبحت هناك المرأة التي تأخذ بيدهم أيضا .

ترف وغناء ، هذا هو مجتمع مكة في العصر الأموي ، وأثناء ذلك اعتداد بالنفس وشعور بالغ بها ، فأى شعرٍ يسود في هذا المجتمع ؟ أيسود الشعر التقليدي الذي يعبد الآخريين على نحو ما نعرف في المديح ؟ طبعا لا يمكن أن يسود مثل هذا الشعر الذي يعنى بالآخرين ، وكذلك لا يمكن أن يسود قرينه من شعر المهجاء والنقائض الذي نجده عند جرير والفرزدق فقد كان القوم مترفين ، ولم تكن في نفوسهم كل هذه الحزازات الجاهلية التي كانت في نفوس أهل العراق من القبائل العربية .

ولم تُعرف مكة في الجاهلية بشيء من هذه الحزازات ، بل لقد كان أهلها يعملون على موتها إبان ظهورها ، ولعل مرجع ذلك أنهم كانوا يعيشون معيشة فيها شيء من التحضّر ، ولذلك كانت أكثر أشعارهم التي رويت لهم في السيرة أشعارا فردية تعبر عن شعور القرشي إزاء حادثة

من الحوادث . ومعنى ذلك أن القرشيين كانوا مُعَدِّين منذ العصر الجاهلي للشعر الغنائى بأكثر مما أعدوا للشعر التقليدى .

فلما كان الإسلام رأينا عبد بن الحبحاس ينظم شعراً شبيهاً بالشعر الغنائى الذى شاع بعد حين ، مما جعلنا نظن أن الشعر الغنائى فى العصر الأموى يرجع إلى أصول جاهلية . وتقدمنا فوجدنا أبا دهل الجحى ينظم شعراً لا يكاد يختلف فى شيء عن شعر عمر بن أبى ربيعة ، وعاش أبو دهل أشواطاً من الزمن فى العصر الأموى . كل شيء كان يُعَدُّ إذن لنمو الشعر الغنائى ، فهناك أصول قديمة أُعِدَّتْ له ، وقد أعدت له أيضاً هذه الحياة المترفة التى عاشها القرشيون فى العصر الأموى ، وأعدت له أيضاً شعور الفرد بنفسه وإحساسه بها إحساساً قوياً فى هذه الحياة ، وكان مما أعد له أيضاً أن المرأة القرشية ساهمت فى العناية بفن الغناء الذى يقوم عليه . وكان للمغنين أنفسهم أكبر الأثر فى نمو هذا الشعر وتطوره ، فإنهم طلبوه ، وطلبتهم النوادى والمجالس . فكان لا بد أن يوجد الشعراء الذين ينهضون بحاجة المغنين وحاجة الناس من حولهم ؛ وحاجاتهم أنفسهم فى إرضاء المغنين من جهة والتعبير عن إحساساتهم من جهة أخرى ؛ ثم حاجة المرأة القرشية وإرضائها من حيث تصوير جمالها وما أوتيت من سحر وفتنة .

كان كل شيء فى مكة يدفع إلى نمو الشعر الغنائى ، وأن يحسنه الشعراء إلى أقصى حدود الإحسان وأن يطوِّروه مع فن الغناء الجديد إلى أقصى

حدود التطور ، ولعلت حينئذ أسماء كثيرين عرضنا بالتفصيل لاثنتين منهم وهما : ابن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات . وكان يشتهر بجانبيهما الحارث ابن خالد الخزومي والعرجي ، غير أن ما روى لهما من شعر محدود جدا ، ولا يمكن درسهما من خلاله . وكل شعر الحارث تقريبا في عائشة بنت طلحة ، تارة يغزل بها مباشرة ، وتارة يغزل بها عن طريق جاريتها بُسرة تعريضا^(١) ، وليس في هذا الشعر جديد بالقياس إلى الموجتين الحادثتين الكبيرتين : موجة ابن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات . وكذلك الشأن في العرجي حفيد عثمان بن عفان ، فقد أضاع الرواة شعره الغنائى إلا مقطوعات نظمها في أم محمد بن هشام الخزومي وإلى مكة لابن أخته هشام بن عبد الملك ، وأخرى في زوجة محمد بن هشام^(٢) ، وهى جميعها يراد بها الهجاء لا الغزل الصادق . وقد اشتهر له قوله فيها^(٣) :

أماطت كساء الخَزَّ عن حُرٍّ وجهها وأدنت على الخدين بُرداً مُمَهَّلاً
من اللاء لم يَحْجُبْ جَنِّ يَبْعَيْنِ حِسْبَةً ولكن ليقتلان البرىء المَغْفَلاً

ويجمع الرواة على أن العرجي خلف عمر في مكة وأنه كان يحتذى على مثاله^(٤) ، ولكنهم لم يحتفظوا لنا بما يصور ذلك من شعر العرجي وغزلياته .

(١) أغاني ٣/٣١٧ وما بعدها وكذلك ٣/٣٢٩ ، ٣٣٥ .

(٢) أغاني ١/٣٨٥ ، ٤٠٤ — ٤٠٨ .

(٣) أغاني ١/٤٠٤ . (٤) أغاني ١/٣٨٥ .

أما ابن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات فقد خلد لكل منهما على مر الزمن ديوانٌ كبير يصوره ويصور مجتمعه خير تصوير . واستطاع ابن أبي ربيعة أن ينهض حقاً بالشعر الغنائى ، فديوانه كله نسجت خيوطه من قصة القلب الإنسانى ، وهى معروضة فى قصص بديع . وعمر من هذا الجانب يتقدم جميع الشعراء فى العربية فلا نعرف قبله ولا بعده من نحا بغزله كله نحو القصص ، وأن يملأ ديوانه بعوالم من واقعه وخياله جميعاً ، فقد اتحد فى ديوانه الواقعُ والخيال ، واستطاع بمواهبه الفنية أن يؤلف مادة فنية بديعة .

على أن الغاية من هذه الأشعار والأقاصيص وأنها أريد بها إلى الغناء جعلت عمر لا يطيل فيها ، فهو ليس من أصحاب القصائد المطولة ، وإنما هو من أصحاب المقطوعات التى تغنى ، ولذلك فلما نجد عنده قصيدة بالمعنى الكامل . وحاول عمر أثناء هذه الغاية الغنائية أن يحقق لموسيقى شعره ضروباً من التلاؤم بينها وبين الغناء ، وكأنها كانت تصنع من نفس الألحان والأنغام التى يصنع منها الغناء ، وكان من آثار ذلك أن كثرت التجزئة والتعديل فى شعره ، وأن خفت لغته خفة شديدة . وكأما كان عند عمر هدف واضح أن يحقق لمعاني غزله ضروباً من التطور عن طريق هذه الخيوط القصصية التى نسجها فيها ، وليس ذلك فحسب ، بل أيضاً أن يلمس قلوب الناس وأفتدتهم بما يقطر فى شعره من عواطفهم ، وهى عواطف قوم تحضروا ، وأصبح لهم ذوق جديد

يتقلام وكلّ مقحضرين من بعدهم . ولعل ذلك ما جعله يختار اللغة الخفيفة السهلة اللينة التي تجرى على كل لسان . وليس ذلك ما صنعه عمر فحسب ، فإنه أيضاً استطاع أن يلائم أوسع ملاءمة بين شعره وبين ألحان المغنين وإيقاعاتهم حتى لسكانه كان ينظم شعره على نفس الآلات الوترية التي يضرّبون عليها .

وكان يعاصره ابن قيس الرقيات ولم يهب نفسه كلها للشعر الغنائى ، فقد خرج من مكة واضطرب فى الحوادث السياسية التي نشبت بين مصعب بن الزبير وأخيه عبد الله من جهة وعبد الملك بن مروان من جهة أخرى . ومع ذلك فهو يعدّ شاعرا غنائيا من طراز ممتاز ، لا من حيث شعره الغنائى ، بل من حيث ما نظمه من مدائح ومراث ، إذا استطاع أن يحول كل ما نظمه من شعر تقليدى إلى شعر غنائى تام . وهنا تظهر مهارة ابن قيس فإن الطاقة الغنائية فى شعره كانت قوية إلى أقصى حد .

وطبيعى أن نجد عند ابن قيس شيئا من الأساليب التقليدية بحكم اهتمامه بالشعر التقليدى ولكنها نادرة جدا ، فقد جعل نصب عينيه أن يترك هذه الأساليب وأن يضع مكانها الأساليب الغنائية التي تتقلام وعصره . ومن هنا قلنا إن شعره كله شعر غنائى بالمعنى التام ، فهو شعر كتب ليغنى فيه المغنون لا لينشده المنشدون .

وتميز ابن قيس بذوق حضري مترف حساس بالغ الحساسية ، فلم يَهْنُجْ أحدا ، ولم يحاول أن يؤذى شخصا ، وكان في غزله بل في شعره كله رشيقا منتهى ما يكون من رشاقة ، وهي رشاقة مردها إلى هذا الذوق المترف الذي عرف كيف يصهر الشعر في ألحان المغنين ، وكأنما كانت لديه حاسة سادسة يستقرى بها في دقة الألفاظ بل المعاني التي تدل عليها الألفاظ ، أوها جميعا .

والحق أن أصحاب الشعر الغنائى في مكة وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات استطاعوا أن يحققوا لشعرهم كل ما يمكن من نهوض ورق به ، وإن أسماءهم ما تزال تظن في سمع اللغة العربية بل في سمع الموسيقى العربية ، فهم الذين نهضوا بهذه الموسيقى حقا من حيث المطابقة بينها وبين أوزانهم ، فقد عاصروها في بدء نشأتها حينما تحولت إلى النظرية المعروفة في كتاب الأغاني ، واستطاعوا أن يقدموا للمغنين والمغنيات كل ما احتاجوه لفنهم الجديد ، وأن يشبعوا لأنفسهم أثمان ذلك أساليب فنية بارعة ، تعبر عما أصاب الحياة في مدينتهم من تطور تحت تأثير الحضارات الجديدة ؟

فهرس الموضوعات

صفحة

مقدمة ١ — ٢

الفصل الأول : مكة ١ — ٥١

- (١) موقع مكة ١
- (٢) مكة في العصر الجاهلي ٣
- (٣) في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ١٦
- (٤) في العصر الأموي ٢٧
- (٥) ثراء وحضارة ٣٤
- (٦) ترف ولهو ٤٤

الفصل الثاني : الغناء في مكة ٥٢ — ٩٧

- (١) في العصر الجاهلي ٥٢
- (٢) في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ٥٧
- (٣) في العصر الأموي ٦١
- (٤) الغناء المتقن ٦٩
- (٥) أشهر المغنين : ابن مسيح ، ابن محرز ، ابن سريج ،
الغريض ، الأبحر ، الهدلى ٧٩

الفصل الثالث : الشعر الغنائي في مكة ٩٨ — ١٤٦

- (١) الشعر في مكة ٩٨
- (٢) الشعر الغنائي ١٠٧
- (٣) خصائص ومميزات في الشعر الغنائي ١١٨
- (٤) فئنة المكين بالشعر والغناء ١٢٨
- (٥) الشعر الغنائي على كل لسان ١٣٥

الفصل الرابع : شمر بن أبي ربيعة ١٤٧ — ٢٠٢

(١) نسبه وعشيرته وأهله ١٤٧

(٢) حياته وأخلاقه وصفاته ١٥٠

(٣) شعره الغنائي ١٦٤

(٤) ديوانه ١٩١

الفصل الخامس : ابن قيس الرقيات ٢٠٤ — ٢٦٨

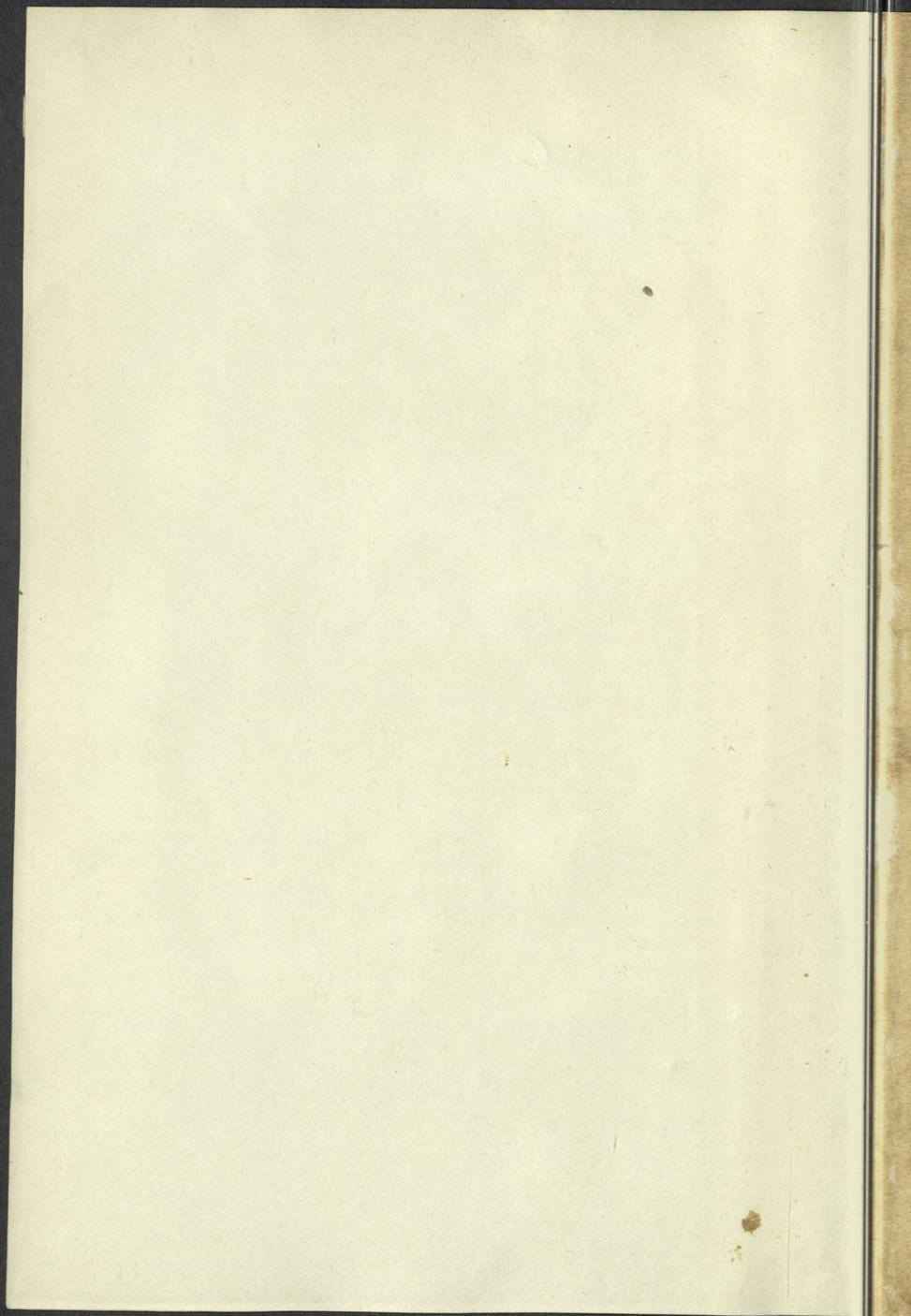
(١) اسمه ولقبه وعشيرته ٢٠٤

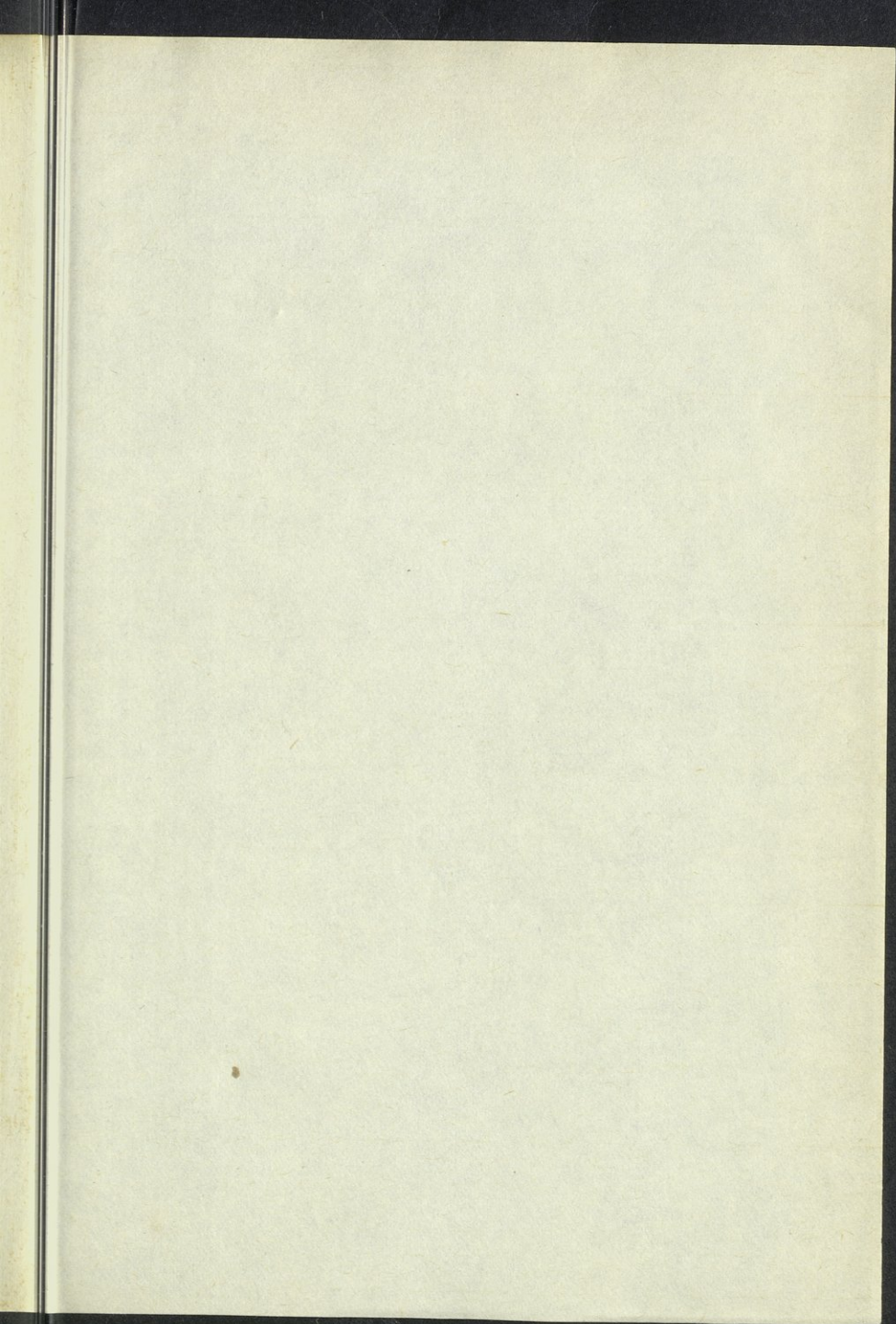
(٢) حياته وأخلاقه وصفاته ٢٠٩

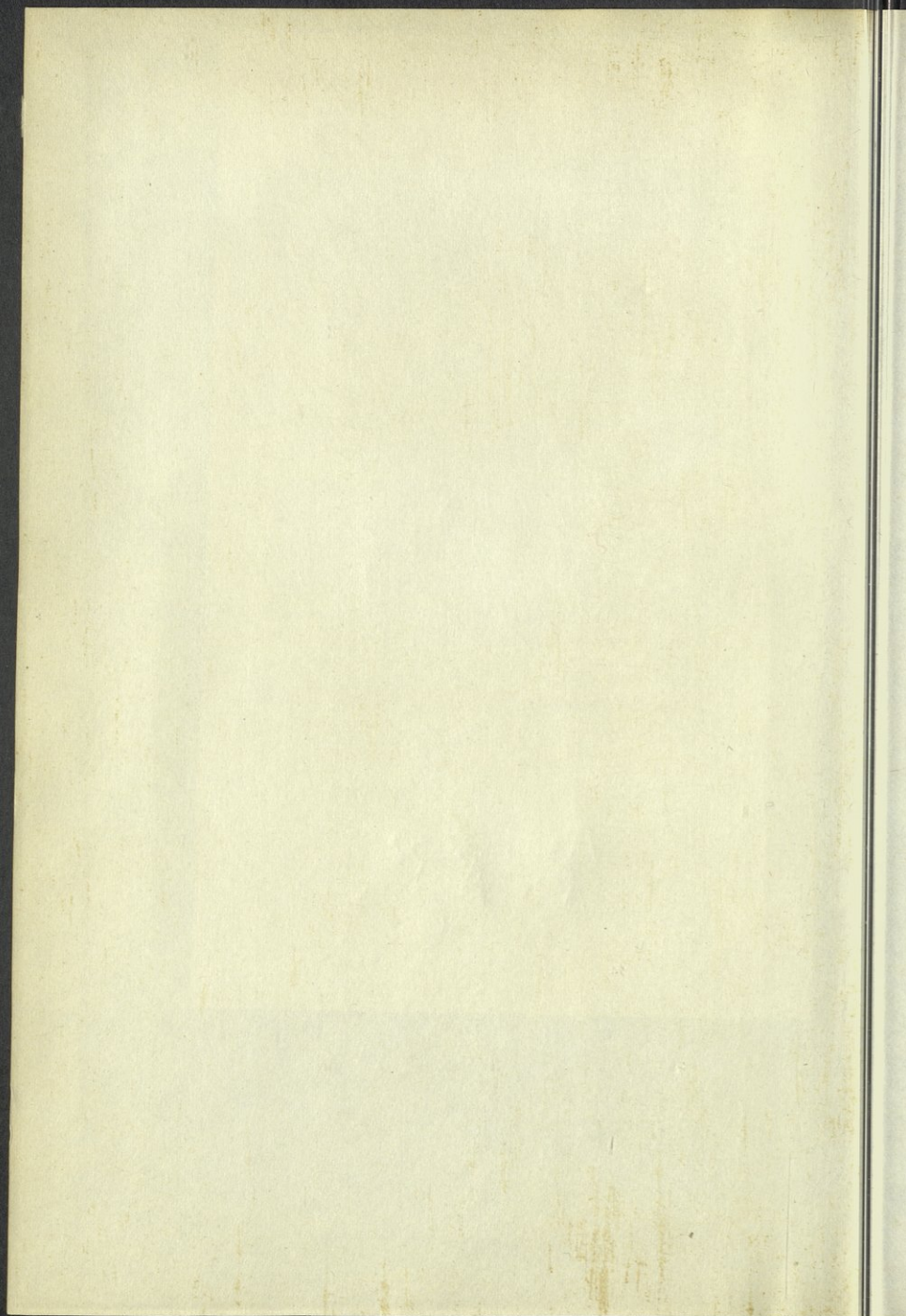
(٣) شعره الغنائي ٢٢٨

(٤) ديوانه ٢٥٩

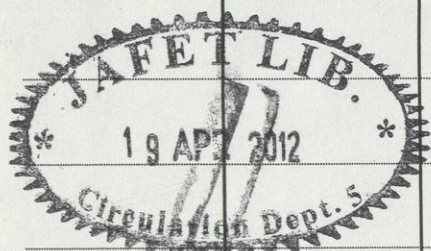
خاتمة ٢٦٦ — ٢٧٦







DATE DUE



808.1:D27sA:v.2:c.1

ضيف، شوقي
الشعر الغنائي في الأمصار الإسلامية

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031774

808.1

D27sA

v.2

